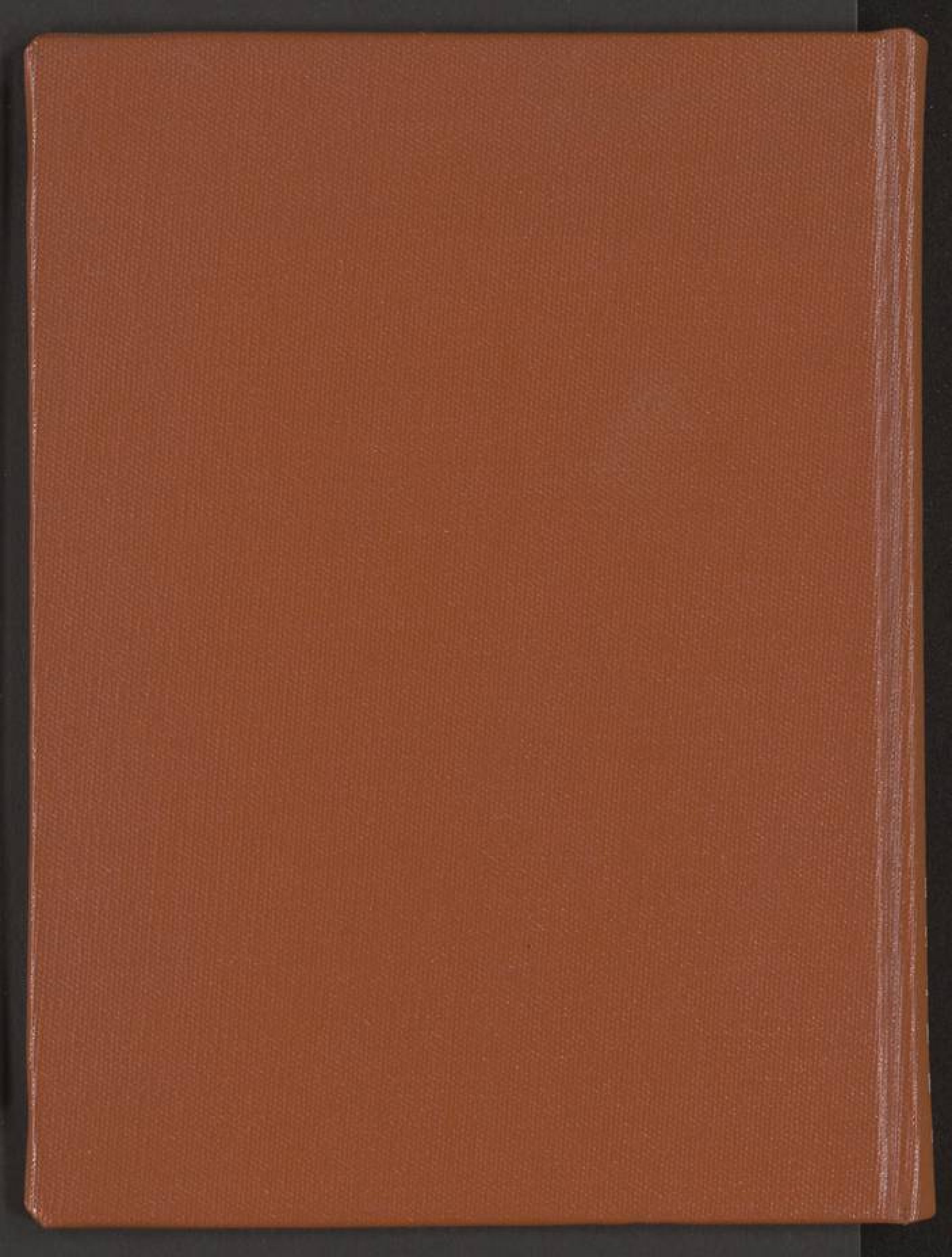
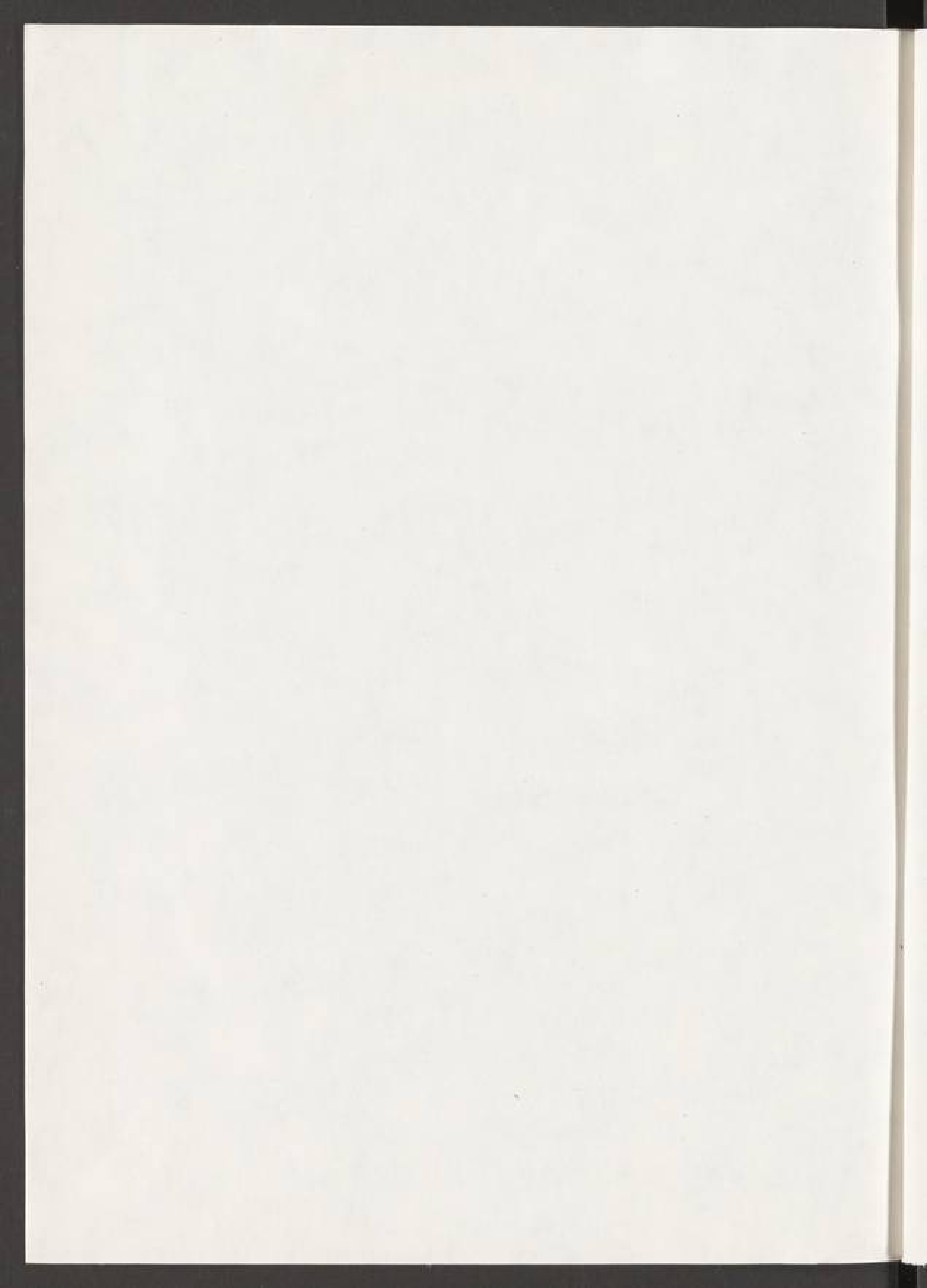


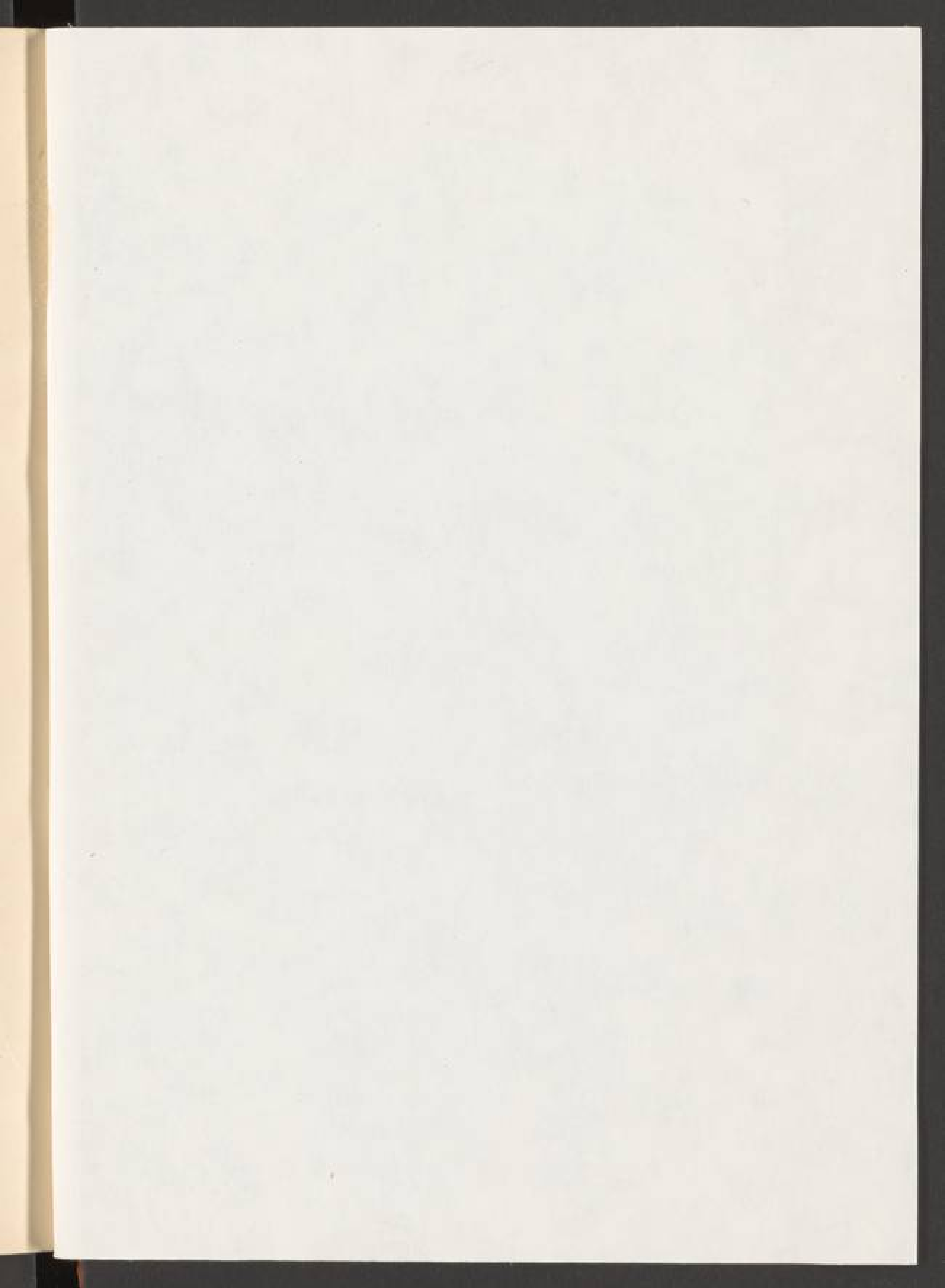


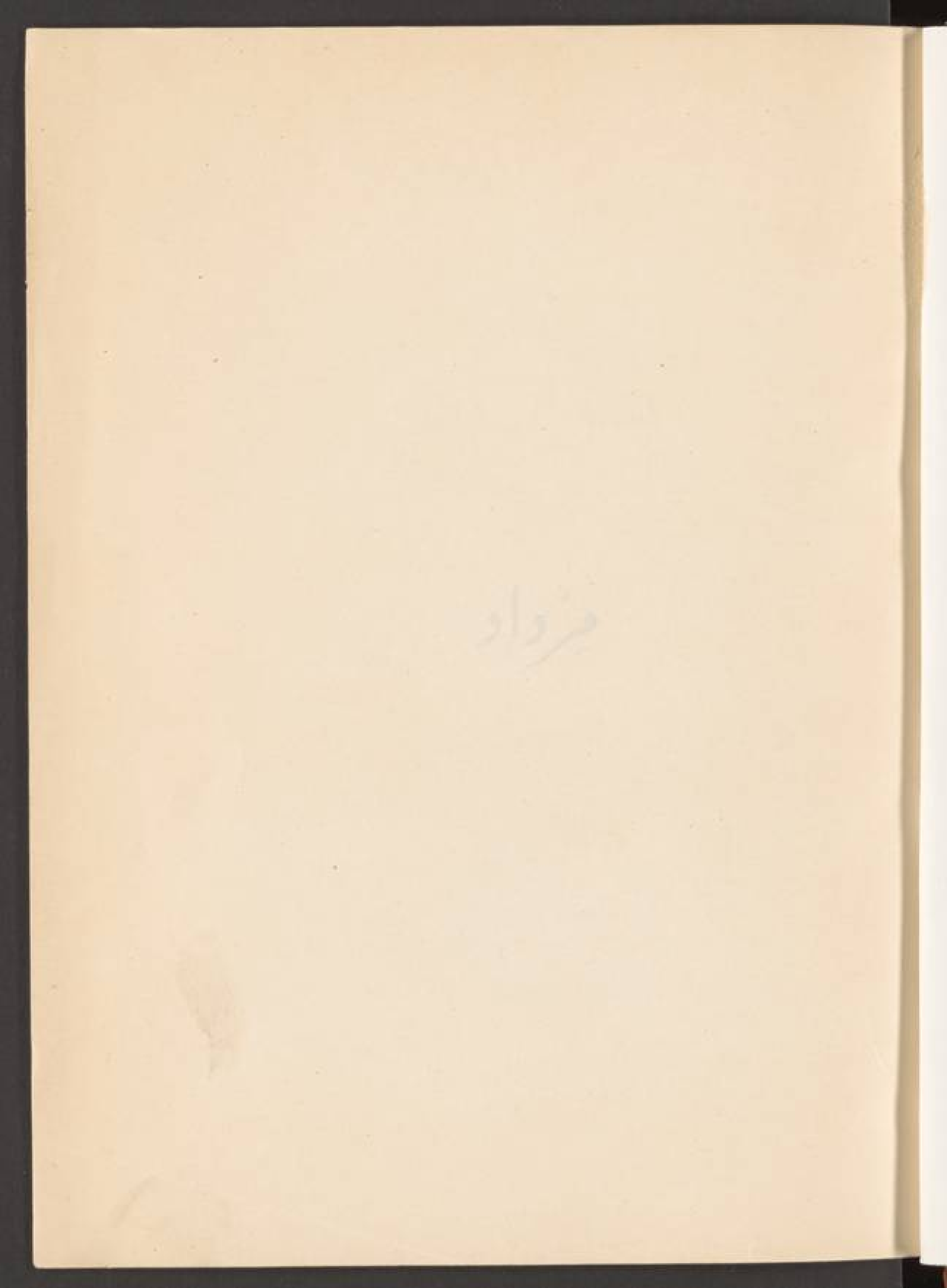


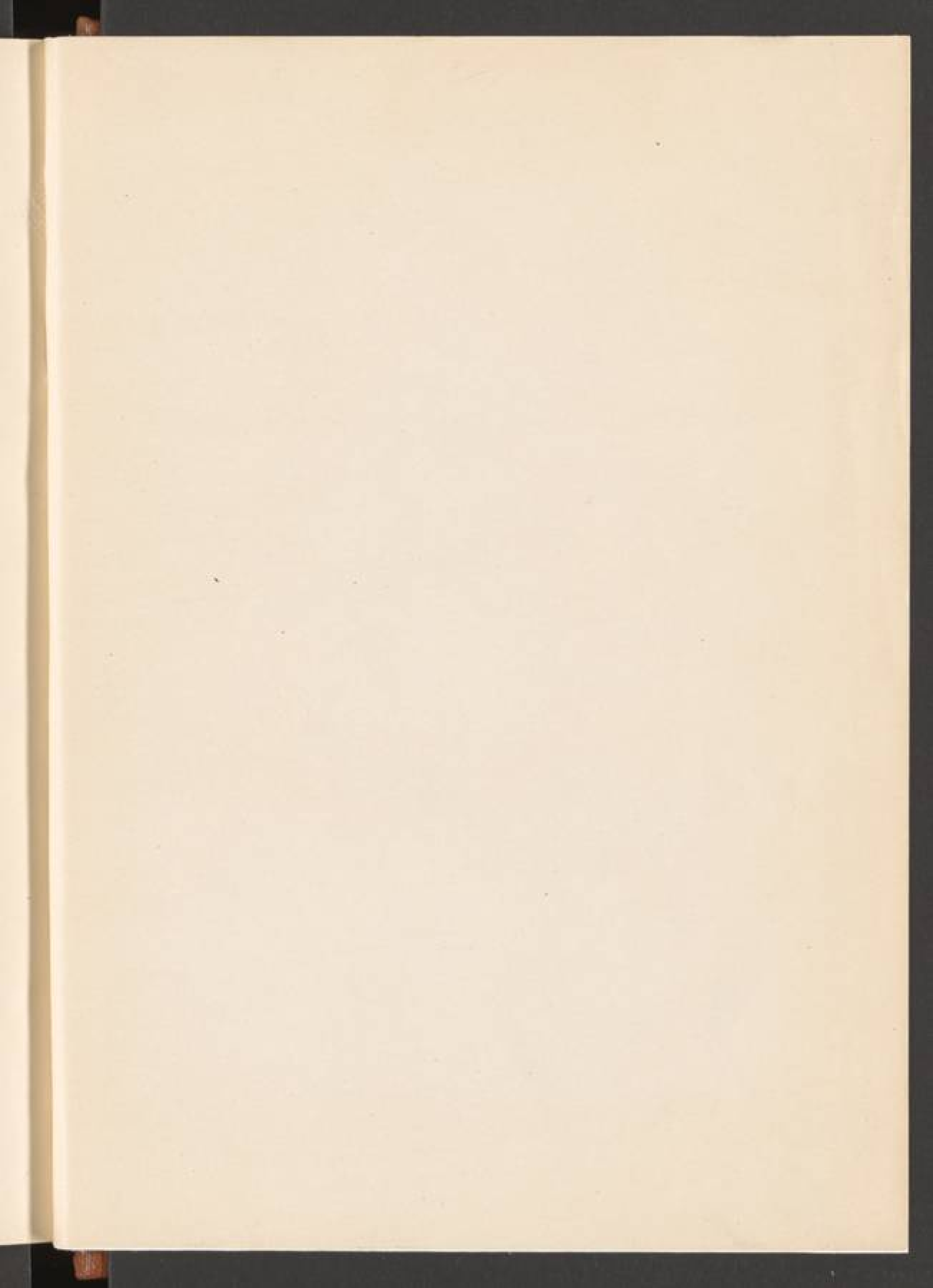




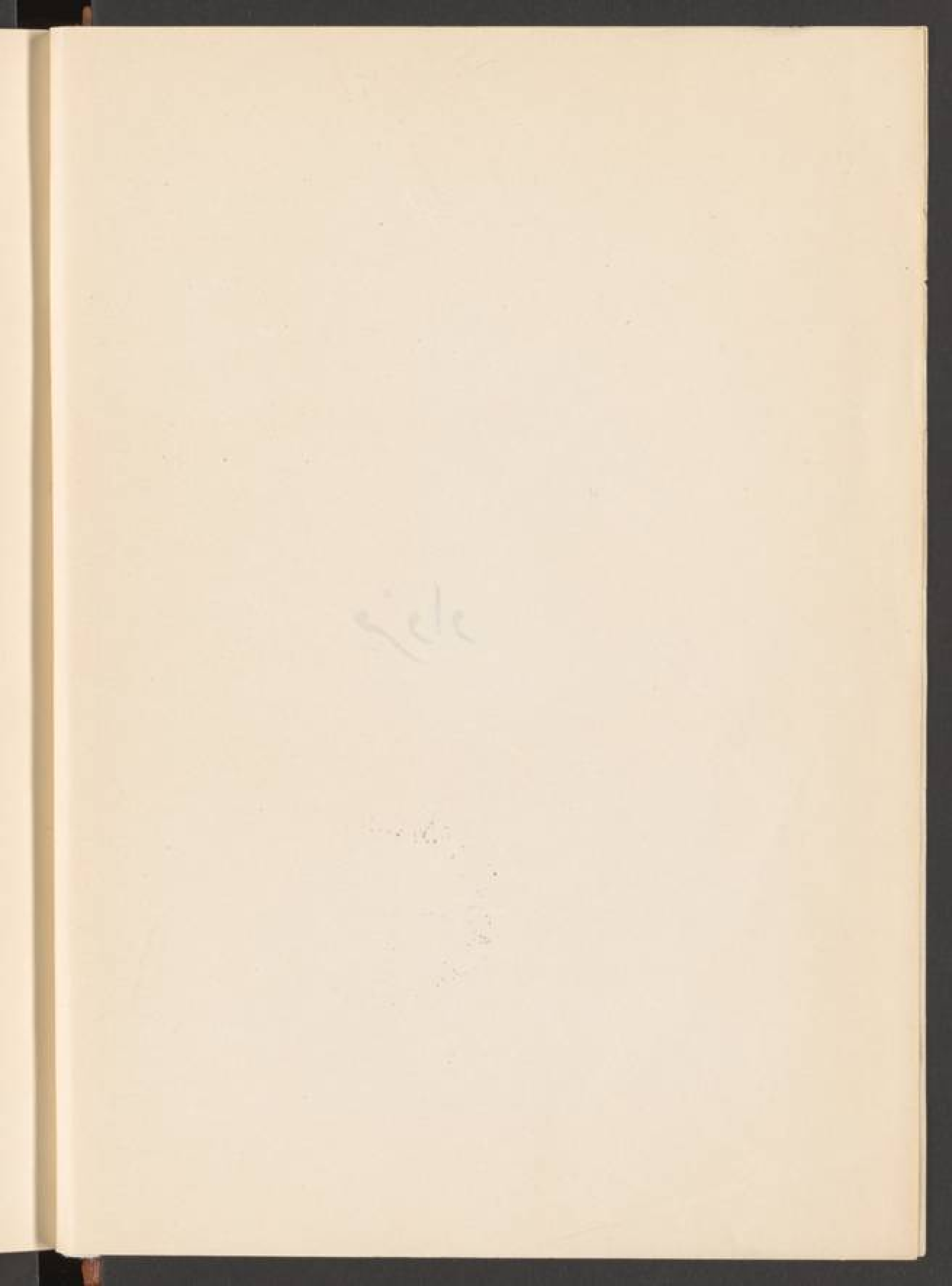



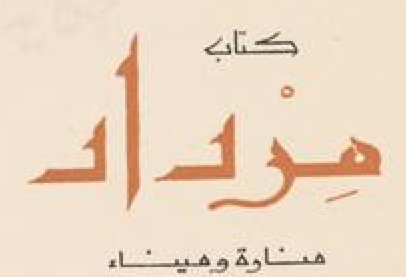






# مِرْداد






منارة وميناء

وضعه بالانكليزية

ونقله الى العربية

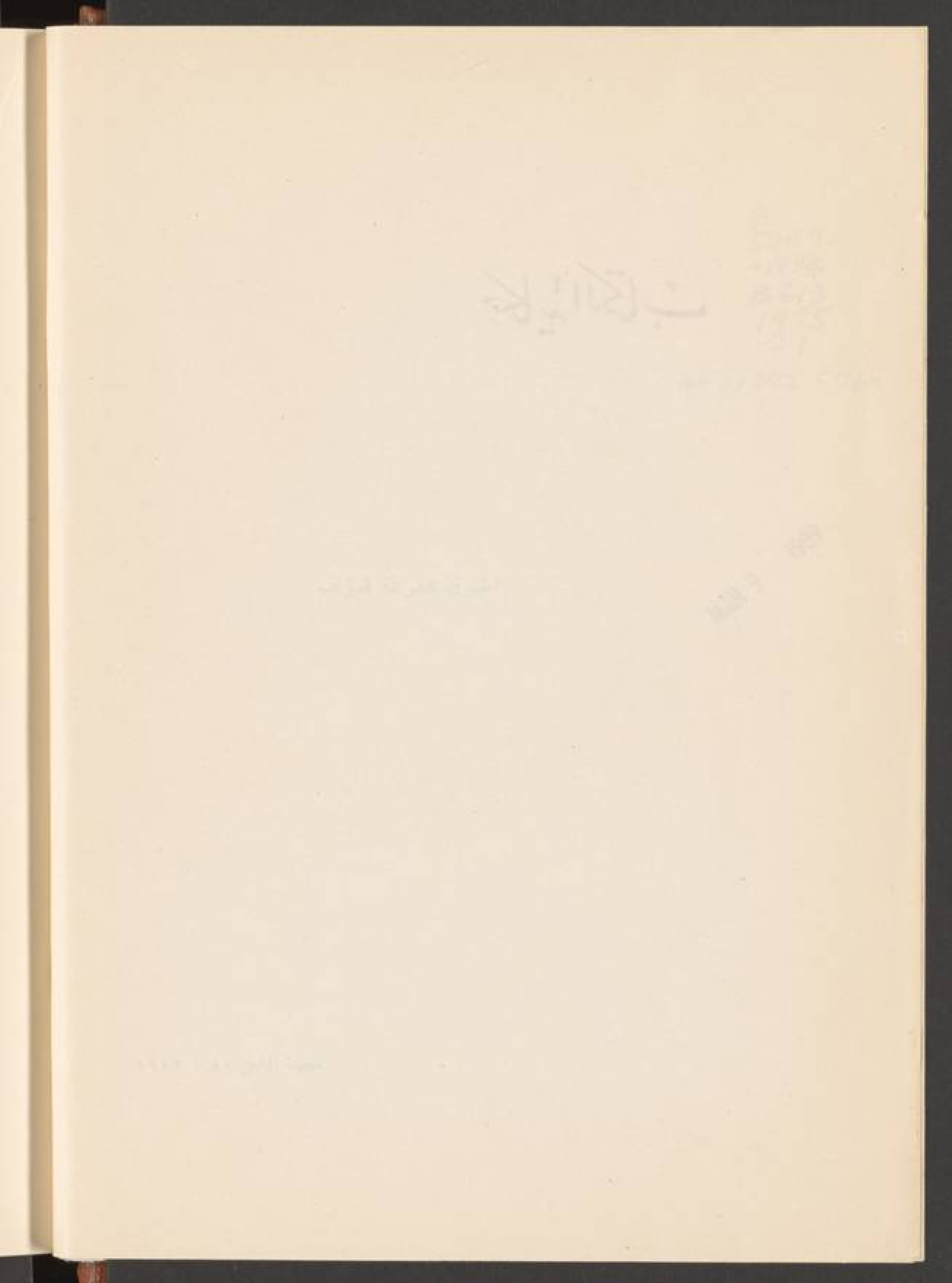
ميخائيل نعيمه



مكتبة صادر
بيروت

مطبعة المناهل ٨٧ - ١٩٥٢

# حكاية الكتاب



# الراهب المسحور

في جبال الآس واللبّان ، على القمّة الشاهقة المعروفة بـ« قمّة المذبح »، ما تزال بقايا هيكل مهجور ، متهدّم ، يدعى « الفُلْك » . اما تاريخه فقد غاب في لجج سحيقة من القِدم تنتهي ، في عرف التقاليد ، الى الطوفان .

كثيرة هي الاساطير التي حاكتها الايام حول الفلك . لكنما الاسطورة الاكثر رواجاً هي التي سمعتها مراراً من افواه القاطنين في سفح قمة المذبح حيث اتيح لي ذات سنة ان أمضي صيفاً بكامله . وها أنا ارويها كما سمعتها :

من بعد الطوفان العظيم بسنين عديدة انتهى التجوال بنوح وذرّيته الى جبال الآس واللبان حيث المياه غزيرة وعذبة ، والتربة نشيطة وخصبة ، والمناخ معتدل وطيب . فقرّ رأيهم على الاقامة هناك .

وعندما شعر نوح بدنوّ اجله دعا اليه ابنه ساماً . وكان سام رجل احلام ورؤى كوالده . وخاطب نوح ساماً هكذا :

« ان ما حصده والدك من السنين حتى الآن كان من الوفرة على جانب عظيم يا بنيّ . وها هي القبضة الاخيرة من سنابله في انتظار المنجل . اما انت واخوالك وبنوكم وبنو بنيكم فستجدّدون حياة الارض الثكلى ، وسيكون نسلكم كعدد رمل البحر حسبا وعدني الله .

«الا ّ انّ خوفاً يساور ما تبقّى في عيني من نور ويكاد يطفئه قبل اوانه. وذلك ان الناس على مرّ العصور سينسون الطوفان وجميع الشرور والمخازي التي جلبته على الارض. مثلما سينسون الفلك والايمان الذي حملها بسلام مائةً وخمسين يوماً ومكّنها من الغلبة على اللجّة الصاخبة. كذلك لن يذكر الناس الحياة الجديدة التي انبثقت من ذلك الإيمان فكانوا بعض اثمارها.

«لذلك آمرك يا بنيّ ان تبني مذبحاً على اعلى قمة من هذه الجبال. وتلك القمّة تدعى من بعد ذلك «قمّة المذبح». ثم ان تبني حول المذبح هيكلاً يشبه الفلك في كل تفاصيله وانما يكون اصغر منها حجماً بكثير. وان يُعرف الهيكل باسم «الفلك».

«على ذلك المذبح اريد ان اقدّم الى الربّ ذبيحة شكراني الأخيرة. والنار التي سأوقدها هناك اريد ان تبقى حيّة الى الابد.

«اما الهيكل فعليك ان تجعل منه ملجأ لجماعة من رجال مختارين لا يزيد عددهم ابداً على التسعة ولا ينقص عنها. وهؤلاء سيُعرفون باسم «رفاق الفلك». وعندما يتوفى الله واحداً منهم يرسل من قِبَله آخر ليحل محله. وعلى الرفاق الاّ يخرجوا من الملجإ بل ان يلازموه كل ايامهم ممارسين من التقشف حياةً كالتي مارسناها في الفلك، ومحافظين على نار الايمان من الانطفاء، ومنعكفين على الصلاة للعليّ من اجل هدايتهم وهداية اخوانهم الناس. وعليهم الاّ يهتمّوا بحاجاتهم الجسدية، فهذه ستبذل لهم من عطف المؤمنين واحسانهم.»

وكان سام يصغي الى كل حرف من كلمات ابيه ويقتبلها بلهفة الجائع. الا انه قطع عليه كلامه ليعرف منه القصد من تحديد عدد رفاق الفلك بالتسعة —

لا اكثر ولا اقل . فأجابه الشيخ المثقل بالسنين :

«ذلك يا بنيّ هو عدد الذين ركبوا الفلك .»

لكنّ ساماً كان يعرف ان الذين ركبوا الفلك ما زادوا يوماً عن الثمانية ، وهؤلاء الثمانية هم ابوه وامه واخواه وزوجاهما وهو وزوجه . لذلك وقع في حيرة كبيرة من كلام ابيه . وادرك نوح حيرة ابنه سام فقال له مفسراً ما ابهم عليه :

«ها انا يا ابني ابوح لك بسر عظيم . ان الراكب التاسع دخل الفلك خلسة عنكم وعني . فما درى بوجوده احد غيري ، ولا كان يبصره ويسمعه احد غيري . فكان رفيقي الدائم في الليل والنهار ، وبيده كانت ادارة دفة الفلك . لا تسألني عنه زيادة بل احذر الاّ تفسح له مكاناً في الملجإ الذي اوصيك به . فقد قال لي انه سيعود لينقذ العالم من طوفان النار . هذه هي وصيتي اليك يا بنيّ ، فاعمل بها .»

وعمل سام بكل ما أمره أبوه .

وعندما انضم نوح الى آبائه دفنه بنوه تحت المذبح في «الفلك» التي بقيت لأجيال كثيرة من بعده محافظة بالفعل وبالروح على وصية قاهر الطوفان .

مرّت قرون عدة والفلك آهلة برفاقها التسعة الذين - وان تغيرت منهم الوجوه والأسماء - ما برحوا أمينين للتقاليد والطقوس المرسومة لهم منذ البدء . الاّ انهم على كرّ السنين اخذوا يتقبّلون من المؤمنين عطايا فوق حاجاتهم الجسدية بكثير . فكان من ذلك انّ مقتنيات الفلك من عقارات وذهب وفضة ومجوهرات اخذت تزداد سنة عن سنة .

ودامت الحال كذلك لبضعة اجيال خلت اذ حدث ان توفّي احد التسعة .

وحدث على اثر وفاته ان جاء الفلكَ رجلٌ غريب وطلب ان يُقبل كواحد من الجماعة. ووفقاً لتقاليد الفلك المعمول بها منذ تأسيسها كان لزاماً على الرئيس، وكان يُلقب عندهم بالمتقدم، ان يقبل ذلك الغريب لانه اول طالب جاءَه من بعد وفاة رفيق من الرفاق. لكن المتقدم في ذلك الوقت كان رجلاً مستبدَّ الرأي، علماني الميول، قاسي القلب. فما راقه منظر الغريب الذي كان عرياناً، وهزيلاً من شدّة الجوع، ومثخناً بالجراح. لذلك قال له انه ليس اهلاً للانضمام الى الجماعة.

اما الغريب فألحَّ في طلبه، والحاحه ما كان ليزيد المتقدم الاّ كرهاً له وغضباً عليه حتى انه أمره بالانصراف من ارض الدير في الحال.

غير ان الغريب كان ملحاحاً وقوي الحجة. فما انفكَّ عن أربه. وفي النهاية تمكن من ان يحمل المتقدم على قبوله خادماً في الفلك.

من بعد ذلك بقي المتقدم زماناً طويلاً يترقب من العناية ان تبعث اليه بمن يحل محل الرفيق المتوفّى. لكن احداً لم يأتِ الى الفلك بقصد الانضمام الى جماعتها. وهكذا للمرة الاولى في تاريخها كانت الفلك تؤوي ثمانية رفاق وخادماً.

مرت على ذلك الحادث سنوات سبع تعاظمت في خلالها ثروة الفلك الى حد انَّ احصاءها لم يبقَ في الامكان. فقد اصبحت تملك كل القرى من حواليها على مسافات شاسعة. فانتفخ صدر المتقدم غبطةً بذلك ولانَ للخادم الغريب بل كاد يحبه لاعتقاده انه كان طالع سعد عليه وعلى الفلك.

لكن السنة السابعة ما كادت تنتهي وتنبلج الثامنة حتى بدأت الامور

تنقلب بسرعة خاطفة . فالجماعة التي كانت الى ذلك الوقت وادعة آمنة أخذت تتخمر وتفور . وما خفي عن المتقدم ان سبب ذلك كله ما كان الاّ الخادم . فأقر طرده في الحال. لكنه ، ويا للأسف ، أدرك ان الوقت قد فات . فالرفاق بقيادة الخادم ما كانوا ليصغوا اليه او ليتقيدوا بقاعدة او قانون او تقليد . بل انهم في سنتين فرّقوا كل مقتنيات الفلك من منقول وغير منقول واهبين الاملاك الشاسعة للشركاء الذين كانوا يعملون فيها . وفي فجر السنة الثالثة هجروا الفلك . والافظع من ذلك كله ان الخادم الغريب لعن المتقدم فسَحَره بلعنته وربَطَه الى ارض الدير وجعله ابكم حتى هذا اليوم .

تلك هي اسطورة الفلك كما سمعتها في جبال الآس واللبان ، في ظل قمّة المذبح .

وكثيرٌ هم شاهدو العيان الذين اكدوا لي انهم في شتى الظروف — احياناً في الليل واحياناً في النهار — ابصروا ذلك الراهب متجولاً في ساحات الدير المهجور . لكن احداً منهم ما تمكن يوماً من ان يبتز كلمة واحدة من شفتيه . وفوق ذلك ، فالراهب كان يختفي بسرعة كلما شعر بوجود انسان بقربه . وليس مَن يعرف كيف كان يختفي وأين .

وها انا اعترف ان هذه الرواية سلبتني راحتي . فما كنت اتخيّل ذلك الراهب هائماً على وجهه سنوات كثيرة في باحات هيكل قديم مهجور ، وعلى رأس قمّة شاهقة قفراء كقمة المذبح ، الاّ احسست نيراناً في دمي ، ومهاميز في لحمي وعظمي ، وسياطاً في افكاري ، واشباحاً في عينيّ . وكلها يدفع بي الى القمة .

واخيراً قلت في نفسي : سأصعد الجبل .

# منحدر الصوان

ترتفع قمّة المذبح آلاف القامات عن سطح البحر المنبسط عند قدميها الى الغرب . وجبهتها الواسعة المرصوفة بالصخور المخددة ، المسننة ، تبدو للناظر من بعيد منيعةً وجبارة ورهيبة. لكن الذين خبروها عن كثب كانوا يشيرون الى شعبين فيها – احدهما الى الجنوب والآخر الى الشمال ، وكلاهما ضيّق يتلوّى بين وهـدات خيّم الموت في اعماقها – ويؤكدون لي ان ليس في سلوكهما الى القمّة خطر يُذكر . اما انا فصممت الاّ اسلك ذاك ولا هـذا . فقد كنت ابصر ما بين الاثنين منحدراً ضيّقاً ومستقيماً كأنه مخاضة نهر جفّت مياهه. وهذا المنحدر يبتدىء عند رأس القمّة وينتهي قريباً من قاعدتها. فراقني شكله وموقعه وبـدا لي كأنه الطريق الأمثل الى القمة . وكنت أشعر فوق ذلك بجواذب لا افهمها تجذبني اليه . لذلك عوّلت ان اجعله طريقي الى القمة .

ما كدت ابوح بعزمي هذا لأحد الجبليّين حتى حملق بي بعينين ملتهبتين ، وصاح ضارباً كفّاً بكفّ :

« منحدر الصوان ؟! ويحك ! انه لمن الحمق الذي ما بعده حمق ان تهدر حياتك هدراً. كثير هم الذين حاولوا ذلك من قبلك. لكنهم ما عاد منهم ولا واحد ليخبر بما جرى له . منحدر الصوان ؟! اياك . اياك ! »

قال ذلك واخذ يتوسل اليّ ان يكون دليلي الى القمة. لكنني رفضت معونته بلطف. وما اعرف لماذا اثّر بي ذعره تأثيراً معكوساً اذ زادني صموداً في عزمي بدلاً من ان يردّني عنه.

وذات صباح، وقد شرع الشيب يتفشى في الظلام، نفضت عن اهدابي احلام الليل، واخذت عصاي وسبعة ارغفة من الخبز وانطلقت متجهاً نحو منحدر الصوان. وكأن انفاس الليل المحتضر، وانباض النهار المولود، والرغبة النهّاشة في ان اواجه سرّ الراهب المسحور، والرغبة الأشدّ منها في ان اخلع عن نفسي نير نفسي ولو برهة، مهما تكن قصيرة، كانت لرجليّ اجنحة قوية ولدمي نشوة سحرية.

بدأتُ رحلتي وفي قلبي نشيد الأمل وفي نفسي عزيمة الايمان. الاّ انني ما كدت ابلغ اسفل المنحدر حتى غصصت بنشيدي. فمن بعد ان قطعت مسافةً محمولاً على بساط من الجذل وجدتني مسمّراً بالأرض امام احجية ظننت حلّها مستحيلا. فالمنحدر الذي كان يبدو لي عن بعيد كأنه طريق معبّد ومستقيم تبين لي الآن عقبةً كأداء لا تُقهر.

وقفت امام تلك العقبة حائراً واخذت اقلّب طرفي في كل جوانبها فما كان يدرك اعاليها. بل كان، أنّى اتجه، لا يقع على اقل اثر للحياة، ولا يبصر غير حصى من الصوان متفاوتة الحجم والشكل، بعضها كالنصال المسنونة وبعضها كالابر المحددة؛ فكأن فيلقاً من الجنّ قد فرش بها تلك الناحية من الجبل ثم لفّها بأكفان قاتمة من الصمت الذي يثير الرعبة والرهبة. اما القمة فما كنت لأراها من اسفل المنحدر.

فتشت عن عزيمتي فاذا بها ما تزال معي . وذكرت الرجل الذي نهاني عن سلوك المنحدر فاذا بعينيه الملتهبتين لا تستطيعان ان تثنياني عن قصدي . وهكذا بدأت اصعد . لكنني ادركت بعد قليل ان رجليّ وحدهما لن تقطعا بي شوطاً بعيداً. فالصوان المنفتت كان ينهار من تحتهما وبانهياره يحدث اصواتاً جهنميّة كأنها خارجة من مليون حنجرة في حالة الحشرجة . فكان لا بد لي من ان استعين بيديّ وركبتيّ كذلك اذا ما شئت ان اتقدم تقدماً محسوساً . وكم تمنيت آنئذٍ لو كانت لي خفّة العنزة !

كنت ازحف صعوداً في خطوط متكسرة من غير ان اسمح لنفسي حتى بالقليل من الراحة . اذ بدأت اخشى ان يدركني الليل في ذلك البلقع الرهيب قبل ان ادرك القمّة . اما ان اعود القهقرى فما خالج ضميري قط .

وكان النهار على وشك التلاشي عندما شعرت بغتةً بقرصة من الجوع . فعجبت لي كيف انني قطعت ما قطعته من النهار ومن الجبل من غير ان يخطر الاكل او الشرب لي ببال وما كان اثمن الارغفة السبعة عندي في تلك الدقيقة — تلك الارغفة التي كنت قد تمنطقت بها ملفوفة في منديل !

جلست مكاني وفككت المنديل عن وسطي واخذت رغيفاً من السبعة . واذ هممت بتناول الكسرة الاولى منه طرق اذنيّ صوت جرسٍ وصوتٌ آخر فيه شيء من النحيب كأنه صوت الناي . ولشدّ ما ادهشني ذلك وروّعني في بلقع كان صمته الرهيب يطأ اذني بسنابك من صوان .

وما هي الا لحظة حتى بدا لعيني على مرتفع قريب كرّازٌ اسود كبير من المعزى . وما كدت استعيد نفسي المخطوف دهشةً حتى وجدتني محوطاً

بالمعزى من كل جانب . وسمعت الصوان ينهار من تحت اظلافها كما كان ينهار من تحت قدميّ ، ولكن من غير ان يحدث اصواتاً مزعجة كالتي كان يحدثها زحفي . وفي أقلّ من لحظة هجمت المعزى بقيادة كرّازهـا عليّ كأنها جاءت تلبية لدعوة مني فكنت واياها على ميعاد . وكادت تختطف الخبز من يدي لولا صوت راعيها الذي ما عرفتُ كيف ومن اين جاء فانتصب بجانبي وليس عليه من كساء غير مأزرٍ من الجلد يغطي حقويه ، ولا سلاح في يده غير الناي – تأملته فاذا به شاب مديد القامة يطفح وجهه عافية وبشراً وقوة . ومن قبل ان تفارقني الدهشة لأتمكن من فتح فمي بكلمة سمعته يخاطبني بصوت ناعم وابتسامة خلاّبة :

« لا تعجب لفعل كرّازي فهو تيس مدلّل . وانا اطعمه الخبز كلما تيسر الخبز لي. لكننا قد استقبلنا وودّعنا أهِلّةً عديدة في الزمان الاخير من غير ان يمرّ بنا مخلوق واحد من اكلة الخبز . »

قال هذا ثم التفت الى تيسه الكبير وخاطبه هكذا :

« ارأيت يا كرّازي الأمين كيف يجود الحظ على المعتصمين به ؟ اياك ان تيأس من جود الحظ . »

وعندها مدّ يده الى الخبز فأخذ منه رغيفاً . واذ ظننته جائعاً قلت له بلطف متناهٍ واخلاص اكيد :

« سنقتسم هذا الزاد الزهيد فيما بيننا . فالخبز الذي معي يكفيني ويكفيك . وسنجعل للكراز حصة منه كذلك . »

وما كدت انهي كلامي حتى اخذ الراعي الرغيف الاول ، ومن بعد ان

قضم منه قضمة طرح به الى المعزى . وهكذا فعل بالثاني والثالث حتى السابع والأخير . فصُعِقت من شدة انذهالي واخذ الغضب يتفجر في صدري . الاّ انني ، وقد ادركت ان لا مقدرة لي على المقاومة ، لجمت غضبي ونظرت الى الراعي نظراً كله دهشة . ثم كلّمته بلهجة نصفها توسل حارّ ونصفها لوم خفيف :

« الآن ، وقد اطعمتَ معزك زاد رجل اتلفه الجوع والتعب ، أفلا تكرّمت عليه بقليل من لَبَنِها ؟ » فأجابني من غير ان يلتفت اليّ :

« ان في لبن معزي لسمّاً زعافاً للمجانين. وانا لست ارضى لماعزة واحدة من معزي ان ترتكب جريمة القتل ، حتى وان لم يكن القتيل غير مجنون مثلك . »

« وفيمَ تراني مجنوناً ؟ »

« في انك تزودتَ سبعة ارغفة لرحلة تستغرق سبع حيوات . »

« اكان عليّ اذن أن اتزود سبعة آلاف ؟ »

« كلا . ولا رغيفاً واحداً . »

« اتنصح لي ان أقدم على رحلة طويلة وخطرة كهذه الرحلة من غير زاد على الاطلاق ؟ »

« ان الطريق الذي لا يزوّد سالكه ليس بالطريق الذي يحسن سلوكه . »

« أتريدني ان اقضم الصوان اذا عضّني الجوع ، وان ارتوي بعرقي اذا اشتد بي العطش ؟ »

« ان في لحمك وحده ما يكفيك طعاماً . وفي دمك وحده ما يكفيك شراباً . وعلاوة على ذلك فالطريق امامك . »

« انك لماجن ايها الراعي . او انك تسخر بي فوق ما أستحق . اما انا

فلن اقابل سخريتك بمثلها . ففي شرعي ان كل من تناول من خبزي ، وان تركني في خطر الموت من الجوع ، اصبح اخاً لي . ان النهار يتدحرج سراعاً الى اسفل الجبل ، وعليّ ان اتابع سيري الى القمّة . أفلا تلطفت واخبرتني اذا كنتُ ما ازال بعيداً عنها ؟ »

« انك لقريب جداً من الاندثار . »

قال ذلك ورفع الناي الى شفتيه ونفخ فيه ثم ادار لي ظهره ومشى كأنه يمشي على طنفسة من حرير . وتبعه الكراز ثم القطيع كله . وبقيت وحدي مشلول الفكر والعصب ارقب تلك الأخيلة الغريبة المتباعدة عني واسمع كركرة الصوان ونحيب الناي المتقطع الذي ظلّ يطرق اذنيّ كأنه عويل متصاعد من شقوق الأرض — من عوالم سفلية .

بعد قليل ، وقد نسيت جوعي ، عدت الى نفسي ارمّم ما انهار من عزيمتي وإقدامي . وكان لا بدّ لي ، اذا ما دهمني الليل في ذلك القفر من الصوان المترجرج ، من ان افتش عن مكان امين اقضي فيه ليلتي من غير ان اكون في خطر التدهور الى اسفل . فعدت الى الزحف . وما صدّقتُ عينيّ عندما حانت مني التفاتة الى تحت فوجدتني قد توقلت القسم الاكبر من الجبل . اذ انني ما عدت ابصر اسفل المنحدر . اما القمّة فبدت كأنها على بضعة اذرع مني .

وكان من حسن طالعي انني ، عندما هبط الليل ، اهتديت الى كومة من الصخور في وسطها منفرج يشبه الكهف . وكانت هذه الصخور معلقة على شفير هاوية سحيقة القعر تتلاطم في جوفها أمواج من الدياجير الهائلة . وكان مدخل الكهف من جهة الهاوية . فما ثنتني المخاطر المحدقة به عن ان اتخذه ملجاي تلك الليلة .

هممت بخلع نعليّ فاذا بهما بقايا هزيلة وممزقة من النعلين اللذين خرجت بهما في الصباح . واذا بهذه البقايا قد اصطبغت بدمي والتصقت بلحمي الى حد انني ما تمكنت من سلخها عن قدميّ الا بسلخ نتف من لحمي . اما يداي فكانتا مخددتين بأخاديد حمراء كثيرة ، وأطراف اظافري كأنها اللحاء المتدلي من قشرة شجرة يابسة . واما ثيابي فكانت قد أهدت القسم الأكبر منها الى الصوان . وكان رأسي قد تخدّر بالنعاس فلم يبقَ فيه من فكرة إلاّ النوم .

لست اذكر مدى غفوتي . أدقيقة دامت أم ساعة أم دهراً . وكل ما اذكره انني افقت منها شاعراً بقوّة تجذبني من كمّي . فاستويت جالساً وبي من الوسن والذعر ما لا يوصف ، لا سيما عندما ابصرت فتاةً واقفة امامي وفي يدها مصباحُ ضئيل النور ، ولا ثياب عليها البتّة . اما وجهها فكان مشرقاً بجمال فائق الحدّ . وبالقرب منها قد انحنت عجوز حوت من الشناعة على قدر ما حوت الفتاة من الحسن . وهذه العجوز هي التي كانت تشدّني من كمّي . فما وقع نظري على ذلك المشهد حتى اعترتني رجفة باردة من رأسي الى اخمصيّ .

« أرأيتِ يا بنيتي كيف يجود الحظ على المعتصمين به ؟ اياكِ ان تيأسي من جود الحظ . »

بهذه الكلمات كانت العجوز تخاطب الفتاة وهي تعمل على نزع سترتي عن كتفيّ . فانعقد لساني من الذعر والاندهال . واحببت ان اقول لها كلمة فما تمكنت ، وأن أعاندها فما وجدت قوة للمعاندة . وعبثاً استنجدت ارادتي التي انهزمت مني بسرعة البرق وتركتني كالمشلول بين يدي تلك العجوز. وكنت ، كلما تأملتها ، حسبتني لو نفختُ عليها نفخةً لقذفت بها الى الهاوية . لكنني

أحسست انه لم يبقَ في امكاني حتى ان انفخ .

ما انتهت العجوز من نزع سترتي حتى أخذت تنزع كل ما عليّ ، ثوباً ثوباً ، الى ان تركتني ولا شيء يسترني الا جلدي. وكانت كلما نزعت عني قطعة من اللباس ناولتْها للفتاة فلبستْها . اما انا فكنت اشهد كل ذلك من غير ان افهم منه شيئاً. وكنت كلما وقع بصري على خيالي المنعكس مع خيالَي العجوز والفتاة على حائط الكهف احسست فشعريرة اشمئزاز وذعر تتمشى في مفاصلي وعروقي . واذْ أهمّ ان أفصح عما بي يخونني النطق الذي ما احتجت اليه يوماً مثل حاجتي اليه في تلك الحالة المشؤومة . وبعد محاولات عدّة انحلّ لساني من عقاله فقلت :

« اذا كنتِ ايتها العجوز قد فقدت كل الحياء فانا ما فقدته بعد . واني لأخجل من عريي حتى امام عجوز لا خجل فيها مثلك . أمّا خجلي من هذه الفتاة الطاهرة فلا حد له . »

« أفلا لبستَ طهارتها مثلما لبِستْ خزيك ؟ »

« واية حاجة لفتاة بأسمال رجل نهكه العياء فضلّ سبيله في مثل هذا المكان وفي ليل كهذا الليل ؟ »

« قد يكون ذلك رغبةً منها في تخفيف عيائه بتخفيف عبئه . وقد يكون طلباً للدفء . فهي ، واولداه ، تصطك اسنانها من البرد . »

« اما انا فعندما يقرع البرد اسناني بعضها ببعض فماذا عساني اطرده ؟ أليس في قلبكِ من شفقة ؟ الا ترين انني لا املك من هذه الدنيا غير ثيابي ؟ »

« قَلَّ ما أملكه قلّ ما يملكني

زاد ما املكه زاد ما يملكني

قلّ ما يملكني زاد قدري

زاد ما يملكني قلّ قدري

رُبَّ يسرٍ كان عسراً رُبَّ عسرٍ كان يسرا

هيّا بنا يا بنيتي . »

واذ اخذت العجوزُ الفتاة بيدها وهمّت بالذهاب تألّبَتْ في رأسي اسئلة كثيرة كنت اود طرحها عليها . لكنّ واحداً منها لا اكثر وثب الى لساني فقلت :

« الا تلطفتِ ايتها العجوز وقلتِ لي قبل ان تنصرفي من ههنا اذا كنتُ ما ازال بعيداً عن القمّة ؟» فاجابتني :

« انك لعلى شفير الهاوية السوداء . »

وخرجت المرأتان من الكهف وبقي ظلهما فيه الى ان ابتلعته الظلمة وابتلعتهما . فما دريت من اين قُذِفتُ بموجة من البَرْد المظلم . وتلت تلك الموجة موجات حتى تراءى لي ان جدران الكهف نفسها كانت تتنفس صقيعاً . فأخذت أسناني تصطك ، ومثلها أفكاري المبعثرة المشوشة . وعبثاً حاولت ان افهم شيئاً من كل ما مرّ بي في ذلك اليوم حتى تلك الساعة : المعزى التي ترعى الصوان . وراعيها المتهكم . وهذه العجوز والفتاة التي معها . وانا العريان ، المرضوض ، المخبول ، المقرح ، المنهوك ، التلف من الجوع والبرد ، في كهف كهذا الكهف ، وعلى شفير هاوية كهذه الهاوية — اليس في ذلك من معنى ؟ وما

هو ؟ أقريب أنا من القمّة ؟ ألعلني مدركها ؟ ألهذا الليل آخر ؟

ما كدت اجمع افكاري حتى سمعت هرير كلب ولمحت بصيص نور . وذلك قريباً من الكهف ، بل قريباً جداً – بل في الكهف !

« أرأيتِ يا حبيبتي كيف يجود الحظ على المعتصمين به ؟ اياكِ ان تيأسي من جود الحظ . » – وكان الصوت صوت رجل بالغ في الشيخوخة ، تقوس ظهره ، واصطكت ركبتاه ، وتدلت لحيته الى صدره . والتي كان يخاطبها امرأة بلغت من الشيخوخة مثل ما بلغ ، فتقوس ظهرها ، واصطكت ركبتاها ، وكان فمها مغارة لا اثر للعظام فيها ، ورأسها جمجمة مستديرة عريانة الا من خصيلات من الشعر الأشعث الذي كان بالصوف اشبه منه بالشعر . واخذ العجوزان يدوران في الكهف على ضوء فانوسهما غير آبهين بي كأنني ما كنت الا خيالاً . وكان كلاهما يتلمظ كمن يتذوق فاكهة نادرة الطعم والشكل .

« حقاً انها لفخمة ولائقة بحبّنا هذه المقصورة النادرة التي اعدّها لنا الحظ لليلة عرسنا يا حبيبتي . وجميلة ومتينة هذه العصا تتوكأين عليها بدلاً من التي اضعتِها . واني لواثق من انك لن تعثري فيما بعد . »

قال العجوز ذلك بصوت متقطع كأنه يجاهد في الخروج من حنجرته . ثم تناول عصاي وناولها رفيقته . وهذه انحنت فوقها بلهفة الأمّ فوق ابنتها واخذت تتلمسها باصابعها الذاوية من رأسها حتى اسفلها . وكأنّ الشيخ شعر عندئذ بوجودي فتابع خطابه الى رفيقته ، ولكن من غير ان يلتفت اليّ :

« هذا للغريب سيبرح مقصورتنا في الحال ، وسنحلم احلام ليلتنا في عزلة عن كل مخلوق . »

صُعِقتُ لدن سمعت كلمات الشيخ اذ شعرت انها كانت لي بمثابة أمر باخلاء الكهف ، وان لا قدرة لي على ردّه ؛ لا سيا من بعد ان رأيت الكلب يقترب مني مكشراً عن انيابه كأنه ينفّذ امر صاحبه . فهزّتني قشعريرة مُرّة من هول ذلك المشهد . واذا بي اقف وامشي متجهاً نحو مدخل الكهف كأنني الآلة يحركها محرك ليس منها ، ولا لها اقلّ سلطان عليه . وكنت في اثناء ذلك كله احاول بكل قدرتي ان اتكلم — ان ادافع عن نفسي — ان ابيّن حقي . وبعد جهد عظيم تمكنت من ان اقول :

«لقد اخذتما عصاي . بورك لكما فيها . أتقسوان كذلك الى حد ان تطرداني من هذا الكهف الذي لا ملجأ لي سواه في هذا الليل ؟»

لكنهما ما تنازلا ان يجيباني بكلمة بل اخذا يرنّمان هكذا :

« من سار من غير عصاً
وُقي العثار
من عاف داراً عاش في
كل الديار
واهاً لنا اسرى العصيّ
واهاً لنا اسرى البيوت
واهاً لنا . واهاً لنا !»

وكانا ، وهما يرنمان ، يمهدان مضجعهما باصابعهما الطويلة المزيلة من غير ان يتعطفا عليّ ولو بنظرة . فآلمني ذلك حتى صحت من يأسي :

«الا نظرتما الى يديّ ؟ الا نظرتما الى رجليّ ؟ اني لسائح منكود تاه في

وعر هذا المنحدر . ولقد رسمت طريقي الى هنا بدمي . وها أنا في هذه الظلمة الدامسة لا استطيع ان ابصر فتراً واحداً من هذا الجبل الرهيب الذي تعرفانه، كما يظهر ، كل المعرفة . افلا تعرفان الشفقة ؟ افلا تخافان العقاب ؟ اعيراني في الاقل فانوسكما ما دمتما لا تسمحان لي بان اقاسمكما هذا الكهف حتى الصباح . »

فأجاباني بانشودة اخرى :

« الحبّ لا يُعَرّى
والنور لا يُعار
أحْبِبْ تَرَ ما لا يُرى
أنِرْ وسِرْ أنّى تشاء .
اين المسيرْ
يوم الزحيرْ
يوم لا للأرض انفاسٌ
ولا لليل انباضٌ
ولا للصبح نورْ ؟ »

كِدت أنشقُّ من الغيظ لاستخفاف العجوزين — أو العروسين — بي الى ذلك الحد . إلاّ انني كتمت غيظي ولجأت الى التوسل عالماً انه لن يجديني نفعاً . اذ كنت اشعر بقوة خفية تدفعني الى خارج الكهف .

« أيها العجوز الصالح . أيتها العجوز الصالحة . انني لن اعكر عليكما صفاء ليلتكما ، ولن أكون خنفساء في قارورة طيبكما . فانا كذلك قدتذوقت

الحبّ . لذلك سأترك لكما عصاي بطيبة خاطري . وسأخلي لكما هذا الكهف الذي اخترتماه مخدعكما ليلة العرس . واذ قد ضننتما عليّ بمصباحكما فاني سائلكما حاجة طفيفة للغاية ، وهي ان تتلطفا وتقوداني الى خارج الكهف وتوجهاني نحو القمّة . فقد فقدت وجهتي وتوازني كذلك . وما اعرف الى ايّ حدّ ارتفعت في الجبل ، وكم عليّ ان ارتفع بعد . »

فما اثّرت بهما توسلاتي على الاطلاق بل راحا يغنّيان كالسابق :

« كم علَونا فانخفضنا
وانخفضنا فعلونا ،
واغتنينا فافتقرنا
وافتقرنا فاغتنينا .
مالُهم دَينٌ لنا
مالُنا دَينٌ علينا
يا لطوبى من اذا –
حوسبَ لا يحسب دَينْنا »

عندئذ ضاق صدري وكادت تنشقُّ مرارتي اذ ايقنت ان لا نفع لي من الكلام مع العجوزين . الا انني كنت كالغريق يتعلق بقشة . فكان رجائي الأخير اليهما ان يشيرا عليّ في اي جهة يجب ان اخطو خطوتي الأولى من بعد خروجي من الكهف . اذ قد يكون الموت في تلك الخطوة . ولبثت في انتظار جوابهما على أحرّ من الجمر . لكنه ما عتم ان جاءني في شكل اغنية اخرى من اغانيهما الغريبة فما زادني إلاّ يأساً فوق يأس وارتباكاً فوق ارتباك :

« يا لحضن الهاوية ما اظلمه !
وشفير الهاوية ما انعمه !
الضبُّ والنعامة
البحر والغمامة
الشمس والذبالة
القرد والغزالة
الأرز والقتادُ
التبرُ والرمادُ
القزم والجبّارُ
والدرّ والفخّارُ
الطعم في البلعومِ
والشمّ في الخيشومِ
من كوّة الندم
لِهُوّة العدم
هنالك الضوضاءُ
وهنا السكوتْ
إن شئتَ مُتْ لتحيا ،
أو عِشْ لكي تموتْ »

وانطفأ المصباح فجأة ومعه انطفأ آخر أمل لي بالتفاهم مع ذينك المخلوقين الغريبين . فخرجت من الكهف زحفاً على يديّ ورجليّ ، وكان الكلب يزحف

خلفي بلجاجة كأنه يخشى ان اتلكأ عن الزحف لحظة واحدة . وعندما انتصبت على قدميّ خارج الكهف وجدتني في ظلمة حالكة الى حدّ اني شعرت بثقلها الاسود على أهدابي .

خطوت خطوة . ثم اخرى . وعند الثالثة شعرت كأن الجبل هرب بغتة من تحت قدميّ ، وشعرت انني اغرق في دُرْدُور من الظلام الذي كان يمتص انفاسي من صدري ويجذبني بعنف الى اسفل – الى تحت – الى تحت .

وكان آخر رسم مرّ أمام عيني وأنا في ذلك الدردور من دياميس الهوة السوداء رسم ذينك العروسين من الجن . وكانت آخر كلمات تمتمتُها والنَفَس يتجمّد في منخريّ كلماتهما :

« إن شئتَ مُتْ لِتحيا
او عش لكي تموت . »

●

# حارس الكتاب

«ألا انهض ايها الغريب المحظوظ . لقد ادركت غايتك .»

كنتُ، والعطش يضغط حلقي بكلاّبات من حديد، والشمس تشويني باشعتها المحرقة ، اتململ كمن في كابوس . وكما يسمع الحالم وقد اوشك ان يستفيق، سمعت ما يشبه الصوت البشري. فانفتحت عيناي نصف انفتاحة واذا بي ملقى على الارض ، واذا بشبح انساني اسود قد انحنى فوقي واخذ يبلّل شفتيّ بالماء ويغسل الدم المتجمد على جراحي الكثيرة .

كان الرجل بديناً ، خشن الملامح ، كثّ اللحية والحاجبين ، غائر العينين ، حاد النظر . وكنت ، مع ذلك ، احسّ رقةً ونشاطاً يتسربان اليّ من لمس يديه . اما عمره فكان من الصعب جداً تحديده ولو بالتقريب. واخيراً تمكنت بمعونته من ان استوي جالساً وان اسأله بصوت ما كدت اسمعه :

«اين انا ؟»

«على قمة المذبح»

«والكهف ؟»

«وراءك»

«والهوّة السوداء ؟»

«امامك»

ولشدّ ما دهشت حقاً عندما التفتّ واذا بالكهف من خلفي وبالهوة السوداء من امامي . واذا بي جالس على شفيرها . فسألت الرجل ان ينتقل ويساعدني على الانتقال الى الكهف . ففعل كما سألته بطيبة خاطر .

« ومَنْ اخرجني من الهوة ؟ »

« لا شك في ان الذي قادك الى القمّة هو نفسه الذي اخرجك من الهاوية . »

« ومن عساه ان يكون ؟ »

« هو نفسه الذي عقد لساني وربطني الى هذه القمّة مائة وخمسين عاماً . »

« أأنت اذن هو الراهب المسحور ؟ »

« انا هو . »

« لكنك تتكلم . اما هو فأبكم . »

« لقد فككتَ عقدة لساني . »

« انت لا تخشاني ولا تهرب مني . اما هو فيهرب من الناس . »

« من كل الناس الاّ منك . »

« ولكنك ما رأيت وجهي من قبل . فكيف تقول انك تهرب من كل الناس الاّ مني ؟ »

« لقد مر بي مائة وخمسون عاماً وانا اترقب مجيئك . مائة وخمسون حولاً افنيتها ، وعيناي الخاطئتان – في الحر والقر ، في الليل والنهار – ترصدان صوّان المنحدر لعلهما تقعان على رجل يتسلق الجبل الى هذه القمة فيدركها كما ادركتها انت : عرياناً ، ولا عصا ولا زاد . كثيرٌ هم الذين حاولوا الصعود

بطريق المنحدر . لكن واحداً منهم لم يبلغ القمة . وكثير هم الذين بلغوها بطريق غير طريق المنحدر ، ولكن واحداً منهم لم يصلها عرياناً ، ولا زاد ولا عصا معه .

« كنتُ كل نهار امس ارقب حركاتك من هنا . وعندما بلغتَ الكهف تركتك تمضي ليلتك فيه لعلك تستريح من عيائك . وعند بزوغ الفجر جئت اتفقدك فوجدتك مخطوف الانباض والانفاس . بيد انني ما شككت قط في انك ستعود الى الحياة . وها انت الآن حيّ اكثر مني . لقد متَّ لتحيا . اما انا فأحيا لأموت .

« الا تمجد اسمه . فقد تمَّ كل شيء حسبما قال ووعد . هكذا كان وهكذا يجب ان يكون . فلم يبقَ من ريبة عندي في انك الرجل المختار . »

« مَنْ ؟ ! »

« الرجل المغبوط الذي عليَّ ان اضع الكتاب الطاهر بين يديه ليعلنه للعالم . »

« واي كتاب هذا ؟ »

« كتابه . كتاب مرداد . »

« مرداد ؟ ومن هو مرداد ؟ »

« أمِنَ الممكن انك لم تسمع بعد بمرداد ؟ يا للغرابة ! فقد كنت موقناً كل اليقين بان اسمه من ذلك اليوم حتى اليوم قد ملأ الارض مثلما ملأ وما يزال يملأ الاديم الذي تحت رجليَّ ، والفضاء من حوالي ، والسماء من فوقي . مقدس هو هذا التراب ايها الغريب لان قدميه قد وطئتاه . ومقدس هذا الهواء

لأن رئتيه تنفستاه . ومقدس هذا الجلد لأن عينيه كانتا ترصدانه . »

وفي الحال انحنى الراهب الى الارض، وبخشوع مؤثر قبّل التراب ثلاثاً. وانقطع عن الكلام . فقلت بعد سكوت :

« انك لتلهبني شوقاً الى اكثر مما بحت لي به عن هـذا الرجل الذي تدعوه مرداد . »

« اعرني اذنك فاخبرك كل ما ليس محظوراً عليّ البوح به :

« اسمي شمادَم . وقد كنت المتقدم في الفلك عندما توفّى الله واحداً من الرفاق التسعة . وما كادت روحـه تفيض حتى قيل لي ان غريباً في الباب يطلب مقابلتي. فعرفت في الحال ان العناية قد ساقته ليحل محل الرفيق الراحل. وكان عليّ ان ابتهج لأن الله ما نسي الفلك بل ما زال يحرسها كما كان دأبه منذ ايام ابينا سام . »

هنا قطعت على الراهب كلامه لأسأله عما اذا كان ما سمعته من الناس صحيحاً . وهو ان بكر اولاد نوح هو الذي بنى « الفلك » حقاً . فجاءني جوابه سريعاً وحاسماً :

« اجل . انه لكذلك . » وتابع حديثه فقال :

« بلى . كان عليّ ان ابتهج . ولكنني ، لأسباب ابعد من ادراكي ، ما شعرت الا" والامتعاض يتمشى في صدري. ولا دريت كيف انني بدأت احارب ذلك الغريب حتى قبـل ان وقعت عليه عيني . فصمّمت ان ارفضه عالماً حق العلم انني برفضه انقض التقاليد المقدسة واكون كأنني رفضت الذي ارسله .

« فتحت الباب واذا بالواقف خلفـه فتى لا يتجاوز الخامسة والعشرين

من سنّه . وما اعرف لماذا انتفض قلبي في داخلي واصبح كأنه جعبة من السهام كنت اتمنى ان اصمي بها فؤاده . وكنت اذا ما نظرت اليه ، وقد امتص الجوع لحمه ، ولفحت الشمس والرياح جلده العريان من كل كساء ، ولبس في يده حتى عصا يدافع بها عن نفسه ، بدا لي ضعيفاً الى اقصى درجات الضعف . لكن نوراً في عينيه وعلى وجهه كان يجعله اشدّ وأمنع من كميّ واعتقَ من سنيه بكثير . حتى ان امعائي اخذت تصرخ ضدّه . وكل قطرة من دمي راحت تشتهي سحقه . لا تسألني لماذا . فلعل عينه الثاقبة اخترقت الحجب التي كانت نفسي محجبة بها فتركتها مفضوحة ، عريانة ، وهالني ان ارى نفسي عريانة امام انسان . او لعل طهارته مزقت الستائر عن قذارتي فاحزنني ان ارى الستائر التي صرفتُ عمري في حياكتها ممزقة ومطروحة على الحضيض . اليس ان القذارة تعتز ابداً وتباهي بستائرها ؟ او لعل ثأراً قديماً بين نجمه ونجمي . من يدري ؟ من يدري ؟ هو وحده يعلم السبب .

« قلت له بصوت اجش ولهجة لا رحمة فيها ان قبوله مستحيل . وامرته ان يغادر المكان في الحال . لكنه ، بدلاً من ان يفعل ذلك ، عاد ينصح لي بصوت هادىء ان اتروى في الأمر فلا اتسرع في حكمي . فاعتبرت نصيحته اهانةً لي وبصقت في وجهه . فلم ينهزم حتى من بعد ذلك . بل احتفظ بمكانه بثباتة جأش غريبة . ثم مسح البصاق عن وجهه على مهله وعاد ينصح لي ان ارجع عن حكمي . فشعرت ، وهو يمسح البصاق عن وجهه ، كأنه يمرغ به وجهي . وشعرت كذلك إنني انكسرت . وفي اعماق نفسي ايقنت ان الكفتين في المعركة لم تكونا متوازنتين . وان كفته كانت الراجحة .

« الاّ ان كبريائي، مثل كل كبرياء مغلوبة، أبَتْ ان تسلّم لخصمها بالغلبة الاّ من بعد ان تُلقّم التراب وتداس بالاقدام . اوشكت ان استسلم للغريب وامنحه ما طلب . لكنني كنت اشتهي ان أذِلّه ولو قليلا — ان اكسر من شوكته . اما هو فما كان ليذِلّ .

« بعد مناورات دارت كلها عليّ لا معي التفتَ اليّ الرجل وبغتةً سألني قليلاً من الخبز وشيئاً من الكساء . فتجددت آمالي بالنصر . اذ وجدت في الجوع والبرد حليفين عنيدين ضد الرجل . فرفضت طلبه بقساوة فائقة الحد قائلاً ان الدير يعتاش بالحسنات فلا يستطيع ان يُحسن . وقد كذبت فيما قلت . لان غنى الدير كان فاحشاً فكان حراماً ان نردّ جائعاً او معوزاً او عرياناً . لقد اردت من الرجل ان يتوسل بضعف الضعفاء، ان يستعطي بذلّ الفقراء . لكنه ما كان ليتوسل او ليستعطي . بل كان يطلب كمن له حق . بل كان يأمر اذ يطلب .

« طالت المعركة فيما بيننا . ولكنها ما كانت سجالاً ولا في مرحلة من مراحلها بل كان النصر فيها بجانبه منذ البداية . واخيراً اخذت افكّر في اسلوب أنسحب فيه من النزال من غير ان افضح انكساري . فعرضت على الرجل ان يدخل الفلك لا رفيقاً بل خادماً — خادماً لا غير . وقلت في نفسي : ان في ذلك لتعزية لي ومذلة له ان هو قبل بما عرضت . وما ادركت حتى تلك الدقيقة انني انا كنت المستعطي لا هو . فما كان منه الا ان رضي بما اقترحت من غير ان يبدي اقل تذمّر . فكأنه اذ ذاك هشمني تهشيماً ولفّني بثوب من الخذلان المشين . وما دار في خلدي قط انني عندما فتحت ابواب الفلك في وجهه اقفلتها

في وجهي . فقد بقيت حتى النهار الأخير متمسكاً بوهمي انني ربّ الفلك لا هو .

« آه ، مرداد ، مرداد ، ماذا فعلتَ بشمادم ! آه ، شمادم ، شمادم ، ماذا الذي فعلته بنفسك ! »

وتدحرجت على وجنتي الرجل دمعتان كبيرتان ، وارتعشت جثته الضخمة . فرقّ له قلبي وقلت :

« ما دام ذكر هذا الانسان يتفجر دموعاً من عينيك فالافضل الاّ تحدثني عنه فيما بعد . »

« لا يضطربنّ بالك ايها الرسول المغبوط . فما هذه الدموع العلقمية الا عصارة من كبرياءِ مَن تذوّق طعم الرئاسة ، فماتت الرئاسة بين يديه اما كبرياؤه فما تزال تندب ذاتها والرئاسةَ من حين الى حين . هي سلطة الحَرْف المميت تحرّق اسنانها ضد سلطة الروح المحيي . دع الكبرياء تبكي . انها لن تجد دموعاً فيما بعد . دع السلطة تحرق اسنانها . انها لفاقدة اسنانها قريباً .

« واهاً لعينيّ . ألا ليتهما ما كانتا محجبتين بضباب الأرضيات عندما ابصرتا طلعته السماوية للمرة الاولى ! واهاً لاذنيّ . ألا ليتهما ما كانتا مسطومتين بحكمة العالم عندما نفخ فيهما حكمته الالهية ! واهاً للساني . ألا ليته ما كان مغلّفاً بحلاوة البشرة المرّة عندما راح يناهض لسانه المغموس في رحيق الروح ! لكنني حصدت الكثير من احساك غروري واوهامي ، وعليّ بعد ان احصد اكثر .

« مرت بنا سنوات سبع ما عرفناه في خلالها الاّ خادماً وضيعاً ، واميناً ، ولطيفاً ، وهادئاً ، ولبقاً ، ومتفانياً في قضاء اقل حاجة لاصغر رفيق . وكان اذا مشى فكأنه يمشي على الهواء . لكنه ما كان ينبس بكلمة . فاعتقدنا انه نذرَ

السكوت التام على نفسه . لقد حاول البعض في البدء ان يمازحه ليخرجه من صمته . لكنه كان يقابل تلك المحاولات برصانة علوية حتى انه بعد قليل اجبر الكل ان يوقّروا صمته فلا يزعجوه . ولكم كان يؤلمني صمته وتقلقني طمأنينته ، على عكس الآخرين من رفاقي الذين كانوا يستأنسون بهما . ولكم حاولت ان افسد ذاك الصمت واعكر تلك الطمأنينة ، ولكن بغير جدوى .

«قال لنا ان اسمه مرداد . فكنا نناديه كذلك . امّا مَن هو ، ومن اين ، وابن مَنْ ، وما هي اذواقه ومعتقداته ، فما باح لنا بشيء من ذلك . وكنا ، مع ذلك ، نحس وجوده بيننا الى حدّ بعيد .

«لقد كانت السنوات السبع التي تلت دخول مرداد سنواتِ يسر ووفرة . اذ ازدادت في خلالها ممتلكات الفلك سبع مرات واكثر . فلانَ له قلبي وخاطبت جماعة الرفاق في امر قبوله واحداً منّا ، لاسيما والعزة الالهية ما ارسلت لنا غيره ليحل محل الرفيق المتوفّى .

«وعندها وقع ما لم يكن في الحسبان ، بل كان ابعد من تكهنات كل الرفاق ، وبالاخص تكهنات هذا المسكين الذي امامك . وذلك ان مرداد حطم الخاتم الذي كان على شفتيه وبذلك اطلق العاصفة من سجنها . فقد بدأ يبوح بما تستّر خلف صمته من الاهواء والافكار التي اندفعت بقوة السيل الهائل جارفة في سبيلها كل الرفاق . اجل . كلهم ما عدا شمادم الذي حاربها حتى النهاية . فقد حاولت ان اقف في وجه السيل — ان ارده على اعقابه — بما أعطيته من سلطان الرئاسة . لكن الرفاق ابوا من بعدها ان يعترفوا بسلطان غير سلطان مرداد . فقد اصبح هو السيد . واصبح شمادم منبوذاً . وعندما خانني الصدق

والوعيد لجأت الى الحيلة والتمليق. فأغريت بعض الرفاق بالمال الكثير، والبعض بهبات واسعة من الارض . و كدت افوز في كل ذلك لو ان مرداد لم يعلم بـه بطريقة خفية ويخنقه بغير عناء – ببضع كلمات لا غير .

«غريبة وعويصة هي العقيدة التي كان يبشر بها مرداد. وكلها مبيّنة في الكتاب . اما انا فمحظور علي التكلم عنهـا . ولا عجب . فقد كان من السهل على مرداد ان يصوّر لك الثلج اشدّ سواداً من القير ، والقير انصع بياضاً من الثلج . اذ كان في حجته قوة لا تُردّ ، وفي كلمته حماسة لا تُقهر . وكانت له طلاقة لسان لا تجارى . فبماذا كان عليّ ان اقاوم سلاحاً ماضياً كذلك السلاح ولست من الفصاحة وقوة الحجة على شيء؟ لم يبقَ من سلاح في يدي غير خاتم الفلك . لكن هذا السلاح كذلك ما اغناني فتيلاً. اذ ان الرفاق ، وقد الهبتهم حماسة مرداد وبلاغته ، راحوا يرغمونني على توقيع وختم كل صك كانوا يرتأون كتابتـه ويرون من الضروري ان يكون مختوماً بخاتم الفلك . وهكذا وهبوا قطعة بعد قطعة من الأملاك الشاسعة التي وقفها المؤمنون في خلال اجيـال كثيرة. ومن بعدها اخذ مرداد يرسل الرفاق مثقلين بالهدايا الى المعوزين في كل القرى المجاورة . فما جـاء عيد الكرمة الاخير وهو احد العيـدين السنويين المقدسين في الفلك – اما الآخر فعيد الفلك – حتى اختتم مرداد افعاله الجنونية بان امر رفاقه بان يعرّوا الفلك من كل ما فيها من تحف ورياش ويوزعوه على الناس المجتمعين خارجاً .

«كل ذلك شهدته بهاتين العينين الخاطئتين ، ودونته في هـذا القلب الذي كاد ينشقّ غيظاً من مرداد وبغضاً له . ولو ان البغض يذبح كما يذبح حد

السيف لذبحت الف مرداد بما كان يجيش في صدري من البغض . لكن محبته كانت اشدّ من بغضائي . فما توازنت الكفتان حتى في هذه المعركة الاخيرة . ولا تراجعت كبريائي الا" من بعد ان طُرحَت" الى الحضيض وداستها اقدام عابري السبيل . فلقد صرعني مرداد من غير ان يصارعني. ولقد صارعته ، لكنني ما صرعت غير نفسي . ولكم حاول بمحبته الصافية وصبره الطويل ان يزيح الغشاوات السود التي كانت على عينيّ ! ولكم عدت افتش عن غشاوات اشد كثافة وسواداً منها فأغشّي بها عينيّ ! فكان كلما زادني من لطفه ، زدته من شراستي .

«لقد كنت ومرداد محاربَين في حومة واحدة. لكنه كان جيشاً عرمرماً في ذاته . وكنت وحيداً ولا مُعين . ولو ان رفاقي نصروني عليه لسحقته في النهاية سحقاً ، ولانتزعت قلبه من صدره وأكلته اكلا . لكن رفاقي نصروه عليّ . يا لهم من خونة ! يا لهم من جبناء ! مرداد ، مرداد ! لقد اخذت بثأرك . »

واجهش الراهب في البكاء . ثم هدأ هدأة طويلة ومن بعدها انحنى الى الأرض مرة" ثانية وقبّلها ثلاثاً قائلا :

« ايه مرداد ، يا غالبي ، يا سيدي ، يا رجائي ، يا عقابي ويا ثوابي . اصفح لشمادم هذه المرارة . ان رأس الحية ليَحتفظ بما فيه من سم" حتى من بعد فصله عن الجثة . ولكنه لا يستطيع اللسع . وها هو شمادم لا انياب اليوم في فيه ولا سم . اعضده بمحبتك كيما يرى اليوم الذي يصبح فيه فمه مترعاً بالشهد كفمك . فانت قد وعدت ذلك . لقد اطلقته اليوم من سجنه الاول . فلا تدعه يمكث طويلا في سجنه الثاني . »

وكأن المتقدّم قرأ السؤال في عينيّ عما عساه يعني بسجنه الاول والثاني، فتنهد وراح يفسر لي ذلك بصوت فيه من الرقة والحنو ما كاد يحملني على البتّ بانه صوت رجل آخر :

« في ذلك اليوم دعانا كلنا الى هذا الكهف حيث كانت عادته ان يعلّم السبعة . وكانت الشمس على وشك المغيب ، وريح من الغرب قد ساقت ضباباً كثيفاً فجليت به كل التلال والاودية من هنا الى البحر بجلباب سحري . لكنه لم يبلغ من هذا الجبل اعلى من خصره . فبان وسط الجبل كما لو كان شاطئاً من شواطىء البحر . ومن فوق الضباب ، على الافق الغربي ، تلبدت غيوم دكناء حجبت وجه الشمس . فتقدم المعلم من السبعة وعانقهم واحداً واحداً . وكان التأثر العميق بادياً على وجهه . ومن بعد ان عانق السابع التفت الى الجميع وخاطبهم هكذا :

« قد طالما سكنتم الاعالي . فعليكم اليوم ان تهبطوا الى الاعماق . لانكم ما لم تربطوا القعر بالقمة ، فتصعدوا اذ تهبطون ، وتهبطوا اذ تصعدون ، بُليتم بالدُوار في الاعالي ، وفي الاعماق بالعمى . »

« وعندها التفت اليّ بعينين طافحتين رقةً وحنواً . ومن بعد ان حدق اليّ طويلاً قال :

« اما انت يا شمادم فساعتك لم تأزف بعد . فستبقى على هذه القمة في انتظار أوبتي . وستحرس كتابي المحفوظ في صندوقة من حديد تحت المذبح . فاحذر من ان تمسّه يدٌ — حتى ولا يدك . وانا سابعث برسولي في حينه ليأخذه منك ويعلنه للعالم . ستعرف الرسول بالدلائل الآتية : فهو سيصعد هذه القمة

بطريق منحدر الصوان، وسيبدأ رحلته مزوداً بسبعة ارغفة وعصاً ومكتمل اللباس فتجده انت امام هـذا الكهف عرياناً ولا زاد معه ولا عصا ، ولا نفسَ في صدره . والى ان يجيء رسولي تبقى انت ملجوم اللسان مختوم الشفتـين . فلا تكلم انساناً ولا تقارب انساناً. لكنك حالما يقع بصرك عليـه تنعتق من سجن الصمت . ومن بعد ان تسلّمه كتابي تصير حجراً . وذاك الحجر يكون بمثابة حارس لمدخل هذا الكهف . وتبقى كذلك حتى عودتي . وانا وحـدي انقذك من سجنك الحجري . فاذا ما استطلتَ الانتظار جعلتُه اطول . واذا ما استقصرته جعلتُه اقصر . كن مؤمناً . و كن صبوراً . »

« وعندها عانقني انا كذلك . ثم التفت الى السبعة ولوّح بيـده قائلاً : « اتبعوني ايها الرفاق . » ومشى امامهم في المنحدر ورجلاه الطاهرتان تتنقلان بخفة عجيبة فما تكادان تمسان الصوان ، ورأسه النبيل قـد استوى عالياً فوق كتفيه ، وألحاظه الهادئة النفّاذة تهتك ستائر الآفاق البعيدة . وعندما بلغوا ذيل جلباب الضباب في متوسط الجبـل اخترقت الشمسُ الجانبَ الاسفل من الغيمة الدكنـاء فوق البحر فكوّنت فسطاطاً متألقاً بانوار ابهج من ان توصف ومن ان تحدّق عين بشرية إلى بهائها. فتراءى لي ان المعلم والسبعة وراءه قد انفصلوا عن الجبل وانهم كانوا يمشون على الضباب ، ثم انهم دخلوا فسطاط النور — بل دخلوا الشمس . فانقبض قلبي اذ وجدتني متروكاً وحدي — اجل وحـدي . وحدي . »

و كمَن يستريح من بعد تعبٍ مضنك ، انقطع شمادم فجأة عن الكلام ، واطبق جفنيه ، ولوى عنقه ، وراح يصعّد انفاساً متقطعة . وبقي برهة كذلك .

واذ اخذتُ افتش عن كلمات اعزيه بها ولو بعض التعزية ، رفع رأسه وقال :

« انت محبوب من الحظ . فاعذر رجلاً لا حظّ له . لقد تكلمت كثيراً – وكثيراً جداً . فكيف لي ان افعل غير ذلك ؟ ايستطيع من صام لسانه عن الكلام مائة وخمسين عاماً ان يفطر على « اي » و « لا » ؟ ايستطيع شمادم ان يكون مرداد ؟ »

« ألا اذنت لي بسؤال يا اخي شمادم ؟ »

« ما الطفك تدعوني اخاً ! فانا منذ مات اخي الأوحد – وذلك لسنين عدة خلتْ – ما سمعت انساناً يناديني بذلك الاسم العذب . ما هو سؤالك ؟ »

« انه ليدهشني ان يكون مرداد المعلّمَ العظيمَ الذي وَصَفتَ والا يسمعَ العالم عنه او عن احد من رفاقه شيئاً حتى اليوم . »

« لعله ما يزال يترقب الوقت المناسب . او لعله يعلّم باسم غير اسمه . الا انني واثق من امر واحد . وهو ان مرداد سيغيّر العالم كما غيّر الفلك . »

« لعله مات من زمان . »

« لا . مرداد لا يموت . لانه اقوى من الموت . »

« اتعني انه سيهدم العالم مثلما هدم الفلك ؟ »

« كلا ثم كلا . فهو ما هدم الفلك بل اراحها من اثقالها . وكذلك سيريح العالم من اثقاله . وعندها سينير الضوء الابدي من جديد ، ذلك الضوء الذي اخفيته انا وامثالي تحت اكداس من الاوهام ، والآن نعمى شدة الظلمة التي نحن فيها ، ان مرداد سيرمم في الناس ما اتلفه الناس في انفسهم . وقريباً يصبح الكتاب في يديك . فاقرأ واستنر . والآن عليّ الا ابطىء بعد . انتظرني

قليلاً هنا ريثما اعود . واياك ان تتبعني حيث انا ذاهب . »

وخرج الراهب من الكهف بخطوات سريعة وتبعتُه حتى شفير الهاوية حيث وقفت اتأمل المشاهد المنبسطة امام عيني من رأس القمّة حتى شاطىء البحر . واذا بالجمال المنثور في الوانها الفتانة وخطوطها العجيبة يسطو عليّ بسحر لا يقاوم . فشعرت كأنني اذوب ثم اسيل ثم اتبخر ثم انزل قطيرات لا تبصر فوق كل شيء واتغلغل في كل شيء : في البحر البعيد الملتف بأكفان شفافة من الضباب اللؤلؤي ؛ وفي الآكام المنحنية هنا ، المتكئة هنالك ، وكأنها كلها درجات سلّم اسفله في البحر واعلاه على غوارب الجبال الجرداء ؛ وفي المزارع والقرى المنثورة على التلال والمغمورة بخضرة الارض ؛ وفي المروج الزمردية المحضونة بالتلال ، المرصّعة بالبهائم في مراعيها والناس في اعمالهم ، والمرتوية من افئدة الجبال السائلة ؛ وفي الاودية والاخاديد وكأنها الجراح الحية في اجسام الجبال ، الشاهدة لها بالصمود في معركتها مع الزمان ؛ وفي النسيم النشوان ؛ وفي زرقة السماء واغبرار الارض .

كدت انسى الراهب وحكايته المحيّرة عن نفسه وعن مرداد والكتاب لو لم تعد بي ابصاري من جوّها البعيد الى منحدر الصوان بالقرب مني . فرحت افكّر باليد الخفية التي اخرجتني من بيتي للتفتيش عن الراهب المسحور ، فقادتني اليه والى اكثر منه بكثير — الى مرداد وكتابه . وباركتها في قلبي .

وانا كذلك واذا بالراهب يعود فيناولني كتاباً ملفوفاً بقطعة من الكتان المصفرّ من تعاقب السنين ويقول لي :

« ان مهمتي اصبحت منذ الآن مهمتك . فالكتاب اليوم امانة في يديك .

فكن اميناً لأمانتك . اما انا فقد دنت ساعتي الثانية . وابواب سجني تنفتح لتقبلني. وليس يعرف الى متى تبقى مغلقة عليّ غير مرداد. قريباً يَمّحي شمادم من كل ذاكرة . يا له من الم لا يضاهيه ألم – ألمُ الامّحاء ! وما بالي أقول ذلك وذاكرة مرداد تحفظ كل شيء؟ من عاش في ذاكرة مرداد عاش الى الأبد.»

وتلا ذلك سكوت طويل ومن بعده رفع الراهب رأسه والتفت اليّ بعينين مترعتين بالدموع ثم قال بصوت منخفض كأنه الهمس فما كدت اسمعه :

« ستعود قريباً الى العالم . لكنك عريان والعالم يكره العري . فهو يلف حتى روحه بالاطمار . وانا لا حاجة لي فيما بعد بالثياب التي على بدني . فها انا ادخل الكهف لانزعها عني كيما تستتر بها عريك . ذلك مع علمي ان ثياب شمادم لا تناسب احداً الاّ شمادم . »

قبلت بما عرضه عليّ الراهب من غير ان اعلّق عليه كلمة واحدة . وفهم الراهب اني قبلت فدخل الكهف وبقيت واقفاً عند المدخل . ثم فطنت للكتاب في يدي فنزعت عنه لفائفه وأخذت اقلّب اوراقه التي كانت من رق الغزال وقد علاها اصفرار جميل . وسرعان ما غرقتُ في صفحاته فرحت اقرأ من غير ترتيب ولكن بانجذاب غريب . وكنت ، وانا اقرأ ، انصت الى داخل الكهف لعلني اسمع الراهب يناديني لأدخل وارتدي ثيابه . فمرت الدقائق سراعاً ولم اسمع للراهب صوتاً .

اخيراً رفعت عيني عن الكتاب ونظرت الى داخل الكهف فرأيت في وسطه كومة ثياب الراهب . اما الراهب نفسه فما لمحته حتى لمحاً . فناديته مرة واثنتين وثلاثاً ، رافعاً صوتي كل مرة اكثر من التي قبلها . الاّ انه ما كان

ليجيب . فاضطربت كثيراً واندهلت ايما اندهال لعلمي ان الراهب لا يستطيع الخروج من الكهف الا من المدخل الضيق حيث كنت واقفاً . ولم يكن عندي اقل شك في ذلك . فما عدت اعرف ما اقول ولا كيف ارد عني الافكار الغريبة التي اخذت تساورني : ألعله ما كان الا شبحاً ؟ ولكنني لمست لحمه وعظمه بلحمي وعظمي . وها هو الكتاب ما يزال في يدي . وها هي ثيابه داخل الكهف . ألعله اغمي عليه وهو الآن مطمور تحت ثيابه ؟

دخلت الكهف ورحت ارفع الثياب بيدي ثوباً ثوباً . يا للغباوة ! ان اكواماً اضعاف هذه الكومة لا تكفي لطمر جثة كجثة المتقدم . ألعله ، بطريقة عجيبة ، خرج من الكهف من غير ان اشعر به ووقع في الهاوية ؟

وباسرع مما جاءتني الفكرة الاخيرة وثبت الى الخارج . وباسرع من وثبتي وجدتني مسمّراً الى الأرض على بضع خطوات من مدخل الكهف عندما الفيتني وجهاً لوجه امام حجر كبير قائم على شفير الهاوية بالتمام . ومما لا ريب فيه على الاطلاق ان هذا الحجر لم يكن هنالك من قبل . وقفت اتأمله فاذا به يشبه وحشاً جاثماً . واذا برأس ذلك الوحش يكاد يكون رأس انسان ، ملامحه خشنة ، صلبة . وابرزها ذقن عريض مرتفع ، وفكّان قويّان متماسكان ، وشفتان كأنهما مختومتان بخاتم الصمت الرهيب ، وعينان ذاهلتان وشاخصتان الى الشمال الفارغ القاسي .

# الكِتابُ

هَذا كِتابُ

مِرْدَاد △

كَما دَوَّنَه

نَرُوْنْدا △

أصغر رِفاقِه سِنّاً

وأقلّهم قَدْراً △

مَنارَةً ومِيناءً

للتوّاقِين إلى التغلّب △

أمّا غير التوّاقين

فليحذروه !

# الفصل الاول

مرداد يسفر ويحدث عن الحجب والخواتم

تُوُندا : في ذلك المساء كان الثانية مجتمعين حول مائدة العشاء . وكان مرداد واقفاً جانباً في انتظار الاوامر .

وكان الرفيق شمادم يتبجح بمآتيه في خلال رئاسته فيسوق الارقام تلو الارقام ليُظهر المقادير الطائلة التي اضافها الى ثروة الفلك والمكانة الرفيعة التي اوصلها اليها . وكان في تبجّحه يكثر من استعمال كلمة «انا» مناقضاً بذلك قاعدة من اقدم القواعد المسنونة للرفاق . وهي ان يتحاشوا جهد استطاعتهم استعمال ضمير المفرد المتكلم في احاديثهم . فما كان من الرفيق ميكايّون الا ان أنّب المتقدّم بلطف. وعلى الأثر احتدم الجدال حول تلك القاعدة ، والغاية منها ، واسم واضعها ، اهو ابو الآباء نوح ام الرفيق الاول سام. وادّى الجدال الى المعايرة ، والمعايرة الى المهاترة فالتشويش حيث لم يبقَ في امكان السامع ان يسمع أو أن يفهم شيئاً من الأخذ والردّ .

وعندها رأى شمادم ان يحوّل اللغط والتشويش الى ضحك فالتفت الى مرداد وقال بسخرية مفضوحة :

« ما بالنا نتخبط في الجدال وعندنا من هو اعظم من ابي الآباء ؟ مرداد ، ألا خلّصتنا من هذه الشباك الكلامية ؟ »

وفي الحال توجهت كل الابصار الى مرداد . ولشدّ ما دُهشنا وما ابتهجنا عندما فتح مرداد فاه للمرة الاولى في سبع سنوات وكلمنا هكذا :

## مرداد

يا رفاق الفلك ! كأني بشمادم عندما توجه متهكماً بامنيته هذه الى مرداد تنبأ عن غير قصد منه بما اعتزمه مرداد من امد بعيد. فمنذ اليوم الذي دخل فيه هذه الفلك قد اختار مرداد هذا الظرف بعينه — هذه الساعة وهذا المكان — ليفضّ فيه خواتمه ويطرح عنه حجبه ، ويقف سافراً امامكم وامام العالم .

بسبعة خواتم ختم مرداد على شفتيه . وبسبعة حجب حجب وجهه كيما يعلّمكم ويعلّم العالم، عندما تصبحون قابلين للتعليم، كيف تفضّون الخواتم التي على شفاهكم ، وتمزقون الحجب التي على وجوهكم ، وبذلك تعلنون انفسكم لأنفسكم بتمام المجد الذي هو مجدكم .

انّ عيونكم لمحجّبة بحُجُب كثيرة . فانتم ما نظرتم الى شيء الا كان ذلك الشيء حجاباً لكم .

وانّ شفاهكم لمختومة بخواتم كثيرة . فانتم ما نطقتم بكلمة الا كانت الكلمة خاتماً لشفاهكم .

فما الاشياء باشكالها وانواعها سوى حُجُب وقُمُط تحجبت الحياة وتقمطت بها . فكيف للعين التي ليست في ذاتها غير حجاب من حجب الحياة وقماط من قمطها ان تدلكم على اكثر من الحجب والقمط ؟

والكلمات ؟ أليست هي كذلك اشياء مختومة في احرف ومقاطع ؟ فكيف لشفة ليست في ذاتها غير خاتم ان تنطق بغير الخواتم ؟

انما تستطيع العين ان تحجب الاشياء، ولكنها لا تستطيع ان تميط عنها الحجب .

وانما تستطيع الشفة ان تختم الاشياء ، ولكنها لا تستطيع ان تفض الخواتم .

لا تسألوا تلك ولا هذه ان تفعلا اكثر مما في وسعهما فعله. فشأن الواحدة ان تحجب الاشياء ، وشأن الأخرى ان تختمها . وكلتاهما تقوم بما وُكِل اليها من اعمال الجسد خير القيام . فهما ، اذ تحجبان الاشياء وتختمانها ، انما تدعوانكم الى التفتيش عما وراء الحجب والى التنقيب عما تحت الخواتم .

اما اذا شئتم هتك الحجب فعليكم بعين غير العين المسلّحة بالاهداب والجفون ، والمظللة بالحواجب .

وان شئتم فضّ الخواتم فعليكم بشفة غير قطعة اللحم المألوفة التي تحت انفكم .

تعلّموا اولاً ان تبصروا العين نفسها جليّة اذا ما شئتم ان تبصروا الاشياء جلية . لذلك لا تنظروا بالعين ، بل من خلالها ، كيما تبصروا كل ما وراءها .

وتعلّموا ان تَنطقوا بالصواب الشفةَ ذاتها واللسانَ عينه اذا ما شئتم ان تَنطقوا غيرهما من الكلام بالصواب . لذلك لا تنطقوا بالشفة واللسان بل من خلالهما كيما تنطقوا بكل ما وراءهما من الكلم .

فأنتم لو كان لكم ان تنظروا بالصواب وتتكلموا بالصواب لوجدتم انكم

لا تبصرون غير انفسكم في كل ما تبصرون . ولا تنطقون الا بانفسكم في كل ما تنطقون . اذ ليس في الاشياء وكل ما وراءها ، ولا في الكلام وكل ما خلفه الا" الناظر والمتكلم .

واذ ذاك فان يكن عالمكم احجية فلأنكم الاحجية . او يكن كلامكم شباكاً وشراكاً فلأنكم الشباك والشراك .

ذروا الاشياء على حالها ولا تحاولوا ان تغيروها . فهي ما كانت على ما هي الا لانكم على ما انتم . وهي لا تبصر ولا تنطق إلا" على قدر ما تعيرونها من بصركم ونطقكم . لذلك اذا ما اغلظت" لكم الكلام فابحثوا عن السبب في ألسنتكم . واذا ما ازعجتكم شناعتها ففتشوا عيونكم اولاً وآخراً .

ثم لا تسألوا الاشياء ان تنزع عنها حجبها . بل اسفروا انتم تسفر الاشياء . ولا تسألوها ان تفض" خواتمها . فضوا الخواتم التي على شفاهكم تُفَض" الخواتم عن كل شيء .

اما مفتاح الانعتاق من الحجب والخواتم فكلمة لا تبرح شفاهكم ابداً . وهي ما بين الكلمات اصغرُها واكبرها . وقد دعاها مرداد «الكلمة المبدعة» .

**زروندا** : ووقف المعلم عن الكلام فهبطت على الجميع سكينة عميقة مرتعشة ءا في افكارنا وعيوننا من الشوق والانتظار . واخيراً تكلم ميكايون وقد عيل صبره والتهبت مشاعره :

**ميكايون** : ان آذاننا لجائعة الى الكلمة وقلوبنا لتوافة الى المفتاح . سألناك بأبي الآباء تكلّم يا مرداد ، تكلّم .

# الفصل الثاني

في الكلمة المبدعة . « انا » هي الينبوع والمحور

مرداد

كلما قلتم **انا** قولوا كذلك في قلوبكم : نجّنا اللهمّ من ويلات **انا**، واهدنا الى غبطة **أنا** . فهذه الكلمة – على ضآلتها – هي الاناء السرّي الذي خُتمت فيه ارواح كل الكلم . فاذا ما فضضتم مرةً خاتمه تعطّرت افواهكم وحلت ألسنتكم ، فسالت كل كلمة من كلامكم ببهجة الحياة . واذا ما تركتموه مختوماً بقيت افواهكم بَخْراء وألسنتكم مريرة . وسالت كل كلمة من كلامكم بصديد الموت .

لأن **انا** ، ايها الرهبان ، هي الكلمة المبدعة . فما لم تدركوا القدرة السحرية التي فيها ، وما لم تصبحوا اسياد تلك القدرة ، دام غناؤكم عويلا ، وسلمكم حرباً ، ودمتم ترتجفون في ظلمات السجون حين تودون ان تحلّقوا في انوار الاعالي .

ان **انا** ، ايها الرهبان ، هي حسكم اللاهيولي ، الصامت ، بالوجود وقد اصبح هيوليّاً وناطقاً . هي ما ليس يُسمع فيكم وقد غدا مسموعاً ، وما ليس يُنظر وقد بات منظوراً . حتى اذا ما نظرتم بعيونكم ابصرتم ما لا يُبصَر . او

اصغيتم بآذانكم سمعتم ما لا يُسمع . فانتم ما برحتم مقيدين بالعين والاذن . وما لم تبصروا بأعينكم وتسمعوا بآذانكم بقيتم عمياناً وصمّاً الى الابد .

انكم بمجرد ما تفكرون بـ**أنا** تكوّنون في رؤوسكم خضمّاً متلاطماً بالافكار . ذلك الخضمّ هو من صنع **انا** التي هي المفكّر والمفكّر بـه في آن معاً . إن يكن في افكاركم ما يَلدغ او ينهش او يمزّق فاعلموا انكم انتم قد سلّحتموه بالحُمَة والناب والمخلب .

ومرداد يريدكم ان تعلموا كذلك انّ مَن كان في مستطاعه ان يُسلّح كان في مستطاعه ان ينزع السلاح .

كذلك بمجرد ما تحسّون **أنا** تكشفون في قلوبكم عن بـئر طافحة بالاحساسات . وتلك البـئر ما اوجدها في قلوبكم إلاّ **أنا** . فهي المُحِسّ والمحسوس في آن معاً . إن يكن في قلوبكم قتاد وحسك السعدان فاعلموا انكم انتم قد غرستموهما هنالك.

ومرداد يريدكم ان تعلموا كذلك ان من كان في استطاعته ان يغرس كان في استطاعته ان يقتلع ما غرس .

وكذلك بمجرد ما تنطقون **انا** تبعثون الى الحيـاة جيشاً لجباً من رميم الكلام . كل كلمة منـه رمز الى شيء . وكل شيء رمز الى عالـم . وكل عالم جزء غير منفصل من مسكونة لا تُحَدّ. وتلك المسكونة هي من خَلق **انا** التي هي الخالق والمخلوق في آن معاً. إن يكن في مسكونتكم من عفاريت فاعلموا انكم خالقوهم من لا شيء .

ومرداد يريدكم ان تعلموا كذلك ان من كان في استطاعتـه ان يخلق

شيئاً من لا شيء كان في استطاعته ان يعيده الى لا شيء . كما يكون الخالق تكون خليقته . أيستطيع أحد ان يخلق أكثر من ذاته او اقلّ من ذاته ؟ انما يخلق الخالق ذاته – لا اكثر ولا اقل .

انّ **أنا** لينبوع تتدفق منه الاشياء كلها واليه تعود . فهل لينبوع ان يفيض بغير ما فيه ؟ كما الينبوع كذلك ما يسيل منه .

وكعصا الساحر هي **أنا** . أتستطيع العصا ان تُظهر من السحر أكثر مما في الساحر ؟ كما الساحر كذلك السحر الذي في عصاه .

واذن كانت **أنا**، ايها الرهبان ، صورة صادقة لحسّكم بالوجود ، وكان العالم الذي انتم فيه صورة صادقة لها . فان كانت **أنا** جليّة المعنى واضحة الدلالة كان عالمكم جليّاً وواضحاً . واذ ذاك ما كان كلامكم يوماً شباكاً لكم ، ولا كانت اعمالكم اعشاش آلام واحزان . وان كانت **أنا** مبهمة المعنى ملتبسة الدلالة كان عالمكم مبهماً وملتبساً . واذ ذاك كان كلامكم شراكاً لكم وكانت اعمالكم بيادر للاوجاع .

واذا كانت **أنا** راهنة ، ثابتة ، كان عالمكم راهناً ، ثابتاً ، فكنتم اقوى من الزمان واوسع من المكان . اما اذا كانت متقلّبة ، متنقّلة ، كان عالمكم متقلباً ، متنقلاً . فكنتم خصلة من الدخان لا تتنفس فيها الشمس حتى تبددها .

واذا كانت **أنا** واحدة ، كان عالمكم واحداً فكنتم في سلام ابدي مع كل اجناد السماء وشركاء الأرض . اما اذا كانت كثرةً ، كان عالمكم كثرةً فكنتم في نزاع سرمدي مع انفسكم وكل مخلوق في مملكة الله التي لا تُحدّ .

**أنا** هي المحور الذي تدور عليه حياتكم والذي تشع منه سائر الاشياء

التي منها يتألف عالمكم . فان يكن المحور ثابتاً كان عالمكم ثابتاً . واذ ذاك عجزت قوات السموات والأرضين عن ان تميلكم ذات اليمين او ذات اليسار . امّا اذا كان المحور اليوم هنا ، وغداً هناك ، وبعد غدٍ هنالك ، كان عالمكم متوجرجاً ، منقلباً ، وكنتم اذ ذاك ورقة في مهبّ عاصفة غضوب .

وها هو عالمكم . انه لَعالم ثابت ، ولكن في عدم ثباتـه ؛ وجليّ ، ولكن في ابهامـه ؛ ودائم ، ولكن بزواله ؛ وواحد ، ولكن بقلّة ما فيـه من وحدة .

ان عالمكم لعالـمُ مُهُود تتحول ابداً الى لحود ، ولحود تنقلب مهوداً . وعالم ايام تزدرد الليالي ، وليالٍ تتقيأ الأيام . وعالم سلم يشهر الحرب ، وحرب تطلب السلم . وعالم بسمات تعوم في بحر من الدموع ، ودموع تشع بالبسمات .

انه لعالم ابداً في حالة المخاض . اما القابلة بجانبه فالموت .

انه لعالم غرابيل ومناخـل ليس بينها غربالان ولا منخلان متشابهان . وانتم في ذلك العالم لاهون ابداً بغربلة ما لا يُغربَل ونخل ما لا يُنخل .

انه لَعالم منقسم على ذاته . لأنّ **أنا** فيكم منقسمة على ذاتها .

انه لعالم سياجات وسدود . لأنّ **انا** فيكم مكتظة بالسياجات والسدود . فهي ابداً تسيّج حول ما تحسبه منها لتُبقيَ خارجاً ما تعتقده غريباً عنها . وهي لا تفقه ان ما تحصره داخل السياج لا ينحصر ضمنه بل يخترق سبيله ابـداً الى ما وراء السياج . وان مـا وراء السياج لا يبقى وراءه بـل يعمل دائماً على الانضمام الى ما هو داخـل السياج . وما ذاك الاّ لأن الذي داخـل السياج والذي خارجه هما توأمان لا ينفصلان لِأمّ لا تتجزأ . وتلك الأمّ هي **أنا** .

الا انكم بدلاً من ان تُسَرّوا باتحاد التوأمين تعودون فتشدون احقاءكم من جديد للعمل على فصلهما ، غير عالمين انه عمل لا طائلة تحته . وبدلاً من ان تصرفوا همكم الى رأب الصدع بين شطرَيْ **انا** تنفقون العمر في بَرْيِ ايامكم ولياليكم لتجعلوا منها اوتاداً تفصلون بها بين ما تحسبونه **انا** وبين ما تتوهمونه غير **أنا** .

لذلك كان كلام الناس مغموساً بالسمّ . ولذلك كانت ايامهم سكرى بالاحزان ، ولياليهم حبلى بالاوجاع .

ما دامت **أنا** الانسانِ شطرين دام ما ينطق به شباكاً ودامت حياته حرباً .

والانسان في الواقع لا يحارب الاّ نفسه . وهو اذ يحاربها يحارب كل مخلوق يتوهمه غير نفسه .

وكيف لذاتين ان تعيشا في سلام ما دامت الواحدة تسيّج ذاتها لتُبقي الاخرى خارج السياج ؟ كيف لاثنين ان يتفاهما يوماً من الايام ما لم تكن **أنا** الواحد مثل **أنا** الآخر بالتمام ؟ كيف لعالمكم ان يعرف التوازن ما دامت **أنا** فيكم ابداً مختلّة التوازن ؟

ان مرداد، ايها الرهبان ، سيرأب لكم الصدع الذي في **انا** كيما تتمكنوا من ان تعيشوا بسلام مع انفسكم ، ومع الناس ، ومع المسكونة بأسرها .

ومرداد سيطهر لكم **أنا** من كل ما فيها من سموم كيما تتذوقوا حلاوة **الفهم** .

ومرداد سيعلمكم كيف تزنون **أنا** كيما تعرفوا سرّ **التوازن الكامل** .

**نروندا** : وسكت المعلم ثانية . وعـادت السكينة فغمرت الجميع . وهذه المرة كذلك كان ميكايون اول من اندفع الى الكلام اذ قال :

**ميكايون** : ان في كلماتك "لاغراءً" قوياً يا مرداد . فهي تفتح امامنا ابواباً ولكنهـا تتركنا على العتبة . افلا اجتزت بنا الى ابعـد من العتبة — الى الداخل ؟

•

# الفصل الثالث

## في الثالوث الاقدس والتوازن الكامل

مرداد

انكم ، وان تمركز كل منكم في **انا** – ه ، تتمركزون جميعكم في **انا** واحدة ، شاملة ، هي **انا الله** .

**وانا الله** ، ايها الرهبان ، هي كلمة الله الوحيدة منذ الازل . اذ ان فيها وحدها يتجلى الله او الضمير الاسمى . ولولاها لكان الله صمتاً مطلقاً . بها خلق الخالق نفسه . وبها اتخذ عديم الشكل شتى الاشكال التي لا مناص للمخلوقات من التشكّل بها والنفوذ منها الى اللاشكلية . وبها نطق الله بذاته التي لا يستوعبها نطق .

ها هو السر الاكبر حيث يبدو غير المحسوس محسوساً ، والمحسوس غير محسوس ، وحيث يتم ذلك القران السري بين الروح والمادة فيغدو الاثنان واحداً .

فالله ، اذ يُحِس ذاته ، او يفكّر بذاته ، او ينطق بذاته لا يحتاج الى اكثر من قوله **انا** . لذلك كانت **انا** كلمته الوحيدة . لذلك كانت **الكلمة** .

اذا قال الله **انا** فقد قال كل شيء . اذ ليس من عوالم منظورة وغير

منظورة ، ولا من اشياء مولودة وغير مولودة ، ولا من زمان كرّ ، او يكرّ ، أو سيكرّ – ليس من شيء على الاطلاق – حتى ولا ذرة من الرمل – الاّ كان محشوراً في هذه الكلمة . بها كانت الاشياء كلها . وبها يحيا كل ما هو كائن.

لكنما الكلمة ، ما لم تكن ذات معنى ، كانت كصدى في الخواء .

ولكنما المعنى ، ما لم يكن مفهوماً وغير قابل للتأويل ، كان كالسرطان في الحلق او كالبثور على اللسان .

اما كلمة الله فما كانت يوماً صدى في الخواء ، ولا سرطاناً في الحلق ، ولا بثوراً على اللسان إلاّ للذين حُرموا **الفهم** . فالفهم هو الروح القدوس الذي يحيي الكلمة ويمكّن الصلة بينها وبين الضمير الناطق بها. فهو بمثابة المِنْجَم في ميزانٍ كفته الواحدة **الضمير الاولي** و كفته الثانية **الكلمة** .

الضمير الاوّلي ، فالكلمة ، فروح الفهم – : هاكم ، ايها الرهبان ، ثالوث الوجود . هاكم الثلاثة التي ليست غير **واحد** والواحد الذي هو ابداً ثلاثة متوازنون في كل شيء ، متكافئون في الوجود والسرمديّة ، عارفون ذواتهم بذواتهم ، متممون واحدهم الآخر ، غير قابلين للزيادة ولا للنقصان ، ولا للتغيّر والتبدّل ، وكائنون ابداً في سلام سرمديّ . ذلك ، ايها الرهبان ، هو **التوازن الكامل** .

لقد دعا الانسان ذلك التوازن الله . اما في الواقع فهو اعجب بكثير من ان يسمّى . لكن الله ، مع ذلك ، اسم مقدس . ومقدس هو الفم الذي يقدّسه .

والآن ، من هو الانسان ان لم يكن نسلاً من الله ؟ ألعلّ في امكانه ان

يختلف عن الله ؟ أليست السنديانة كلها مقمّطة في البلوطة التي هي ثمرتها ؟ أليس الله ماثلاً في الانسان ؟

اذن ، فالانسان ، كالله ، ثالوث اقانيمه الضمير والكلمة والفهم . واذن ، فالانسان كذلك خالق كإلهه . وخليقته هي **انا** – هُ . فعلامَ لا توازن فيه مثل الله ؟

اذا ما احببتم ان تعرفوا الجواب على هذه الاحجية فاسمعوا جيداً ما سيعلنه لكم مرداد .

# الفصل الرابع

### الانسان اله ما يزال في القمط

مرداد

انما الانسان اله في القمْط . فالزمـان قماط . والمكان قماط . والبشرة قماط ، ومثلها الحواس وكل مـا تتناوله الحواس . الأمّ تعرف ان القمط هي غير الطفل المقمّط بها. أما الطفل فلا يفقه ذلك قط .

والانسان ما يزال يُحِس قمطه احساساً عميقاً . واذ ان قمطه تتغير من يوم ليوم فحسه لا يثبت على حال . لذلك كانت كلمته التي ليست غير حسّه المعبّر عنه بالنطق متقلبةَ الدلالاتِ والمعاني . ولذلك كان فهمه غامضاً ومشوّشاً. ولذلك فقد التوازن في حياته فكانت تشويشاً في تشويش .

وهكذا تسمعون الانسان ابداً يستغيث . وهو يستغيث بكل شيء إلاّ بروح الفهم القدوس الذي لا اغاثة الاّ منه . وهـا هو صراخ الانسان الذي يقطع نيـاط القلوب مـا يبرح متردداً في أغوار الدهور . فالهواء مثقل بأنين الانسان . والبحار مليحة بدموعه . والارض مخددة باجداثه . والسماء موقورة آذانها بابتهالاته . وكل ذلك لانه يجهل حتى الآن معنى **انا** . فهي عنـده القمْط والطفل المقمّط بها معاً .

عندما يقول الانسان **انا** يشطر **الكلمة** الى شطرين ، احدهما القمط المقمط بها وثانيهما ذات الله التي لا تموت . ويروح يشن حرباً على الذات الكونية متوهماً اياها غير ذاته او عدوّةً لذاته .

وفي هذه الحرب المتفاوتة القوى يمزّق الانسان لحمه إرباً إرباً ، ويهرق دمه انهاراً . بينا الله الذي هو الاب والام يرقب كل ذلك بعطفٍ ومحبة. لان الله يعرف حق المعرفة ان الانسان بهرقه لدمه وبتمزيقه للحمه لا يهرق في الواقع غير العلقم ، ولا يمزّق غير الحجب التي تعميه عن وحدته مع الواحد الصمد .

تلك هي قسمة الانسان ان يناضل ويدمى ويغمى عليه ثم ان يستفيق في النهاية فيرأب صدع **انا** بلحمه ويضمده بدمه .

ذلك هو السبب ، ايها الرهبان ، الذي من اجله حُظّر عليكم الاكثار من استعمال كلمة **انا** . لانكم ما دمتم تعنون بها القمط والطفل لا الطفل وحده، وما دامت لكم غربالاً لا بوتقة ، دمتم تغربلون الباطل فلا تحصلون من غربلتكم الا على الموت وذريته بكل ما فيها من الم مبرّح وغصة لا تطاق .

# الفصل الخامس

في البواتق والغرابيل . كلمة الله وكلمة الانسان

ان كلمة الله بوتقة تصهر كل ما تخلقه وتمزجه فتجعل منه وحدة كاملة . فلا تقبل شيئاً لأنه ذو قيمة وترفض الآخر لأن لا قيمة له . واذ ان لها روح الفهم فهي تعرف حق المعرفة انها وما تخلقه وحدة لا تتجزأ . وانها اذا ما نبذت جزءاً من خليقتها فكأنها نبذت ذاتها . لذلك كان دأبها ابداً واحداً وغايتها ابداً واحدة .

اما كلمة الانسان فغربال . فهي تقيم من بعض ما تخلقه نقيضاً للبعض الآخر . وتجعل الاثنين في عراك دائم . وهي ما تنفك تختار مما تخلق اشياء تحسبها موالية لها . وتطرح اخرى تتوهمها معادية لها . فلا تلبث ان تقلب الآية فتعود وتختار من اعداء الأمس اصدقاء اليوم . وتنبذ من اصدقاء اليوم اعداء الغد .

وهكذا تبقى نار الحرب مشبوبة بين الانسان ونفسه . وما افظعها واقساها من حرب ! وما ذلك إلا لأن الانسان يفتقر الى الروح القدوس الذي بامكانه وحده ان يُفهمه انه وخليقته وحدة لا تتجزأ . وانه بطرحه منها ما يحسبه

معادياً له يطرح كذلك ما كان موالياً . اذ ان كلتا الكلمتين من «صديق» و«عدو» ليست إلاّ من خلق كلمته التي هي **أنا** . فلولا الواحدة لما كانت الأخرى . ابتدوا الخليقة تبتدوا معها الخالق . وهذا ما يفعله الانسان بالتمام، فهو لا ينفك يطرح **أنا** فيعود ويلتقطها من جديد .

ان ما ترون فيه شرّاً لكم فتكرهونه وتطرحونه خارجاً لا بد من ان يلتقطه غيركم من المخلوقات كخير له . فكيف لشيء ان يكون خيراً وشرّاً في آن معاً؟ انه ما كان خيراً ولا شراً ولكن **أنا** — كم جعلته شرّاً **وأنا** سواكم جعلته خيراً .

ألم اقل ان من كان في وسعه ان يخلق كان في وسعه ان يمحو ما خلق؟ فمثلما تخلقون العداوة تستطيعون ان تمحوها ، او ان تعيدوا خلقها فتجعلوها صداقة . ولا بد لذلك من ان تكون **أنا** — كم بوتقة لا غربالاً. ولا بدّ لكم اذ ذاك من روح الفهم .

من اجل ذلك اقول لكم : اذا ما صليتم على الاطلاق فاطلبوا روح الفهم اولاً وآخراً .

اياكم والغربلة يا رفاقي . لأن كلمة الله هي الحياة . والحياة بوتقة كل ما فيها وحدة لا تتجزأ ، وحدة متوازنة ابداً وخليقة بالثالوث المقدس مبدعها. أفليست خليقة بكم ؟

اياكم والغربلة يا رفاقي . فمتى اقلعتم عنها وجدتموكم متغلغلين في كل شيء ، ومحتضنين كل شيء ، ورأيتموكم عمالقةً لا تسع الواحد منهم كل غرابيل الأرض .

اياكم والغربلة يا رفاقي. اطلبوا اولاً معرفة **الكلمة** كيما يتاح لكم ان تعرفوا كلمتكم . فانتم اذا ما عرفتم كلمتكم ألقيتم بغرابيلكم في النار . لأن كلمتكم وكلمة الله واحدة . ولا فرق إلاّ ان كلمة الله سافرة وكلمتكم ما تزال محجبة .

ومرداد يريدكم ان تطرحوا الحجُب جانباً .

ان كلمة الله هي الزمان ما قيس بزمان ، والمكان ما حُدّ بمكان . فما لكلمتكم محصورة في حظيرة من الروزنامات والاميال ؟ أكان زمان ما كنتم فيه مع الله ؟ أهنالك مكان لستم فيه في الله ؟ فما بالكم تقيدون الأزلية والأبدية بسلاسل من الساعات والفصول ، وتزربون الفضاء في زرائب من القراريط والأشبار ؟

كلمة الله هي الحياة لم تولد ولذلك لا تموت . فما لكلمتكم تحاصرها الولادة من جانب والموت من جانب ؟ أليس انكم تحيون بحياة الله لا غير ؟ فكيف لمن لا يعرف الموت ان يكون ينبوع الموت ؟

كلمة الله واحدة شاملة . لا سدود فيها ولا سياجات . فما لكلمتكم تمزقها السدود والسياجات ؟

حقاً انكم لعاجزون ، ايها الرهبان ، عن ان تقيموا سداً واحداً ما بين انفسكم وبين اقل المخلوقات . واذا ما توهمتم العكس خدعتم انفسكم لا غير .

اقول لكم ان لحومكم وعظامكم ليست لحومكم وعظامكم وحدكم . فمن ذا بامكانه ان يحصي الأيدي التي تغمس مع ايديكم في قصَع السموات والأرضين حيث تتناولون لحومكم وعظامكم والى حيث تردونها عاجلاً او آجلاً ؟

لا ولا النور الذي في عيونكم هو نوركم وحدكم . بل هو نور كل ما شاركم في الشمس من الكائنات . وماذا عسى لعينكم ان تبصر من وجهي لولا النور الذي على وجهي ؟ انما النور الذي على وجهي يبصرني في عيونكم . وانما النور الذي على وجوهكم يبصركم في عينيّ . فلو كنت ظلمة دامسة لما كانت عيونكم ، اذ تنظر اليّ ، إلاّ ظلمة دامسة .

لا ولا الانفاس التي في صدوركم انفاسكم وحدكم. انما تتنفس في صدوركم كل الكائنات التي تنفست الهواء من قبل او تتنفسه في هذه الساعة . أليس ان نَفَس آدم ما يزال ينفخ رئاتكم ، وقلب آدم ما يزال ينبض في قلوبكم ؟

لا ولا الأفكار التي في رؤوسكم افكاركم وحدكم. ان هي إلاّ قطرات من بحر الفكر العالمي . فلكل ذي فكر شركة في ما تفكرون .

لا ولا الأحلام التي تحلمون احلامكم وحدكم . انما المسكونة باسرها تحلم في ما تحلمون .

لا ولا البيت الذي تسكنون بيتكم وحدكم. انما هو بيت ضيفكم كذلك ، وبيت الذبابة ، والفأرة ، والهرة ، وغيرهن من المخلوقات التي تشاطركم سكناه.

فاحذروا ، اذن ، السياجات . لانكم انما تسيّجون الوهم والباطل. اما الحقيقة فتهملونها خارجاً . وعندما تفتشون عن انفسكم داخل السياج لا تجدون غير الموت ، الذي ليس سوى اسم آخر للوهم .

غير منفصل هو الانسان عن الله ، ايها الرهبان ؛ وغير منفصل عن اخوانه الناس ولا عن اي مخلوق من المخلوقات المنبثقة من **الكلمة** .

وما انتم سوى مقاطع في **كلمة** الله ذات المقطع الواحد . فلا حياة

لكم إلا منها .

انما **الكلمة** كالبحر وانتم كالسحاب . أتكون السحابة سحابةً إلا بما احتوته من البحر ؟ فما احمقها تنفق حياتها سدًى وهي تحاول ان تسمّر ذاتها في الجلد لتحتفظ بشكلها وذاتها الى الأبد! وماذا عساها تجني من محاولتها الرعناء غير خيبة الامل ومرارة الاندحار ؟ وهي لو فكّرت يوماً لادركت انها ما لم تخسر نفسها لن تجدها. فما لم تمت وتضمحل كسحابة لن تجد في ذاتها ذلك البحر الذي لا ذات لها إلاّ منه .

وانما الانسان سحابة تحمل الله . فما لم يُفرغ الانسان ذاته لن يجد ذاته . فيا لفرح الفارغين من انفسهم !

ما لم تضيعوا ذواتكم في **الكلمة** لن تفهموا الكلمة التي هي انتم – لن تفهموا قولكم **انا**. فيا لفرح الضائعين !

وها انا اقول لكم ثانية : صلّوا ليكون لكم **الفهم** . فحالما يدخل الفهم القدوس قلوبكم لا يبقى في فضاء الله الذي لا يُحدّ ولا مخلوق لا يهتز بكم طرباً كلما قلتم **انا** .

وعندئذٍ يصبح الموت نفسه سلاحاً في ايديكم تقهرون به الموت . وعندئذٍ تمنحكم الحياة مفتاح قلبها الفسيح – مفتاح المحبة الذهبي .

**ميكايون** : أيأتي ذلك الزمان يا مرداد ؟

**مرداد**

الزمان لا يأتي ولا يروح يا ميكايون . فهو ليس هنا ولا هناك. الغد لا يشرق على العائشين في الأمس . والامس ميت للذين يرقبون مجيء الغد .

عندما يصبح في مستطاعك يا ميكايون، ان تقول **انا** وتعني بها نروندا كذلك حينئذ تكون قد اقتربت جداً من محجتك .

**شمادم :** ما حلمت قط ان مثل هذا القدر من الحكمة يمكن عصره من خرقة تنظيف القِصَع ومن المكنسة ( مشيراً الى رتبة مرداد كخادم ) .

**مرداد** كل ما في الكون يفيض حكمةً للحكيم . اما الجاهل فيجعل الحكمة جهلاً .

**شمادم :** انت ذو لسان ذرب ولا شك. ومن العجب انك لجمته حتى الآن . لكن كلماتك ثقيلة على السمع .

**مرداد** كلماتي خفيفة يا شمادم . لكنما الثقل في اذنيك . والويل لمن يسمعون فلا يسمعون . والويل لمن يبصرون فلا يبصرون .

**شمادم :** اني لأسمع وابصر كل ما يُسمَع ويُبصَر . لكنني لا اريد ان اسمع صفاقةً تجعل مرداد مماثلاً لشمادم ، اي تجعل السيد والخادم سِيَّين .

•

# الفصل السادس

في الخادم والمخدوم . الرفاق يدلون بآرائهم في مرداد

**مرداد** ليس مرداد الخادم الأوحد لشمادم . اتستطيع يا شمادم ان تحصي خدامك ؟ اني الكون نسر ام عقاب ؛ ام ارزة ام سنديانة ؛ ام طود ام كوكب ؛ ام بحر ام محيط ؛ ام ملاك ام مَلِك لا يخدمون شمادم ؟ اليس العالم باسره في خدمة شمادم ؟

لا ، وليس مرداد السيد الاوحد لشمادم . اتستطيع يا شمادم ان تَعدّ اسيادك ؟

اهناك جُعَل ام قملة ؛ اهناك بومة ام غراب؛ اهناك شوكة ام حسكة؛ اهناك حصباء ام صدَفة ؛ اهناك بركة ام قطرة ندى ؛ اهناك لص ام شحّاذ إلاّ يخدمهم شمادم ؛ اليس شمادم في خدمة كل ما في الكون ؟

فالكون اذ يعمل عمله انما يتمم عملك ايضاً . وانت اذ تعمل عملك انما تتمم عمل الكون كذلك .

اجل . ان الرأس لسيّد البطن . لكنما البطن ليس باقلّ سيادة على الرأس .

ليس في امكان شيء ان يَخدُمَ من غير ان يُخدَم بخدمته . ولا ان يُخدَم من غير ان يَخدم ما يخدمه .

اقول لك يا شمادم وللكل انّ الخادم هو سيد السيّد . وان السيّد هو خادم الخادم . فليحذر الخادم من ان يطأطىء رأسه . وليحذر السيد من ان يرفعه عالياً . بل على السيد ان يسحق ما فيه من كبرياء السيادة المميتة . وعلى الخادم ان يقتلع ما فيه من جذور الانسحاق الشائن .

اذكروا ان **الكلمة** واحدة . وانكم ، كمقاطع في **الكلمة** ، لستم في الواقع غير واحد . اذ ليس من مقطع أنبل من مقطع او اكثر اهمية منه . فما المقاطع بكثرتها الا مقطع واحد هو **الكلمة** . وانتم لا بد لكم من ان تصبحوا كلمات من مقطع واحد اذا ما شئتم ان تتذوقوا النشوة التي تفوق كل نشوة – نشوة محبة الذات التي هي محبة لكل الناس ولكل شيء .

ان من كانت كلمته مقطعاً واحداً تمكن حقاً من ان يكون سيّداً . لانه سيد نفسه . ومن كان كذلك تنافست الارض والسماء في قضاء رغباته . الاّ ان من كانت تلك سيادته لا يبصر ذاته يوماً سيّداً .

وها انا الآن اكلمك يا شمادم لا مثلما يكلم السيدُ خادمَه او الخادمُ سيّدَه . بل مثلما يكلم الاخ اخاه . فعلامَ اضطرابك من كلماتي ؟

انكرني اذا شئت . امّا انا فلن انكرك البتة . اما قلت منذ هنيهة ان اللحم الذي على عظامي ليس غير اللحم الذي على عظامك ؟ فكيف لي ان اطعنك من غير ان ادمي نفسي ؟ لذلك اقول لك : اغمد لسانك اذا ما شئت ان تحقن دمك . وافتح لي قلبك اذا ما شئت ان توصده ضدّ الآلام بانواعها .

خير للانسان لو كان بغير لسان من ان يكون ذا لسان كل كلمة من كلماته احبولة او مِسلّة . وكلمات الناس ستبقى احابيل لهم ومسلات الى ان يُطهّر الفهم ألسنتهم ويجعل من كلماتهم المتعددة المقاطع كلمةً ذات مقطع لا غير.

فنشوا قلوبكم ، ايها الرهبان ، واهدموا كل ما فيها من سدود وفواصل. وانزعوا القمط التي ما تزال **انا** – كُم مقمطة بها كيما تبصروها مقطعاً واحداً ، مماثلاً لكلمة الله ومسالماً لكل ما ينبثق منها من الكائنات .

هكذا علّمت نوحاً .

وهكذا اعلمكم .

**نوندا** : وانقطع مرداد عن الكلام ثم انسحب الى مخدعه تاركاً الرفاق في حيرة لا توصف . وبعد فترة من السكوت المرهق اخذ الرفاق يتفرقون الى مخادعهم وكلٌّ منهم يعطي خلاصة رأيه في مرداد .

**شمادم** : انه لمتسول يحلم بتاج الملك .

**ميكايون** : هو التاسع المنتظر . الم يقل : هكذا علّمت نوحاً ؟

**أبيمار** : بكرة من الخيوط المعقدة .

**مِيكاستر** : كوكب من جَلَد غير جلدنا .

**بنون** : ان فكره لجبّار لكنه ضائع في المتناقضات .

**زَمُورا** : قيثار عجيبة مدوزنة بمفتاح لا علم لنا به .

**هِمبال** : كلمة تائهة تفتش عن أذنٍ صديقة .

## الفصل السابع

ميكايون ونروندا يتسللان ليلاً الى مخدع مرداد ويستفسرانه عن نفسه .
مرداد يلمح لهما عن الطوفان المقبل ويدعوهما الى اتخاذ الاهبة لمجابهته

**نروندا** : نحو الساعة الثانية من الهزيع الثالث من ذلك الليل سمعت بابي يُفتح واذا بميكايّون يخاطبني همساً :

« هل انت مستيقظ يا نروندا ؟ »

« إن النوم ما زار مخدعي في هذه الليلة يا ميكايّون . »

« ولا عشش في اجفاني . وهو — اتظنه نائماً ؟ »

« اتعني المعلم ؟ »

« اتدعوه معلماً منذ الآن ؟ لعله كذلك . اما انا فقد فقدت راحتي ولن استعيدها حتى اعرف من هو . فهيا بنا اليه في هذه الدقيقة . »

وانطلقنا نجس الارض باقدامنا جساً حتى بلغنا مخدع مرداد . فالفينا الباب مفتوحاً . واذ ولجناه ما ابصرنا غير فراش حقير ممدود بلباقة في وسط الغرفة وما من نائم عليه غير قبضة من اشعة القمر تسلّلت اليه من طاقة في اعلى الحائط . وكان جليّاً ان ذلك الفراش لم يأوِ اليه احد في تلك الليلة .

فوقعنا في اكبر حيرة من امرنا ، وشعرنا بخجل وخيبة عظيمين ، واوشكنا ان نرجع ادراجنا عندما طرق آذاننا بغتةً صوته اللطيف ورأينا طلعته البهية في الباب .

**مرداد** لا تضطربا ، واجلسا في سلام . ها هو الليل يذوب سراعاً في اجران الفجر . فما احلاها ساعة للذوبان !

**ميكايون** : ( مضطرباً متلعثماً ) اغفر لنا هذه القحة . فنحن ما عرفنا النوم كل هذا الليل .

**مرداد** ما النوم الا جرعة ضئيلة – وضئيلة جداً – من نسيان النفس. وخيرٌ لكم ان تغرقوا في الذهول عن النفس وانتم في اليقظة من ان تحتسوه حسواً باقماع من النوم . ماذا عساكم تبتغون من مرداد ؟

**ميكايون** : جئناك لنعرف من انت .

**مرداد** انا مع الناس إله . ومع الله انسان . هل عرفت الآن مَنْ انا يا ميكايون ؟

**ميكايون** : إن في كلامك لتجديفاً على الله .

**مرداد** قد يكون تجديفاً على اله ميكايون . اما على اله مرداد فلا .

**ميكايون** : ألعلّ الله كثرة، وعدد الآلهة كعدد الناس، حتى تتكلم عن اله لميكايون واله لمرداد ؟

**مرداد** ليس الله كثرة يا ميكايون. انما الله واحد. لكن ظلال الناس ما تزال كثرة متفاوتة الاشكال والانواع. فما دام الانسان يطرح

ظلّاً على الارض دام الهه موازياً لظلته . من كان نوراً صافياً كان بغير ظلّ .
ذلك وحده يعرف الاله الاوحد. لان الله نور. وليس يعرف النور الاّ النور.

**ميكايون** : لا تكلمنا بالاحاجي . ففهمنا ما يزال ضعيفاً جداً.

**مرداد** كل ما في الكون احجية للانسان الذي يجرّ خلفه ظلاً . لان ذلك الانسان يسير في ضوء مستعار . ولذلك يتعثر بظلّه . اما الانسان الملتهب بنار الفهم فلا ظلّ له على الاطلاق .

عمّا قريب سيجمع مرداد ظلالكم ويحرقها في الشمس . وعندها ينبلج عليكم نور الحق فتبدو لكم كل الاحاجي حقائق ساطعة لا تحتاج الى برهان .

**ميكايون** : الا كشفت لنا عن نفسك واخبرتنا من انت ؟ فلعلنا، اذا ما عرفناك باسمك الحقيقي، وعرفنا ابن من انت ومن اي البلاد، تمكنّا من ان نفهمك من غير ان نلاقي ما نلاقيه الآن من العناء في فهمك .

**مرداد** آه ، ميكايون ، ميكايون ! انه لأيسر لك ان تزجّ نسراً في قشرة البيضة التي نقف منها من ان تكبّل مرداد بسلاسل الناس وتحجبه بحُجبهم . فايّ اسم عساه يَستطيع ان يدل على انسان لم يبقَ بعدُ « في القشرة » ؟ واي بلدٍ عساه ان يسع الانسان الذي يسع مسكونة ؟ واي نسب لانسان لا ينتسب الاّ الى الله ؟

اذا ما شئت يا ميكايون ان تعرفني حق المعرفة فاعرف اولاً ميكايون.

**ميكايون** : لعلك شبح من الاساطير في شكل انسان .

**مرداد** اجل. سيأتي يوم يقول فيه الناس ان مرداد ما كان غير اسطورة من الاساطير . لكنكم ستعرفون قريباً ان هذه الاسطورة

لأصدق من كل حقيقة محسوسة عرفها الناس .

ان العالم لا يفكّر اليوم بمرداد . اما مرداد فيفكر ابداً بالعالم . وقريباً سينصرف العالم بافكاره الى مرداد .

**ميكايون** : ألعلك تاسع الرفاق الذي اندسّ خلسة في الفلك ؟

**مرداد** اني لأندسّ في كل فلك تناضل ضدّ طغيان الاوهام . واني لأنجد كل ربّان يستنجدني فآخذ الدفّة من يده . ولكَم سمعت قلوبكم تصرخ اليّ عن غير معرفة منكم . فها أنذا ! لقد جاءكم مرداد ليقودكم الى السلامة كيما يكون لكم ان تقودوا العالم الى السلامة من اعظم طوفان شهدت به ذاكرة الارض .

**ميكايون** : أطوفان آخر ؟

**مرداد** لا ليجرف الارض بالمياه ، بل ليكشف عن السماء في الارض . ولا ليمحو آثار الانسان ، بل ليظهر الله في الانسان .

**ميكايون** : ولكننا شهدنا قوس قزح في السماء منذ ايام قليلة . فكيف تكلمنا عن طوفان آخر ؟

**مرداد** ان الطوفان الذي احدثكم عنه ، والذي بدت طلائعه على الارض ، لأشدّ هولاً بما لا يقاس من طوفان نوح .

فأرضٌ مغمورة بالمياه لأرض حبلى ببشائر الربيع . ولكن ارضاً تُقلى بدمائها الفائرة لأرض رُدَّ كيدها الى نحرها .

**ميكايون** : اننتظر النهاية اذن ؟ فكتُبنا وتقاليدنا تعلّمنا ان مجيء **التاسع** يكون نذيراً بالنهاية .

مرداد

لا تجزعوا على الارض من الاندثار . فهي ما تزال في ميعة الشباب ، وضرعها ما يزال فياضاً . وهي ستُرضع بعدُ اجيالاً اكثر مما بامكانكم عدّه . لا ولا تجزعوا على الانسان من الفناء . فهو سيّد الارض ولن يفنى .

اجل . لن يمّحي الانسان . فهو ينبوع لا ينضب . وهو سيدخل المصهر انساناً ليخرج منه الهاً .

كونوا على حذر واستعدّوا . وافرضوا الصوم على اعينكم وآذانكم والسنتكم كيما تعرف قلوبُكُم ذلك الجوعَ المقدس الذي اذا ما اشبعتموه يوماً بقيتم شباعاً الى الابد .

عليكم ان تكونوا ابداً شباعاً كيما يتاح لكم ان تُشبعوا الجياع .

وعليكم ان تكونوا ابداً اقوياء كيما تسندوا الضعفاء والمتقلقلين .

وعليكم ان تتخذوا العدة الكاملة لمجابهة العاصفة كيما تكونوا ملجأ للذين شتّتتهم العواصف .

وعليكم ان تكونوا ابداً نيّرين كيما يستنير بكم السائرون في الظلام.

الضعيف عبء للضعيف . اما القوي فيحمل الضعيف كما يحمل الجبلُ الحصباءَ والبحرُ الساقيةَ . لذلك فتشوا عن الضعفاء . فمِنْ ضعفهم قوّتكم .

والمعوز لا يزيد المعوز الا إعوازاً . أما للملآن خيراً فليس المعوز غير منفذٍ جميل لما فاض من خيره . لذلك فتشوا عن المعوزين . فمن ضنكهم رخاؤكم .

والاعمى حجر عثرة للاعمى. أما للمبصر فهو المَعْلَم. لذلك فتشوا عن

العميان . فمن ظلمتهم نوركم .

**روندا** : عندها نفخ زمورا بالبوق يدعو الرفـاق الى صلاة السحر .

فقال مرداد :

مرداد

ها هو بوق زمورا يعلن نهاراً جديداً – بل عجيبة جديـدة . ونصيبها منكم لن يكون خـيراً من نصيب اسلافها . فانـتم ستقتلونهـا بالتثاؤب مـا بين نهوضكم وجلوسكم ، وبين حشوِ امعـائكم وتفريغهـا ، وارهـاق السنتكم بالكلام البطال ، وعملكم اعمالاً كثيرة كان خيراً ألاّ تُعمل ، واهمالكم أخرى كان من الواجب ان تُعمل .

**ميكايون** : انتهانا اذنْ عن الذهاب الى الصلاة ؟

مرداد

بل اذهبوا ! صلّوا كما عُلّمتم ان تصلّوا . صلّوا كيفما كان ومن اجل اي شيء كان . اذهبوا ! واعملوا كل ما أُمرتم ان تعملوه ريثما تصبحون معلّمين لانفسكم واسياداً لها . وريثما تتعلمون ان تجعلوا من كل كلمة صلاة ومن كل عمل ذبيحة . اذهبوا بسلام . فعلى مرداد ان يهتم الآن بفطوركم كيما يكون طيباً ووافراً .

•

# الفصل الثامن

السبعة يجتمعون بمرداد في وكر النسور حيث ينهاهم عن التستر بالظلام

**نوروندا :** في ذلك الصباح تخلّفتُ وميكايون عن الصلاة . فما خفي ذلك عن شمادم . ولا خفي عنه امر زيارتنا في الليل لمرداد . فامتعض اشد الامتعاض ، الا انه ستر امتعاضه عن الجميع الى ان يتاح له ظرف آخر .

اما بقية الرفاق فما اخفوا دهشتهم لصنيعنا ولا رغبتهم في الوقوف على الأسباب التي حملتنا عليه . فظن البعض ان المعلم هو الذي نهانا عن الصلاة . وتحزّر البعض عمّن عساه ان يكون قائلين انه دعانا اليه في سكينة الليل ليعلن نفسه لنا وحدنا . وما منهم من صدّق ان مرداد هو **التاسع المنتظر** . إلاّ ان كل واحد منهم كان يشتهي ان يراه وان يسأله عن امور كثيرة .

وكان من عادة المعلم ، عندما يفرغ من قضاء واجباته في الفلك ، ان يمضي ساعاته في الكهف الذي على شفير الهاوية والذي كان معروفاً فيما بيننا باسم « وكر النسور » . فطلبناه هناك بعد ظهيرة ذلك اليوم – كلنا ما خلا شمادم – ووجدناه غارقاً في بحر من التأمل . وكان وجهه مشرقاً بنور سماوي فازداد

اشراقاً عندما رفع عينيه الينا وخاطبنا قائلاً :

**مرداد** سرعان ما اهتديتم الى وكركم ! ان مرداد لَفَرِح من اجلكم .

**ايمار :** انما الفلك وكرنا . فكيف تقول ان هذا الكهفَ هو وكرنا ؟

**مرداد** لقد كانت الفلك وكر نسور فيما مضى .

**ايمار :** واليوم ؟

**مرداد** اما اليوم فهي ، ويا للأسف ، نفق للمناجذ .

**ايمار :** لثمانية من المناجذ تاسعها مرداد !

**مرداد** ما اسهل ان يسخر الانسان بما لا يفهم وما اصعب ان يفهم ! لكنما السخرية ما سخرت يوماً بغير الساخر . فعلامَ تروّض لسانك بالباطل يا ايمار ؟

**ايمار :** انما تسخر انت بنا عندما تدعونا مناجذ . فماذا رأيت منّا لتنعتنا بمثل هذا النعت ؟ أليس اننا حفظنا نار نوح من الانطفاء ؟ أليس اننا جعلنا من هذه الفلك – وما كانت في سالف الحقب غير مغارة تأوي اليها حفنة من الشحاذين – أليس اننا جعلنا منها قصراً اغنى من اي قصر لأيِّ ملك ؟ ألم نطوّل المسافات ما بين حدودها فاذا بها مملكة مهابة الجانب مترامية الاطراف؟ ان نكن مناجذ ففضلنا ، في الاقل ، اننا نجيد الحفر .

اجل. ان نار نوح لتشتعل حتى اليوم. ولكن على المذبح لا غير. فما نفعكم منها ما لم تكونوا المذبح وقلوبكم الزيت والوقود؟

اجل . ان الفلك لمثقلة اليوم بكثير الفضة والذهب . ولكنها تئن من ثقلها وتصطفق امعاؤها فتوشك ان تغرق . بينا الفلك الأمُّ ما كانت مثقلة الا بالحياة ، ولا كانت تحمل اثقالاً لا خير في حملها . ولذلك عجزت اللجّة عن ان تنالها بأذى .

احذروا الاثقال التي لا خير في حملها يا رفاقي . ولا خير في اي ثقل للانسان الذي يؤمن ايماناً وطيداً بألوهيته . لانه يحمل العالم كله في ذاته من غير ان يحمل اثقاله .

اقول لكم انكم ما لم تطرحوا بذهبكم وفضتكم في البحر جرّاكم معهما الى القاع . لان الانسان مملوك ما يملك. فان شئتم الا ّ تكونوا مملوكين فاعتقوا ما في قبضتكم لتنعتقوا من قبضته .

لا تقيموا ثمناً لشيء . فاحقر الاشياء اغنى من ان يثمّن . وها انتم تجعلون للرغيف من الخبز ثمناً. فما بالكم لا تجعلون ثمناً للشمس والهواء والبحر والتراب ، ولعرق الانسان وفطنته التي لولاها لما كان الرغيف ؟

لا تقيموا ثمناً لشيء لئلا تقيموا بذلك ثمناً لحياتكم . وحياة الانسان ليست باغلى لديه من الأشياء التي يعتبرها غالية. فاحذروا من ان تجعلوا حياتكم رخيصة كالذهب .

ولقد بعّدتم المسافات ما بين حدود الفلك . ولو انكم جعلتم حدود الأرض حدودكم لبقيتم ، مع ذلك ، في عزلة السجون . اما مرداد فيريدكم ان

تمنطقوا اللانهاية .

انما البحر قطرة من الماء تحضنها الارض. ولكنها قطرة تمنطق الارض.
واين البحر من الانسان — ذلك المحيط الذي لا شواطىء له ؟ فلا تكونوا اغبياء الى حد ان تقيسوه من رأسه الى اخمصيه وتقولوا انكم قد وجدتم حدوده.

قد يكون انكم تجيدون الحفر ، كما قال ابيار . ولكن كما تجيده المناجذ التي لا تنفك تدأب في الظلام . فهي كلما تعددت أنفاقها وتشعبت مسالكها ابتعدت بوجوهها عن الشمس .

اني لأعرف أنفاقكم يا ابيار . فما انتم ، على حد قولك ، الا حفنة من الرجال المنقطعين ، في الظاهر ، عن كل ملذات العالم وتجاربه ، والمكرّسين لله . لكن الشعاب التي تصلكم بالعالم لَشِعاب ملتوية ، مظلمة . وما اكثرها ! أتظن اني لا اسمع فحيح شهواتكم في ثوراتها ! ام تظن اني لا ابصر أجسادكم تدبّ وتتلوّى حتى على مذبح الاله الذي تعبدون ؟ قد لا تكونون الا حفنة . ولكن يا لها من حفنة حوت جيوشاً جرارة !

لو كنتم تجيدون الحفر حقاً، لثقبتم الى الآن طريقاً لكم ليس من خلال الارض فحسب ، بل من خلال الشمس وكل كوكب من الكواكب الهائمة في الفضاء .

دعوا المناجذ تحفر أنفاقها في الظلام بالمخالب والقواضم . اما انتم فلا تحتاجون حتى الى رفة جفن لتجدوا طريقكم الملكية . فما عليكم ، وانتم جلوس في هذا الوكر ، إلاّ ان توسلوا الخيال امامكم . فهو دليلكم الرباني الى الكنوز العجيبة المخبوءة في الكيان اللامتناهي الذي هو ملكوتكم . ألا

اتبعوا دليلكم بقلوب صامدة لا تعرف الوجل . وحيثما عثرتم على آثار قدميه، وإن في أقاصي الافلاك ، فلتكن برهاناً قاطعاً لكم بان جذوركم ممتدة هنالك . لانكم يتعذر عليكم ان تتخيلوا ما ليس فيكم او ليس بعضاً منكم .

لا تستطيع الشجرة ان تمتد بأغصانها أبعد من مدى جذورها . اما الانسان فيمتد الى اللانهاية لان جذوره في الازلية والابدية .

لا تقيموا لأنفسكم تخوماً . بل تمددوا الى ان لا يبقى في الكون من ارجاء لستم فيها . تمددوا الى ان يصبح العالم كله حيثما يتفق لكم ان تكونوا . تمددوا الى ان تلاقوا الله حيثما لاقيتم انفسكم . تمددوا ! تمددوا !

لا تعملوا في الظلام اعتقاداً منكم ان الظلمة ستار لا ينفذ البصر من خلاله . فأنتم ان لم تخجلوا من الناس الذين تسلبهم الظلمة ابصارهم فاخجلوا ، في الاقل ، من الحباحب والخفاش .

ليس من ظلمة خالصة يا رفاقي . بل هناك درجات من النور . فلكل صنف من المخلوقات درجة تفي بحاجاته ، ان زادت عنها اعمته ، او نقصت اعمته كذلك . فرابعة النهار عندكم ليست غير فجر للفينقس . ونصف الليل عندكم كرابعة النهار للضفدع . فكيف للظلمة ان تكون غطاءً لشيء وهي ذاتها في حاجة الى غطاء ؟

احذروا من ان تُغطّوا شيئاً من الاشياء او عملاً من الاعمال . لانه ان لم يَبُح احدٌ باسراركم باح بها غطاؤها . أليس ان غطاء القِدر يعرف ما في القدر ؟ فيا لويل القدور الملأى ديداناً وأفاعي عندما تُرفع عنها الأغطية !

اقول لكم إنّ نَفَساً لا يبرح صدوركم إلاّ يذيع للهواء كل خفية في

صدوركم . وإن نظرة ما انطلقت من عيونكم إلاّ حملت كل ما في عيونكم من شهوات ومخاوف ، ومن عبرات وابتسامات . وان حلماً ما طرق بابكم إلاّ طرق كل باب .

لذلك اهتمّوا لأنفاسكم بماذا تشحنونها ، ولنظراتكم ماذا تحمّلونها ، ولأبوابكم في وجه اي الاحلام توصدونها ولأيّها تفتحونها .

اما اذا شئتم ان تحيوا بغير همّ ولا ألم ، فمرداد يدلّكم على الطريق .

# الفصل التاسع

طريق الخلاص من الألم . الرفاق يودون
ان يعرفوا ما اذا كان مرداد هو التاسع المنتظر

**ميكاستر** : أرنا الطريق .

مرداد هذا هو طريق الخلاص من الهمّ والألم :

**فكّروا كما لو كانت افكاركم منقوشة بأحرف من نار على صفيحة الجلَد حيث تبصرها وتقرأها جميع الكائنات . وانها في الواقع لكذلك .**

**وتكلموا كما لو كان العالم كله أذناً واحدة مصغية الى ما تقولون . وانه في الواقع لكذلك .**

**واعملوا كما لو كان كل عمل من اعمالكم سيرتدّ بنتيجته اليكم . وانه في الواقع لكذلك .**

**وتمنّوا كما لو كنتم الأمنية التي تتمنون . وانكم في الواقع لكذلك .**

**واحيوا كما لو كان ربكم في حاجة الى حياتكم ليحيا هو حياته. وانه في الواقع لكذلك .**

**همبال :** حتى مَ تتستر عنا وتزيد في حيرتنا ؟ فانت تكلمنا بما لم يكلمنا بمثله رجل او كتاب من قبلك .

**بنّون :** اعلن نفسك لنعرف بأية اذن يتوجب علينا ان نسمعك . ان تكن **التاسع المنتظر** فاعطنا آية لنؤمن .

مرداد احسنتَ يا بنّون اذ قلتَ ان لكم آذاناً كثيرة . ولذلك لا تسمعون . فلو كنتم باذن واحدة تسمع وتعي ما تسمع لما كنتم في حاجة الى آية .

**بنّون :** ان **التاسع المنتظر**، حسبما تعلّمنا تقاليدنا ، سيأتي ليدين العالم . ونحن ، رفاق الفلك ، سنجلس معه على منصة الدينونة . أنبدأ منذ الآن باعداد العدّة ليوم الدين ؟

# الفصل العاشر

## في الدينونة ويوم الدين

**مرداد** لا دينونة في فمي . بل في فمي فهم مقدس. فأنا ما جئت لادين العالم ، بل بالأحرى لأرفع عنه الدينونة . اذ ان الجهل وحده فَخُورٌ بِجُبَّة القضاء وولوع بشرح القانون وانزال العقوبات بالناس . والجهل يدين ذاته بذاته . وليس أقسى من الجهل ديّاناً للجهل .

ألا اعلموا ان ليس هنالك إله و انسان . بل هنالك الاله ـ الانسان والانسان ـ الاله . هنالك الواحد الذي مهما تكرر أو تجزأ بقي أبداً واحداً . واحد هو الله . ووحدته هي الناموس الأزليّ الأبديّ الذي لا ناموس إلاّه . وهو ناموس يتمم ذاته بذاته فلا يحتاج الى محاكم ، ولا الى قضاة ، لاعلانه وللذود عن هيبته . فما المسكونة بكل ما فيها من منظور وغير منظور سوى فمٍ واحد يشهد به لكل من له آذان سامعة .

أليس البحر بكل ما فيه من مدى قطرة واحدة ؟ أليست الأرض، على اتساعها ، جرماً واحداً ؟ أليست الأجرام كلها، على كثرتها ، مسكونة واحدة ؟ كذلك ليست الانسانية ، رغم كثرة أفرادها ، غير انسان واحد ـ و كذلك

ليس الانسان بكل ما فيه من عوالم سوى وحدة كاملة .

ان وحدة الله يا رفاقي هي ناموس البقاء الأوحد . واسمها الآخر هو المحبة.من عرف ذلك الناموس وعاش به عاش للحياة . ومن جهله وعاش بغيره عاش لعدم الوجود او للموت .

الحياة جمع . والموت تفرقة . والحياة ربط . والموت حلّ . لذلك كان الانسان المزدوج معلقاً بين الاثنين . فهو لا يجمع حتى يفرّق.ولا يربط إلا يحلّ . وهو بما يجمعه ويربطه يعيش ضمن الناموس . فتكون الحياة ثوابه . وهو بما يفرّقه ويحلّه يعيش مخالفاً للناموس . فيكون الموت جزاءه الأمَرّ .

وها أنتم ،وقد حكمتم على أنفسكم بالموت ، لا تتورعون من أن تجلسوا على منصة القضاء لتدينوا الذين قد حكموا على أنفسهم بالموت نظيركم. فيا لفظاعة الحكم والحكام !

انه لأقل فظاعةً لاثنين معلّقين على مشنقة واحدة ان يحاكم كل منهما رفيقه فيحكم عليه بالشنق . او لثورين تحت نير واحد ان يقول واحدهما للآخر : اني أحكم عليك بالنير . أو لجيفتين في قبرٍ واحد ان تحكم كل منهما على جارتها بالقبر. أو لأعميين سائرين في طريق واحدة أن يفقأ كل منهما عينَيْ رفيقه .

اجتنبوا التربّع في دسوت الحكم يا رفاقي . لأنكم إذا ما شئتم ان تعدلوا في أي حكم على اي انسان او شيء كان لزاماً عليكم لا ان تعرفوا الناموس وتعيشوا بمقتضاه فحسب ، بل ان تفتشوا عن البيّنة وتمحّصوها . فمن او ماذا عساكم ان تطلبوا للشهادة في قضية مطروحة بين أيديكم ؟

ألعلكم ترسلون مذكرة جلب الى الهواء ؟ والهواء شريك في كل ما يجري تحت قبة السماء . فان لم تسمعوا شهادته كان حكمكم باطلاً . ام لعلكم تنزلون الكواكب من فضائها وتسوقونها الى المحكمة ؟ وللكواكب يدٌ في كل ما يحدث في العالم . ام لعلكم ترسلون قواكم المسلحة لجلب الموتى من آدم حتى اليوم ؟ فلكل ميت صلة وثيقة بكل حيّ .

ليست الشهادة شهادة وافية صادقة ما لم تكن مستقاة من كل مصادرها . ومصدر كل شهادة هو الكون بأسره. اذن فادعوه الى محكمتكم كيما تعدلوا في احكامكم . لكنكم يوم يصبح في امكانكم ان تجلبوا الكون كله للشهادة تنزلون عن منصة الحكم من تلقاء انفسكم لتُجلسوا عليها الشاهد .

انكم يومَ تعرفون كل ما يعرفه الكون تعدلون عن اصدار حكمكم على اي شيء في الكون . ويوم يصبح في امكانكم ان تجمعوا العوالم تحجمون من تلقاء أنفسكم عن ان تدينوا حتى الذين دأبهم التفرقة . وبدلاً من ان تدينوا الذين قد قضوا على أنفسهم بالموت تسعون جهدكم لانقاذهم من الدينونة .

أما ترون الانسان يرزح تحت الاعباء التي خلقها لنفسه ؟ اما ترون طريقه ما أشقه وما أكثر تعاريجه ؟ فاعلموا ان كل حكم يصدره انسان على انسان هو عبءٌ جديد للحاكم وللمحكوم عليه بالسواء . فان شئتم ان تخففوا من اعبائكم ، احذروا من ان تدينوا أحداً . او شئتم ان تتلاشى أثقالكم فتلاشوا انتم كذلك في **الكلمة** . ليكن الفهم قائداً لخطاكم اذا ما شئتم ان يكون طريقكم سهلاً ومستقيماً .

ما جئتكم بالدينونة في فمي بل جئتكم **بالفهم المقدس** .

**بنون** : وماذا تقول في يوم الدين ؟

**مرداد** كل يوم يا بنّون هو يوم دين . فلكل كائن حسابه . وهو يحاسب ذاته في كل لحظة من وجوده . والذي هو فيه الآن هو صافي حسابه منذ الأزل حتى الآن . فلا يضيع منه شيء . ولا يبقى شيء بغير وزن .

ليس من فكر ، او عمل ، او امنية إلاّ يسجّلها المفكّر والعامل والمتمني في ذاته . ولا من فكر او عمل او امنية عاقر في العالم . بل كلها يحبل ويلد من جنسه . فما كان منها مجارياً للناموس ضمّه الناموس الى الحياة . وما كان مغايراً ضمّ الى الموت .

ان ايامك يا بنّون ، وان تشابهت ، ليست سواء . فبعضها صافٍ وصفاؤه هو حصاد الساعات التي عشتها وفقاً للناموس . وبعضها يكتنفه الضباب والسحاب . فهو هديّة ساعاتٍ نصفها غافل في الموت ونصفها مستيقظ في الحياة . بيد ان البعض الآخر يُغير عليك على صهوة عاصفة هوجاء ، حاملاً البرق في عينيه ، والصاعقة في منخريه . فيصفعك من فوق ، ويلفحك بالسوط من اسفل ، ويوشق بك ذات اليمين وذات اليسار ، ثم يطرحك على الحضيض ويجعلك تعضّ التراب وتشتهي لو لم تولد . وهذا البعض من ايامك هو ثمرة الساعات التي انفقتها في معاندة الناموس عن معرفة وتصميم .

ومثلك بايامك مثل العالم بايامه . فالخيالات السود المارحة اليوم في رحاب السماء ليست بأقلّ هولاً من تلك التي جلبت الطوفان على الأرض فيما مضى . الا افتحوا اعينكم وانظروا .

ألستم تقولون ان المطر قريب عندما تبصرون الغيوم السود مسرعة نحو الشمال على متون رياح الجنوب ؟ فيا ليتكم كنتم حكماء في فهم مجاري الرياح البشرية مثلما انتم في فهم رياح الفلك ! ألعلكم لا تبصرون ولا تشعرون الى اي حدّ قد تعرقل الناس في شباكهم ؟

اما يوم التخلص من العراقيل فقد دنا . ويا لهوله من يوم ! فالناس ما فتئوا يحوكون شباكهم منذ اجيال لا تكاد تحصى . وهم يحوكونها من شرايين القلب والنفس . فلا بدّ لهم للخلاص منها من ان يقطّعوا نياط قلوبهم ، ويمزقوا لحومهم ، ويسحقوا عظامهم بايديهم .

يومَ تُرفع الاغطية عن القدور — ولا بدّ من ان تُرفع ؛ ويومَ تعطي القدور ما فيها — ولا بد من ان تعطيه — يومذاك اين يخبئ الناس رجاستهم ، وانّى عساهم يهربون ؟

في ذلك اليوم يحسد الأحياءُ الأمواتَ ، ويلعن الأمواتُ الأحياء . ويلتصق كلام الناس بحناجرهم ، ويتجمد النور على اجفانهم . وتخرج من قلوبهم ثعابين وعقارب فيصرخون من ذعرهم : « من اين هذه العقارب والثعابين ؟ » ناسين انهم آووها وربّوها في قلوبهم .

ألا افتحوا اعينكم وابصروا . ففي الفلك التي اقامها الصديقون في سالف الازمان منارةً للعالم المتخبط في الظلمة ، في هذه الفلك عينها اوحال يتعذر عليكم اليوم قطعها . ان تكن المنارة قد اصبحت شركاً ، فما عسى ان تكون حال المسافرين في البحر ؟

لكنّ مرداد سيبني لكم فلكاً جديدة . وهذه الفلك ستكون بحق منارةً

لكل من يفتش عن حرية الناموس السرمدي الذي هو ناموس الله . وانتم ستطيرون من هذا الوكر الى العالم حاملين اليه لا اغصان زيتون ، بل حياةً لا تنضب . ولذلك كان لا بدّ لكم من معرفة الناموس والسير بمقتضاه .

**زَمورا :** وكيف لنا ان نعرف ناموس الله ونسير به ؟

# الفصل الحادي عشر

المحبة هي ناموس الله . مرداد يرنم نشيد الفلك الجديدة

**مرداد** المحبة ناموس الله .

فأنتم ما حييتم إلا لتعرفوا المحبة . وانتم ما احببتم إلا لتعرفوا الحياة . تلك هي الامثولة التي عليكم ان تحفظوها ، والتي اذا ما حفظتموها كنتم في غنى عن كل امثولة سواها .

وهل المحبة إلا ان يندمج المحبُ بمحبوبه فيصبح الاثنان واحداً ؟

ومَن او ماذا عساه ينبغي لكم ان تحبوا ؟ أيكفيكم محبةً أن تختاروا ورقة واحدة على شجرة الحياة ثم ان تهرقوا عليها كل ما في قلوبكم من دماء ؟ اذن كيف بالغصن الذي يحمل تلك الورقة ؟ و كيف بالجذع الذي يحمل ذلك الغصن ؟ ام كيف بالقشرة التي يتدرّع بها ذلك الجذع ؟ ام بالجذور التي تغذي القشرة والجذوع والأغصان والأوراق ؟ ام بالتربة التي تحتضن الجذور ؟ بل كيف بالشمس والبحر والهواء التي تلقح التربة بلقاح الحياة ؟

ان تكن وُرَيقةٌ واحدة على الشجرة جديرةً بمحبتكم فأحرِ بالشجرة

كلها ان تكون جديرة بها .

ان محبةً تنحصر في جزء من الكل لمحبة تحكم على ذاتها بالعذاب المؤبد.

تقولون : « ولكننا الاوراق على الشجرة الواحدة تختلف بعضها عن بعض اعظم الاختلاف . فهنالك الورقة الصحيحة والورقة المريضة . وهنالك الجميلة والقبيحة . وهنالك الورقة العملاقة والورقة القزمة . فكيف لنا ألاّ نختار ونفضّل ؟ »

اقول لكم ان نضارة الصحيح ليست إلاّ من شحوب المريض. واقول لكم ان الشناعة ليست غير مرود الجمال وادهانه ولوحة ادهانه والفرشة التي يدهن بها الوانه . وان القزم ما كان قزماً لو لم يُقرض العملاقَ من قامته .

انتم شجرة الحياة . فاحذروا من ان تجزّئوا انفسكم . احذروا من ان تقيموا ثمرة ضد ثمرة ، او ورقة ضد ورقة ، او غصناً ضد غصن ، او ان تقيموا الجذع ضد الجذور ، او الشجرة ضد التربة الامّ . وذلك ما تفعلونه بالتمام عندما تحبون البعضَ اكثر من البعضِ الآخر ، او تحبون البعض وتهملون ما بقي.

انتم شجرة الحياة. جذوركم في كل زمان ومكان. وأغصانكم وأوراقكم في كل زمان ومكان . وثماركم في كل فم . ومهما تكن ثمار تلك الشجرة ؛ مهما تكن اغصانها واوراقها ؛ مهما تكن جذورها فهي ثماركم ، وهي اوراقكم واغصانكم ، وهي جذوركم . فان شئتم ان تحمل شجرتكم ثماراً شهية وعطرة ؛ او شئتم ان تبقى ابداً قوية ونضرة فاصرفوا همكم اولاً وآخراً الى العصير الذي به تغذون جذورها .

المحبة عصير الحياة . والبغضاء صديد الموت . لكننا المحبة لا تعيش ما

لم تجرِ عصارتها في العروق طليقة من كل قيد. فما اشبهها من هذا القبيل بالدم. فانتم حينما حقنتم مجرى من مجاري الدم حولتموه الى خطر اكيد ووباء قتال. وهل البغضاء غير محبة محقونة او مردودة عن مجراها تحولت الى سمّ زعاف للمبغِض والمبغَض بالسواء؟

ان ورقة صفراء على شجرة حياتكم ما كانت لتصفرّ لو لم تفطموها عن ثدي محبتكم. فلا تلوموا الورقة الصفراء.

وان غصناً ذاوياً ما كان ليذوي لو لم تحبسوا عنه غذاء المحبة. فلا تلوموا الغصن الذاوي.

وان ثمرة عفنة ما كانت لتتعفّن لو لم ترضعوها من صديد بغضائكم. فلا تلوموا الثمرة العفنة. بل الاحرى بكم ان تلوموا قلوبكم العمياء والشحيحة التي تؤثر ان توزع عصير الحياة بالتقتير على القليل وتحجبه عن الكثير غير عالمة انها تحجبه بذلك عن نفسها.

ما من محبة مستطاعة إلاّ محبة الذات. وما من ذات حقّة إلاّ ذات الله، التي هي الوجود بكامله. لذلك كان الله محبةً صافيةً لانه يحب ذاته.

ما دام لكم في المحبة عذاب دمتم بعيدين عن ذاتكم الحقة وعن مفتاح المحبة الذهبي. فانتم ما آلمتكم المحبة الاّ لأنكم تحبون ذاتاً موهومة تتغيّر وتتنقل كالظلّ. فمحبتكم موهومة وهي كذلك تتغيّر وتتنقّل كالظلّ.

ان محبة الرجل للمرأة والمرأة للرجل ليست بمحبة. إنْ هي الاّ رمز بعيد اليها. كذلك ليست محبة الوالدين للولد الاّ العتبة لهيكل المحبة الاقدس. فالى ان يصبح كل رجل حبيب كل امرأة والعكس بالعكس، والى ان يصبح

كل ولدٍ ولداً لكل والد والعكس بالعكس، دعوا الرجال والنساء يتبجّحون بانجذاب اللحم الى اللحم والتصاق العظم بالعظم من غير ان يتلفظوا باسم المحبة القدوس. لان في ذلك تجديفاً وكفراً.

من كان له عدوّ واحد كان بلا صديق واحد. اذ كيف للقلب الذي تسكنه العداوة ان يكون ميناءً امِيناً للصداقة ؟ كيف لمن في قلبه بغضاء ان يعرف نشوة المحبة ؟ فلو كان لكم ان تغذّوا جميع المخلوقات بعصير المحبة ما خلا دويدة واحدة حقيرة لكان لكم في تلك الدويدة وحدها ما ينغّص عليكم حياتكم على قدر كرهكم لتلك الدويدة. لأنكم ما احببتم انساناً او شيئاً الاّ احببتم فيه ذواتكم. ولا كرهتم انساناً او شيئاً الاّ كرهتم فيه ذواتكم.

كل ما تحبون مرتبط بكل ما تكرهون ارتباطاً اوثق من ارتباط صدوركم بظهوركم. فلو صدقتم مع انفسكم لكان عليكم ان تحبوا ما تكرهون وما يكرهكم قبل ان تحبوا ما تحبون ويحبّكم.

ليست المحبة بفضيلة. انها لضرورة اشدّ من ضرورة الخبز والماء والنور والهواء. فحذار ان يفخر احد بمحبته. بل عليكم ان تتنفسوا المحبة غير مفكرين بها وبمثل السهولة التي تتنفسون بها الهواء. اذ ليست المحبة في حاجة الى من يشيد بها ويرفعها. فهي ترفع القلب الذي تجده اهلاً لها. لا تطلبوا ثواباً للمحبة. ففي المحبة ثواب المحبة. مثلما في البغض عقاب للبغض.

ولا تطلبوا حساباً من المحبة. فالمحبة لا تحاسب غير ذاتها. وهي لا تُدين ولا تستدين. ولا تشتري ولا تبيع. لكنها اذا ما اعطت فكل ما لها. واذا ما اخذت فكل ما لها. فأخذها إعطاء. واعطاؤها اخذ. لذلك لا تزيد

ولا تنقص بل تبقى كاملة اليوم وغداً والى آخر الدهر .

ومثلما يُفرغ النهر العظيم ذاته في البحر فيعود البحر ويملأه هكذا افرغوا انفسكم في بحر المحبة كيما تظلوا مترعين بالمحبة . ان حوضاً يستأثر بهبة البحر يغدو حوضاً آسناً .

ليس في المحبة من « اكثر » ولا من « اقلّ » . فساعة يخطر ببالكم ان تزنوا المحبة او ان تقيسوها تتسلل من قلوبكم تاركة وراءها ذكريات مُرّةً لا غير .

لا وليس في المحبة « الآن » و « عندئذٍ » ولا « هنا » او « هناك ». فكل الفصول فصول للمحبة وكل الأماكن مساكن لائقة بها .

لا تعرف المحبة تخوماً وحواجز . فالمحبة التي تقف حائرة امام اي تخم او حاجز ليست جديرة بعد باسم المحبة .

لكنّم سمعتكم تقولون ان المحبة عمياء . وانتم تعنون انها لا ترى عيباً في المحبوب . ان عمى كذلك العمى لهو اسمى درجات البصر . الا ليتكم كنتم عمياناً الى حدّ ان لا تبصروا عيباً في شيء !

كلاّ . ليست المحبة بالعمياء . بل ان لها عيناً تخترق كل الحُجُب . ولذلك لا تبصر من عيوب على الاطلاق . وانتم عندما تطهّر المحبة ابصاركم لن تستطيعوا ان تروا شيئاً غير جدير بمحبتكم . انما تبصر العيبَ عينٌ محرومة من المحبة وملأى بالعيوب . وما العيوب التي تبصرها غير عيوبها .

المحبة تجمع . والبغض يفرّق . ان هذه الكمية الهائلة من الصخر والتراب المعروفة بقمّة المذبح لو لم تكن ممسوكة معاً بيد المحبة لتطايرت شظايا

في الفضاء. حتى اجسادكم ، على وهنها ، ما كانت لتتفكك لو كان لكم ان تحبّوا كل خليّة من خلاياها محبة متوازية ، قوية ، خالصة .

المحبة سلام نشوان بألحان الحياة . والبغضاء حرب صاخبة بصرخات الموت . فاي الاثنين تختارون : أأن تحبوا فتكونوا في سلام دائم ؟ ام ان تبغضوا فتكونوا في حرب ابدية ؟

انما الأرض كلها تحيا فيكم . وانما السموات وكل اجنادها حيّة فيكم . فأحبوا الأرض وكل الراضعين من ثديها ان انتم شئتم ان تحبوا انفسكم . واحبوا السموات وكل أجنادها ان انتم شئتم ان تكون لكم حياة .

علامَ تبغض نروندا يا ابمار ؟

**نروندا** : ذهل الكل لهذا التغيّر الفجائي في صوت المعلم ومجرى أفكاره. وصعقت أنا وابمار لسؤاله عن نفورٍ بيننا كان كلانا يحرص اشد الحرص في كتمه عن الآخرين ولم يكن ما يحملنا على الاعتقاد ان احداً من الرفاق تنسم عنه اقل خبر . فاتجهت كل الأبصار الينا ولبث الجميع يرقبون شفتي ابمار ليسمعوا بماذا عساه يجيب .

**ابمار** : (ملتفتاً الى التفاتة كلها تأنيب) العلك يا نروندا اخبرت المعلم ؟

**نروندا** : عندما قال ابمار « المعلم » كاد قلبي يذوب فرحاً في داخلي. لان هذه الكلمة كانت محور الخلاف بيني وبينه قبل ان يعلن مرداد نفسه . اذ قلت لابمار ان مرداد معلم جاء ليهدي العالم . بينا ابمار ما كان ليرى فيه غير رجل عادي .

مرداد لا تنظر شزراً الى نورندا يا ابيار . فهو براء من لومك .

**ابيار** : اذنْ من اطلعك على ما بيننا ؟ العلك تقرأ ما في افكار الناس كذلك ؟

مرداد ليس مرداد في حاجة الى من يترجم له افكار الناس او من يتجسس اخبارهم . فلو انك تحب مرداد بمثل محبته لك لكان في مكنتك لا ان تقرأ افكاره فحسب بل ان تبصر ما في قلبه كذلك .

**ابيار** : ألا اصفح يا معلم لرجل أعمى وأطرش . وافتح عيني واذني ، لانني اشتاق ان أبصر واسمع .

مرداد ليس من صانع عجائب الا المحبة . ان شئت ان تبصر فلتكن المحبة في انسان عينك . او شئت ان تسمع فلتكن المحبة في طبلة اذنك .

**ابيار** : لكنني لا أكره احداً . حتى ولا نورندا .

مرداد عدم الكره ليس محبة يا ابيار . فالمحبة قوة ايجابية فعّالة . وما لم تكن قائدة لخطاك ضللتَ طريقك . وما لم تملأ كل رغبة من رغباتك وكل خاطرة من خواطرك كانت رغباتك قتاداً في أحلامك ، وكانت خواطرك مراثي لأيامك .

ها قلبي الآن قيثار ونفسي تواقة الى الانشاد . أين قيثارك يا زمورا ؟

**زمورا** : أأذهب وآتي بها يا معلم ؟

مرداد اذهب يا زمورا .

**نوندا** : وللحال انطلق زمورا في طلب القيثار . بينما الآخرون يتبادلون نظرات الدهشة والحيرة ولا يجسر أحدهم ان يحرك شفة .

وعندما عاد زمورا بالقيثار تناولها المعلم بلطف من يده ثم انحنى فوقها برقة فائقة ، ومن بعد ان دوزن اوتارها بكل دقة راح يداعبها بأنامله وينشد :

مرداد

رُبّانُكِ اللهُ ، سيري ، فُلكَ مرداد !
سيري ، وإن ثار قلبُ الدهرِ بالحُممِ
فصارت الأرض بحراً من لظىً ودمِ
ومسّت القبّةَ الزرقا يدُ العدمِ
فالكون أنقاضُ آزالٍ وآبادِ . —
ربانكِ الله ، سيري ، فُلكَ مردادِ !

الحبّ صاريكِ ، طوفي ، فُلكَ مردادِ !
طوفي بلا وجلٍ ، فالموجُ مطواعُ
لحامل الحبّ ، والأرياحُ مذياعُ
وزوّدي بكنوز الحبّ من جاعوا

الى فنائكَ لا تُغني عن الزادِ . –
الحبّ صاريكِ ، طوفي ، فُلكَ مردادِ !

مرساتُكِ الحقُّ ، قِرّي ، فُلكَ مردادِ !
ان الزعازع مزمارٌ وألحانُ
لمن مراسيه أشواقٌ وإيمانُ
وإنّ هدهدة الأنسام بركانُ
لمن مراسيه من شكٍّ وإلحادِ . –
مرساتُكِ الحقّ ، قِرّي ، فُلكَ مرداد !

**نروندا** : ووقف المعلم عن الترنيم ثم انحنى على القيثار كما تنحني ام أسكرتها المحبة على رضيع لاصق بصدرها . واوتاحت الأوتار من الارتعاش الا ان القيثار ما فتئت تردد «وبانك الله ، سيري ، فلك مردادِ» . وتلاصقت شفتا المعلم في صمت عميق ، الاّ ان نبرات صوته ما برحت تتجاوب بين جدران وكر النسور ثم تتدفق من هناك موجة تلو موجة الى القمم الجرداء من حولنا ، والى التلال والأودية تحتنا ، والى البحر القلق البعيد ، والى القبة الزرقاء من فوق .

لقد كان في ذلك الصوت شآبيب من الشهب وأقواس قزح ، وأعاصير هاصرة ترافقها نسمات عليلات وأغاريد بلابل تلى بالألحان . وكان فيه بحار زاخرة مجلببة بضباب شفّاف ينضح نـدى . وكأن الخليقة بأسرها كانت تصغي اليه شاكرة جذلة .

وقد تراءى لي كما لو انّ سلسلة جبال الآس واللبان ، وقمة المذبح في وسطها ، قد انفصلت بغتةً عن الأرض وراحت تمخر عباب الفضاء واثقة من سبيلها ، رائعة في جلالها ، مطمئنة في جبروتها .

لثلاثة أيام تلت ذلك ما كلّم المعلم أحداً بكلمة .

•

# الفصل الثاني عشر

في السكينة المولِّدة · اصدق الكلام كذب بري،

**نروندا** : عند نهاية الايام الثلاثة اجتمع السبعة عن غير اتفاق سابق فيما بينهم وكأن قدرة لا تعانَد كانت تسوقهم الى وكر النسور فما دروا الاَّ وهم وقوف في الباب . فاستقبلهم المعلم بلطفه المعتاد وكأنه كان يتوقع قدومهم .

**مرداد** ها أنا اؤهل ثانية بعودتكم الى وكركم يا فراخي . ليعلن كل منكم ما يبدو له وما يشتهيه من مرداد .

**ميكايون** : لا فكر عندنا ولا رغبة لنا الاَّ ان نكون قريبين من مرداد كيما نحس ونسمع حقيقته لعلنا نعتق من ظِلالنا مثله . إلاَّ ان سكوته هذه الايام الثلاثة يروعنا جميعاً . العلنا اسأنا اليه بشيء ؟

**مرداد** ما سكتُّ هذه الأيام الثلاثة لأقصيكم عنّي بل لأقرّبكم منّي . اما ان تكونوا قد اسأتم اليَّ بشيء فمَن عرف طمأنينة الصمت التي يعرفها مرداد عرف انها امنع من ان تسيء او ان يساء اليها .

**ميكايون** : ألعل الصمت افضل من الكلام ؟

مرداد خير الكلام كذب بريء . وشرّ الصمت صدق عريان .

**ايبار** : انستنتج من هذا ان كلام مرداد كذلك كذب بريء ؟

مرداد اجل، حتى كلام مرداد كذب لكل من كانت **أنا** – ه غير **أنا** مرداد . وانتم ما لم يكن كلامكم مقطوعاً من مقلع واحد، ورغباتكم مستقاة من بئر واحدة ، كان كلامكم ، وان صدقتم ، كذباً بريئاً .

اما عندما تصبح **انا** – كم **وأنا** – ي واحدة مثلما **آنا** – ي **وأنا** الله واحدة ، عندئذ نستغني عن الكلام ونتفاهم بالصمت الصادق .

ولأن **أنا** – كم ما تزال غير **أنا** – ي فانا مكره ان اشنّ عليكم حرباً واقهركم بسلاحكم كيما اقودكم في النهاية الى مقلعي والى بئري .

وعندها يصبح في مستطاعكم ان تغيروا على العالم فتقهروه وتخضعوه نظير ما ساقهركم واخضعكم . وعندها تصبحون اهلاً لان تقودوا العالم الى صمت **الضمير الاسمى** ، الى مقلع **الكلمة** وبئر **روح الفهم** القدوس .

الى ان يقهركم مرداد لن تكونوا من المناعة حيث تتمكنون من ان تقهروا العالم . ولن يغسل العالم عنه عار الانكسار الدائم الاّ من بعد ان تكسروه .

فشدّوا احقاءكم للمعركة . اصقلوا تروسكم ودروعكم ، واشحذوا سيوفكم ورماحكم . دعوا الصمت يقرع الطبل ويحمل العلم كذلك .

**بنّون** : ايّ صمت هذا الذي عليه ان يكون الطبّالَ وحاملَ العلم في وقت واحد ؟

## مرداد

ان الصمت الذي اودّ ان ادخلكم اليه هو تلك الفسحة غير المحدودة حيث يتحول اللاوجود الى وجود ، والوجود الى لاوجود . هو ذلك الفراغ الرهيب حيث يولد كل صوت ثم يخفت . وكل شكل ثم يُسحق . وكل كلمة ثم تمحّى . حيث لا شيء إلاّه .

وانتم ما لم تجتازوا تلك الفسحة وذاك الفراغ في التأمل الصامت استحال عليكم ان تعرفوا حقيقة وجودكم ووهم عدم وجودكم . او ان تعرفوا الى أيّ حدّ ترتبط حقيقة وجودكم بحقيقة كل الوجود .

ذاك هو الصمت الذي اودكم ان تجوبوا ارجاءه كيما تنزعوا عنكم في النهاية جِلدكم القديم الضيّق وتنطلقوا في رحاب لا حدود فيها ولا قيود .

الى هناك اريدكم ان تسوقوا همومكم ومخاوفكم ، وشهواتكم ورغباتكم ، واحقادكم واحسادكم كيما تبصروها تتلاشى الواحدة تلو الواحدة . وهكذا تستريح آذانكم من صراخها الذي لا يهدأ ، وتأمن ضلوعكم وخز مهاميزها التي لا تطاق .

هناك اريدكم ان تطرحوا بقِسيّ هذا العالم وسهامه التي ترجون ان تقتنصوا بها الراحة والفرح لأنفسكم والتي لا ينالكم منها في الواقع غير الحزن والقلق .

هناك اريدكم ان تتسلّلوا من سجون اصداف الذات المحصورة وظلماتها الى نور الذات الحقة وفضائها المشرق الفسيح .

ذلك هو الصمت الذي اوصيكم به وهو غير الراحة الموقتة من الكلام للسان اعياه الكلام .

بصمت الارض المثمر اوصيكم لا بصمت المجرم والمكتار .

بالصمت الصبور المؤمن اوصيكم – صمت الدجاجة تحضن البيض ، لا بقوقأة رفيقتها اذ تضع بيضة. فالاولى تقف صامتة على البيض واحداً وعشرين يوماً واثقة من ان اليد السحرية ستجترح عجيبة تحت صدرها الناعم وجناحيها الدافئين . بينا تنبري الثانية من قنّها كالمجنونة معلنة باعلى صوتها للملإ انها قد وضعت بيضة .

اياكم والفضيلة القوقاءة يا رفاقي . فنظير ما تخجلون بخزيكم فتلجمونه ، هكذا الجموا شرفكم كذلك . لان حسنةً تعلن ذاتها لأسوأ من سيئة صامتة . وفضيلة صخّابة لأقبح من رذيلة خرساء .

احترسوا من كثرة الكلام . فمن ألف كلمة ينطقها الناس قد تكون واحدة لا اكثر جديرة بان تُنطَق . اما ما بقي فضباب في الفكر ، ووقر في الاذن ، وتعب للّسان ، وعمًى للقلب .

ما اصعب النطق بالكلمة الجديرة حقاً بان تُنطَق !

ومن ألف كلمة يكتبها الناس قد تكون واحدة لا اكثر حريّة بان تُكتب . اما ما بقي فمداد مهدور وقرطاس متلف ، ودقائق مثقلة بالرصاص بدلاً من ان تكون محمولة على اجنحة من نور .

ما اصعب كتابة الكلمة الجديرة حقاً بان تُكتب !

**بنّون** : ماذا تقول اذن في الصلاة يا معلم ؟

ففي الصلاة يُفرض علينا ان نفوه بكلمات كثيرة وان نطلب اشياء كثيرة . ويندر ، مع ذلك ، ان ننال ولو بعض ما نطلب .

# الفصل الثالث عشر

## في الصلاة

مرداد عبثاً تصلّون ما دمتم تتوجهون بصلواتكم الى آلهة غير انفسكم .

ففيكم القوة الجاذبة . وفيكم القوة الدافعة . مثلما فيكم كل ما تبتغون جذبه اليكم . وكل ما تبتغون دفعه عنكم . فما كانت لكم القدرة على اقتبال شيء الاّ كانت لكم القدرة على منحه .

حيثما الجوع هنالك الغذاء . وحيثما الغذاء هنالك الجوع حتماً . فالمقدرة على تحمل آلام الجوع كفيلة بوجود نعمة التمتع ببركات الشبع .

اجل ، ان في الحاجة ذاتها لمؤونة للحاجة . اليس المفتاح وثيقة بوجود القفل ؟ اليس القفل وثيقة بوجود المفتاح ؟ ومن ثم اليس القفل والمفتاح وثيقة بوجود الباب ؟

لا تسرعوا الى الحدّاد وتضايقوه بشكاويكم كلما أضعتم مفتاحاً او نسيتم اين وضعتموه . فالحداد قد أتمّ عمله ، واتمه على أدقّ صورة وأكمل وجه . فلا يجمل بكم ان تسألوه ان يعمل عمله ثانية وثالثة . اعملوا أنتم عملكم ودعوا

الحداد وشأنه . فهو ، وقد قام بما عليه نحوكم ، يهتم بشغل غير شغلكم . نظفوا ذاكرتكم مما تلبد فيها من الأقذار والروائح الكرهة تجدوا بلا شك المفتاح الذي أضعتموه .

عندما نطق بكم الله الذي لا يُنطق بـه ، عندئذٍ نطق بذاته كاملـة ، صافية . فكنتم انتم كذلك من الجلال والقدرة حيث لا يُنطق بكم .

ان الله ما اودعكم بعضاً من ذاته . فهو لا يتجزأ . بل أودعكم الوهته بكاملها ، غـير مجزأة وغير منقادة الى وصف او تحديـد . فأي ميراث عساكم تبتغون أعظم من ذلك الميراث ؟ ومن او مـاذا في استطاعته ان يصدكم عن التمتع بميراثكم الا جبنكم وعماكم ؟

لكنَّ بعض النـاس – ويا لهـم من جاحدي الجميل – بدلاً من ان يفتشوا عن ميراثهم والطريق المؤدية اليه يؤثرون ان يجعلوا من الله شبه بؤرة يحملون اليها أوجاع أضراسهم وبطونهم ، وخساراتهم في متاجرهم ، وخصوماتهم مع الناس ، وثؤورهم ، ولياليهم الساهدة في أسرّة الأرق .

بينا لا يأنف البعض الآخر من ان يجعل من الله خزانة خاصة يأمل ان يتناول منها ساعة يشاء كل ما يشاء من زخارف العالم وزركشاته .

وهناك قومٌ لا يتورعون عن استخدام الله ماسكاً لدفاترهم الخاصـة . فهم يتوقعون منه لا ان يضبط ما لهم وما عليهم فحسب ، بل ان يكون جابياً لديونهم ، وان يكفل لهم رصيداً كبيراً عند تصفية الحساب .

أجل ، كثيرة ومتنوعة هي الواجبات التي يلقيها الناس على عاتق الله . وقليل منهم من فكّر يوماً انه لو كانت واجبات الله كثيرة حقاً لـكان الله

قادراً ان يقوم بها وحده ومن تلقاء ذاته ، من غير ان يحثه عليها احد او يذكّره بها انسان .

اتذكّرون الله بالشمس متى يُطلعها وبالقمر متى يغيبه ؟ ام تذكّرونه بحبة القمح متى ينهض بها الى الحياة في هذا الحقل او ذاك ؟ ام تذكّرونه بهانة العنكبوت تنسج ملجأها العجيب ؟ أم بالفراخ في عش تلك القبّرة المرفرفة هنالك ؟ ام بأي من الأشياء الماثلة المسكونة والتي لا يحصيها عدد ؟

اذن ما بالكم تلحّون على ذاكرته بكل ما عندكم من اغراض طفيفة وشهوات تافهة؟ ألعلكم أقل حظوة في عينيه من العناكب والعصافير وحبات القمح؟ فعلامَ لا تقبلون مثلها ما أعطي لكم وتنصرفون كل الى عمله من غير ضجة، ولا احناء ركب ، ولا مدّ اذرع ، ومن غير ان تلوصوا بلهفة من خلال ستائر الغد ؟

واين هو الله حتى تصرخوا في اذنه شتى اهوائكم وأباطيلكم ،وتسابيحكم وشكاويكم ؟ أليس الله فيكم وحواليكم ؟ اليست أذنه أقرب الى فمكم من لسانكم الى حلقكم ؟

يكفي الله الوهته التي انتم نواة منها .

اذا كان من واجب الله ، وقد اعطاكم نواة الوهته ، ان يتعهد النواة بدلاً منكم فأيّ الفضل فضلكم؟ وما هو العمل الذي أعطيتم الحياة من أجله؟ واذا كان على الله ان يعمل عملكم فما معنى حياتكم اذن وما قيمتها ؟ بل ما نفعكم من كل ما تصلّون ؟

لا تحملوا الى الله مشاكلكم ومتاعبكم التي لا تُعَدّ .ولا تتضرّعوا اليه ان يفتح لكم الأبواب من بعد ان أعطاكم مفاتيحها . ولكن فتشوا رحاب

قلوبكم . ففي رحاب القلب مفتاح لكل باب . وفي رحاب القلب كل ما انتم جياع وعطاش اليه ، إن من خير وان من شر .

ان تحت إمرتكم لجيشاً جراراً مغواراً ومرهوناً بتنفيذ أقلّ أمر يصدر منكم . وهذا الجيش اذا ما اكتملت عدّته ، وتمّ تدريبه بحنكة وحكمة ، ثم أوتي قيادة لا تعرف الوجل ، كان في مستطاعه ان يقتحم الآباد وان يجرف كل عقبة في سبيله الى غايته . لكنه اذا ما كان فقير العدة ، ناقص التدريب ، وكانت قيادته في يد يشلّها الخوف والتردد ، راح يدور على ذاته او ينهزم لدى اقل صدمة او عقبة جارّاً خلفه ذيول الاندحار الأسود .

أمّا ذلكم الجيش الجرار ، ايها الرهبان ، فما هو الا تلكم القطرات الحمر التي تجري الآن صامتة في عروقكم ، وكل واحدة منها معجزة من القوة ، وسجلّ كامل صادق لحياتكم حتى أدقّ اوصافها وحوادثها .

في القلب يجتمع هذا الجيش ، ومن القلب تـدرج فصائله . لذلك كان للقلب مقامه المرموق وشهرته الواسعة . فمنه تتفجر دموعكم وأفراحكم . واليه تنساب مخاوفكم من الموت والحياة .

أما عدّة ذلك الجيش فأهواؤكم ورغباتكم . وأما المدرب ففكركم . وأما القائد فارادتكم .

فاذا ما وُفّقتم الى تجهيز جيشكم برغبة تسلطن على كل رغباتكم ، والى تدريبه بفكر يسيطر على كل افكاركم ، والى قيادته بارادة تهيمن على كل ارادة لكم ، كان وصولكم الى ما ترغبون أكيداً وسريعاً .

كيف يبلغ رجل صالح صلاحه الا بتطهيره مجاري دمه من كل شهوة

وفكرة تناقضان الصلاح ، ومن ثم بتوجيه دمه بارادة صلبة الى غـاية لا تقبل الشرك – غاية الوصول الى الصلاح ؟

اقول لكم ان كل رغبة صالحة ، وكل فكرة صالحة ، وكل ارادة صالحة من آدم حتى اليوم ، تهرع لتساعد الانسان المنكبّ على الوصول الى الصلاح . فمنذ تأسيس العالم والمياه ، اينما كانت ، تفتش عن البحر ، وأشعة النور تسعى للالتحاق بالشمس .

أم كيف يفلح قاتل بتنفيذ جريمته الا بتوليده عطشاً جنونياً في دمه الى القتل ، ثم بجلده كريات دمه وتنظيمها في صفوف متراصّة بسوط فكرةٍ سلطن عليها القتل ، ثم بحمله تلك الصفوف بارادة لا تنثني على توجيه الطعنة القاضية ؟

اقول لكم ان كل قاتـل من قايين حتى اليوم يهرول من تلقاء نفسه ليعضد ساعد الرجل السكران بشهوة القتل . فمنذ كان العـالم والغربان تأنس بالغربان ، والضباع بالضباع .

فالصلاة ، اذن ، هي تسليطكم على الدم شهوة رئيسية واحـدة ، وفكرة رئيسية واحـدة ، وارادة رئيسية واحدة . هي ان تدوزنوا النفس لتأتلف أتمّ الائتلاف مع ما تصلّون من أجله .

واعلموا ان جوّ هذه السيارة التي انتم عليها ينعكس بكل ما فيه على صفائح قلوبكم ؛ وانه يموج بذكريات كل ما شهده منذ تكوينه . فما من كلمة او عمل ، ولا من رغبة او تنهدة ، ولا من فكرة تائهة او حلم عابر ، ولا من نفَس إنسان او حيوان ؛ ما من ظلّ ولا من وهم الا تمخر كلها عباب هذا الجو وستظل تمخره الى آخر الدهر . فدوزنوا قلوبكم لأيّ منها تأتِكم سراعاً لتنقر على الأوتار .

انكم لفي غنىً عن شفة او لسان للصلاة. ولكنكم في حاجة الى قلب صامت مستيقظ، والى رغبة متسلطنة، وفكرة متسلطنة، والأهمّ من ذلك كله الى ارادة متسلطنة لا تعرف الشك ولا التردد. فلا نفع لكم من الكلام ما لم يكن القلب مستيقظاً وحاضراً في كل مقطع من كل كلمة. ومتى استيقظ القلب وحضر كان من الأفضل للسان ان ينام او ان يختبىء وراء شفاه مختومة.

لا، ولستم في حاجة الى هياكل تصلون فيها. فمن لم يجد هيكلاً في قلبه لن يجد قلبه في أي هيكل.

لكنني أقول هذا لكم ولمن كان مثلكم. ولا أقوله لكل الناس. اذ ان أكثر الناس ما يزالون قاصرين. فلا يستطيعون ان يصلّوا الا بالكلام، ولا يجدون كلاماً للصلاة الاّ ما يضعه الغير في افواههم. وهم اذا ما حاولوا ان يجوبوا رحاب قلوبهم تاهوا واستولى عليهم الرعب. اما بين جدران المعابد او بين قطعان من جنسهم، فيسرّى عنهم ويستأنسون. دعوهم يشيدون معابدهم. دعوهم يرنمون صلواتهم.

لكنني أدعوكم وأدعو كل انسان الى الصلاة من أجل **الفهم**. فمن جاع لغير ذلك لم يشبع الى الأبد.

اذكروا ان مفتاح الحياة هو **الكلمة المبدعة**. وان مفتاح **الكلمة المبدعة** هو المحبة. وان مفتاح المحبة هو **الفهم**. املأوا قلوبكم من هذه وأريحوا ألسنتكم من تعب الكلام الكثير، وانزعوا عن افكاركم اعباء كثرة الصلوات، واعتقوا قلوبكم من العبودية لكل الارباب الذين دأبهم استعبادكم بهبة؛ والذين يلاطفونكم بيد ليصفعوكم بالاخرى؛ والذين يسرهم التسبيح والتمجيد ويغيظهم

اللوم والتثريب ؛ والذين لا يسمعونكم الاّ اذا ناديتموهم ، ولا يعطونكم الا اذا استعطيتموهم ؛ والذين بخورهم دموعكم وعزّهم هوانكم .

أجل ، اعتقوا قلوبكم من كل هؤلاء الأرباب كيما تجدوا فيها الرب الأوحد الذي اذا ملأكم مرّة بذاته بقيتم ملآنين الى الأبد .

**بنون** : تارة تكلمنا عن الانسان كما لو كان قديراً على كل شيء. وطوراً تصوره قاصراً عاجزاً عن أقلّ شيء . وهكذا توقعنا في حيرة وتتركنا وكأننا في ضباب .

# الفصل الرابع عشر

الحوار بين رئيسَي الملائكة والحوار بين
رئيسَي الابالسة عندما وُلد الانسان في الازل



عندما وُلد الانسان في الازل كان رئيسا ملائكةٍ جالسَين على قطب المسكونة الأعلى فدار بينهما الحوار الآتي :

قال رئيس الملائكة الأول :

لقد وُلد للأرض مولود عجيب . فالارض تتلألأ بالضياء .

فقال رئيس الملائكة الثاني :

لقد وُلد للسماء مليكٌ مجيد . فالسماء تخفق بالحبور .

الاول : انه لثمرة القِران ما بين السماء والأرض .

الثاني : انه القران الأبدي . فهو الأب والأمّ والمولود في آن معاً .

الاول : به تمجدت الأرض .

الثاني : به تبررت السماء .

الاول : النهار يهجع في عينيه .

الثاني : الليل يقظان في فؤاده .

الاول : صدره وكر للعواصف .

الثاني : حنجرته سلّم ألحان .

الاول : ذراعاه تطوقان الجبال .

الثاني : اصابعه تقطف الكواكب .

الاول : في عظامه تهدر البحار .

الثاني : في عروقه تجري الشموس .

الاول : فمه مصهر ومسكب .

الثاني : لسانه مطرقة وسندان .

الاول : حول رجليه قيود الغد .

الثاني : في قلبه مفاتيح القيود .

الاول : لكنه مهده التراب .

الثاني : ولكنه مقمط بالدهور .

الاول : هو كالله عالم بغوامض الاعداد . وهو كالله يفقه اسرار الكَلِم .

الثاني : انه ليعرف سائر الاعداد ما خلا العدد المقدس الذي هو الاول والآخر . وانه ليفقه اسرار الكَلِم ما خلا سرّ الكلمة المبدعة التي هي الأولى والأخيرة .

الاول : لكنه سيعرف **العدد** وسيفقه **الكلمة** .

الثاني : لن يكون له ذلك حتى يبري قدميه مشياً في مجاهل المكان ، وحتى يفقد عينيه محملقاً في خواء قبة الزمان .

الاول : عجيب ، وعجيب جداً ، هذا المولود الذي وضعته الارض .

الثاني : مجيد ، ومجيد جداً ، هذا الملِك الذي وضعته السماء .

الاول : لقد سماه انساناً ذلك الذي لا اسم له .

الثاني : وهو قد سمى الذي لا اسم له الله .

الاول : الانسان كلمة الله .

الثاني : والله كلمة الانسان .

الاول : المجد لمن كلمته الانسان .

الثاني : المجد لمن كلمته الله .

الاول : الآن والى الابد .

الثاني : هنا وفي كل مكان .

هكذا تكلم رئيسا الملائكة على قطب المسكونة الاعلى عندما وُلد الانسان في الازل .

وفي الوقت عينه كان رئيسا ابالسة على قطب المسكونة الاسفل يتحاوران بما يلي :

قال رئيس الابالسة الاول :

لقد انضم الى صفوفنا فارس صنديد . وبعونه سنغلب .

فقال رئيس الابالسة الثاني :

احرِ بك ان تقول : جبان رعديد . فالجبانة معسكرة على جبينه . لكن في جُبنه أهوالاً .

الاول : عينه ضارية لا تعرف الخوف .

الثاني : اما قلبه فدامع ، داجن . لكنه رهيب بدموعه ودجونه .

الاول : فكره حاد وملحاح .

الثاني : اما اذنه فكسولة وثقيلة . لكنه خطِرٌ في كسله وتثاقله .

الاول : يده سريعة ومحكّمة الحركة .

الثاني : اما قَدَمه فبليدة ومترددة . لكنه هائل في بلادته ومخوف في تردده .

الاول : سيكون خبزنا فولاذاً لعضلاته . وخمرنا ناراً لدمه .

الثاني : سيأكل خبزنا ثم يرجمنا بمعاجننا . وسيشرب خمرنا ثم يحطم خوابينا على رؤوسنا .

الاول : انّ في جوعه الى خبزنا وعطشه الى خمرنا لمركبة له لا تُرَد عند النزال .

الثاني : لكن جوعه الذي لن يشبع وعطشه الذي لن يرتوي سيجعلانه امنع من ان يُقهر . وهو سيرفع راية العصيان في معسكرنا .

الاول : ولكن الموت سيكون قائداً لمركبته .

الثاني : وهكذا يصبح من الخالدين .

الاول : العل الموت يقوده الاّ الى الموت ؟

الثاني : اجل ، سيتبرّم الموت به وبدموعه وشكاويه الدائمة الى حدّ انه سيدفع به في النهاية الى معسكر الحياة .

الاول : ايخون الموتُ الموتَ ؟

الثاني : كلاّ ، بل تكون الحياة امينة للحياة .

الاول : سنغري حلقه باندر الثار واشهاها .

الثاني : الا انه سيبقى يشتاق ثماراً لا تنبت على قطبنا هذا .

الاول : وسنستهوي عينه باجمل الازهار وأنفه بازكى العطور .

الثاني : وستبقى عينه ، مع ذلك ، تفتش عن ازهار غير أزهارنا وانفه عن عطور غير عطورنا .

الاول : وسنحاصر اذنيه بألحان شجية وبعيدة .

الثاني : وستبقى اذنه ، مع ذلك ، مصغية الى اجواق غير جوقنا .

الاول : سنستعبده بالخوف .

الثاني : لكن الامل سيحميه من الخوف .

الاول : سنخضعه بالألم .

الثاني : لكن الايمان سيخلصه من الألم .

الاول : سنملأ نومه باحاجي الاحلام ونفرش يقظته بالاشباح المبهمة .

الثاني : لكن خياله سيحل الاحاجي ويبدد الاشباح .

الاول : سنحسبه واحداً منّا كيفما كان الأمر .

الثاني : احسبه منّا اذا شئت . ولكن احسبه ضدنا كذلك .

الاول : ايكون معنا وعلينا في آن واحد ؟

الثاني : انه ليشن وحده حرباً شعواء ولا خصم له في الميدان غير ظلّه . فأنّى كان الظل كانت المعركة . ان يكن ظله امامه حارب معنا . او يكن ظله خلفه حارب ضدّنا .

الاول : إذن لَنَجعلنّ ظهره ابداً للشمس .

الثاني : ولكن أنّى لنا ان نجعل الشمس ابداً لظهره ؟

الاول : ان هذا الفارس لأحجية .

الثاني : ان ظل هذا الفارس هو الأحجية .

الاول : المجد للفارس الذي لا رفيق له .

الثاني : المجد للظل الذي لا رفيق له .

الاول : المجد له وهو معنا .

الثاني : المجد له وهو علينا .

الاول : الآن والى الابد .

الثاني : ههنا وفي كل مكان .

هكذا تكلم رئيسا الابالسة على قطب المسكونة الاسفل عندما ُولد الانسان في الأزل .

•

# الفصل الخامس عشر

شمادم يحاول طرد مرداد من الفلك . مرداد يحدّث
عن الاهانة والرصانة وعن استيعاب العالم في الفهم المقدس

**روندا** : ما كاد المعلّم ينهي كلامه حتى بانت في مدخل وكر النسور جثة المتقدّم الضخمة فكادت تحجب عنا النور والهواء . فتراءى لي في الحال ان الواقف بالباب لم يكن شمادم بل احد رئيسَي الأبالسة اللذَيْن كلمنا عنهما المعلم .

وكانت عين المتقدم تقدح شراراً ولحيته ترتجف عندما تقدم من المعلم وقبض على يده محاولاً ، على ما ظهر لنا ، ان يجرّه الى خارج الوكر جرّاً .

**شمادم** : اما كفاك هذياناً يا هذا ؟ لقد سمعتُ الآن ما تقيّأ به دماغك القذر من الاوساخ .

ان فمك لفوّارة من السمّ . وان وجودك بيننا لشؤم ما بعده شؤم . فأنا بالسلطة المعطاة لي آمرك بالانصراف عنا في هذه اللحظة .

**روندا** : لكن المعلم ، وان يكن نحيف البنية نسبةً الى شمادم ، ما تزحزح من مكانه فبدا كأنه العملاق وبدا شمادم كأنه الطفل بين يديه . فما

كان اروع الطمأنينة التي في عينيه عندما رفعهما الى شمادم وقال :

**مرداد** مَن كان له السلطان ان يأمر بالدخول كان له وحده السلطان ان يأمر بالخروج . ألعلك انت جئت بي الى هنا يا شمادم ؟

**شمادم** : ان ما رأيته من زريك وسوء حالك حنّن قلبي عليك فسمحت لك بالدخول .

**مرداد** الأصدَق يا شمادم ان محبتي رقّت لزريك وسوء حالك . لذلك جئت وجاءت معي محبتي . اما انت فلا انت بالآتي ولا انت بالذاهب . ولا انت ههنا ولا انت هنالك . وليس إلاّ ظلك ينتقل من مكان الى مكان . وها انا جئت لأجمع كل الظلال واحرقها في الشمس .

**شمادم** : كنتُ المتقدم في هذه الفلك قبل ان بدأتَ تفسد الهواء بأنفاسك النجسة . فكيف للسانك القذر ان يقول انني لست ههنا ؟

**مرداد** كنتُ قبل ان تكون هذه الجبال يا شمادم ، وسأبقى من بعد ان تتحول هباءً منثوراً .

انا الفلك والمذبح والنار . وانت ما لم تجعلني مأوى لك بقيتَ فريسة للعواصف . وانتَ ما لم تقدم نفسك ذبيحة لي ، لن تجد لك مهرباً من شفار قصّابي الموت الذين لا يحصيهم عدّ . وانت ما لم تلتهمك ناري الحنون ستكون بلا شك وقيداً لنار جهنم .

**شمادم** : أسمعتم كلكم ؟ أوَما سمعتم ؟ اليّ ايها الرفاق . ولنطرح هذا المشعوذ المجدّف الى الهاوية .

**زوندا** : وهجم شمادم ثانية على المعلم واخذه من يده محاولاً جرّه الى

خارج. لكن المعلم ما رفّ بجفن ولا تزحزح من حيث كان. لا ولا تحرك احد من الرفاق من مكانه . وعقبت ذلك فترة من السكون الموجع لشمادم. واذا برأسه ينحني الى صدره ؛ واذا به ينسحب بانكسار شائن من وكر النسور متمتماً : « انا رئيس هذه الفلك . ولن اتخلى عن السلطان المعطى لي من الله .»

اما المعلم فغرق في تأمل عميق وطويل وما فاه بكلمة . لكن سكوته ارهق زمورا فما عتم ان قال :

**زمورا :** لقد أهان شمادمُ معلمّنا . فماذا يريدنا ان نفعل به ؟ مُرْنا بما شئت يا معلم ننفّذه في الحال .

**مرداد**

صلّوا من اجل شمادم يا رفاقي . ذاك ما آمركم ان تفعلوه به لا اكثر. صلّوا من اجله لكي تماط الحجب عن عينيه ويرتفع عنه ظله . ليس اجتذاب الخير بأصعب من اجتذاب الشر. ولا التدوزن للمحبة بأصعب من التدوزن للبغضاء .

مِن ارجاء الفضاء التي لا تُحدُّ ومن رحاب قلوبكم استنزلوا البركات على العالم . فكل ما كان بركة للعالم كان بركةً لكم كذلك .

صلّوا من أجل خير جميع المخلوقات . فكل ما كان خيراً لأي المخلوقات كان خيراً لكم كذلك. وكل ما كان شراً لأي المخلوقات كان شراً لكم كذلك .

ألستم كلكم درجات متحركة في سلّم الوجود اللامتناهي ؟ فمن شاء ان يرقى الى فضاء الحرية المقدسة كان لا بدّ له من ان يرقى على اكتاف غيره. وكان لا بدّ له من ان يجعل كتفيه مرقاة لغيره .

وما هو شمادم ان لم يكن درجة في سلمّ وجودكم ؟ ألستم تؤثرون لسلّمكم ان تكون قوية وامينة ؟ اذن اهتمّوا بكل درجة من درجاتها كيما تكون قوية وامينة .

بل ما هو شمادم ان لم يكن حجراً في اساس البنيان الذي هو وجودكم . وما انتم ان لم تكونوا حجارة في بنيان حياته وحياة كل مخلوق ؟ اهتموا اذن ان تجعلوا من شمادم حجراً نقياً من كل عيب ان انتم اردتم ان يكون بنيان حياتكم خالياً من كل عيب . كونوا انتم بلا عيب كيما تكون الابنية التي يشيدها سواكم والتي انتم حجارة فيها بلا عيب كذلك .

أيظن كل منكم انه مسلح بعينين لا اكثر ؟ اقول لكم ان كل عين مبصرة ، ان على الارض او فوقها او تحتها ، ليست سوى وصلة لعينكم . فعلى قدر ما يكون بصر جاركم جلياً يكون بصركم جلياً . وعلى قدر ما يكون بصر جاركم مظلماً يكون بصركم مظلماً .

ما حُرم ضرير نور عينيه إلا حُرمتم معه نوراً مساعداً للنور في عيونكم . فاحرصوا على بصر جاركم كيما يكون بصركم اجلى واقوى . ثم احرصوا على ابصاركم لئلا يعثر جاركم ويقع على عتبتكم . فقد يسدّ عليكم حتى بابكم .

يتوهم زمورا ان شمادم قد اهانني . فكيف لجهل شمادم ان يعكّر فهم مرداد ؟

ان جدولاً عكراً ليستطيع ان يعكر جدولاً آخر . ولكن أنّى لجدول عكر ان يعكر البحر ؟ ان البحر ليقبله ضاحكاً . فيأخذ اوحاله ويفرشها في قاعه ثم يعطيه ماءً زلالاً بدلاً منها .

قد تستطيعون ان تنجّسوا او ان تعقموا ذراعاً مربعاً — بل ميلاً مربعاً — من التراب . ولكن من ذا يستطيع ان ينجس او ان يعقّم الأرض ؟ ان الأرض لتقبل بفرح كل اوساخ الانسان والحيوان وتعطيهما عوضاً عنها ثماراً طيبة ، وأزهاراً عطرة ، وأعشاباً ندية ، وحبوباً محيية . وذلك بغير حساب .

من الأكيد ان السيف يستطيع ان يجرح الجسم . ولكن أيستطيع سيف ان يجرح الهواء مهما أرهِف حدّه واشتدّ ساعد ضاربه ؟

انها الكبرياء يا رفاقي — كبرياء الذات الحقيرة الضيقة — المولودة من الجهل الأعمى وشهواته الحرقاء هي التي بامكانها ان تهين وان تهان . وهي التي تستطيب الأخذ بالثأر فترد الاهانة اهانات وتغسل الأوساخ بأوسخ منها .

ان العالم المستسلم لكبريائه والنشوان بالذات الموهومة سيصب جامات سخطه واهاناته على رؤوسكم ، وسيطلق عليكم كلابه العطشى الى الدم التي تحرس شرائعه الرثة ، وعقائده العفنة ، ومفاخره المتبخترة في اسمالها . وسيعلنكم اعداء للنظام ورسلاً للفوضى والدمار ، وسيملأ طرقكم فخاخاً ويفرش اسرّتكم شوكاً . وسيزرع اللعنات في آذانكم ويبصق الاحتقار على وجوهكم .

فلا تضطربنّ قلوبكم . بل كونوا كالبحر سعة وغوراً . واعطوا بركة حتى للذين لا يعطونكم غير اللعنة .

وكونوا كالارض جوداً وسكينة . وحوّلوا الاقذار التي في قلوب الناس عافية وجمالاً للناس .

وكونوا كالهواء طلاقة ومرونة . فالسيف الذي يطمع بان يجرحكم يصدأ في النهاية ويكمدّ . واليد التي ترمي الى اذيتكم تكلّ في النهاية وتجمد .

ما دام العالم يجهلكم استحال عليه ان يسعكم. اما انتم ففي مستطاعكم ان تسعوا العالم لانكم تفهمونه. لذلك عليكم ان تخففوا من سخطه بلطفكم، وان تُغرقوا شتيمته في فهمكم المشبع بالمحبة . والغلبة للفهم اولاً وآخراً.

هكذا علـّمت نوحاً .

وهكذا اعلـّمكم .

**روندا** : عندئذ تفرّق السبعة صامتين . اذ قد اصبح مفهوماً بيننا ان كلمات المعلم « هكذا علـّمت نوحاً » هي بمثابة تنبيه لنا انه قد اختتم حديثه وانه يطلب الصمت والانفراد .

# الفصل السادس عشر

في الدائن والمدين . ما هو المال ؟
رستيديون يعفى من دَينه للفلك .

**روندا :** ذات يوم اذ كان السبعة ، والمعلم معهم ، عائدين من وكر النسور الى الفلك ابصروا شمادم واقفاً بالباب وفي يده ورقة يلوّح بها في وجه رجل جاثٍ امامه على الارض ، وسمعوه يخاطبه بصوت غضوب : « لقد عيل صبري من مماطلتك . ولم يبقَ في الامكان ان اترفق بك اكثر مما ترفقت . ادفع الآن او فانتن في السجن . »

تأملنا الرجل فاذا به شريك من شركاء الفلك اسمه رَسْتِدِيُون تعاونت السنون والاطمار في احناء ظهره . وقد كان مديناً للفلك بمبلغ من المال وكان يتوسل الى المتقدم ان يمنحه مهلة لدفع ما استحق عليه من الربا معتذراً لذلك بانه فقد ابنه الوحيد وبقرته الوحيدة في اسبوع واحد منذ عهد قريب ، وان زوجه الطاعنة في السن اصيبت من جراء ذلك بالفالج فهي طريحة الفراش . لكن قلب شمادم ما كان يرقّ له .

فمشى المعلم نحو رستيديون واخذه بلطفٍ من يده قائلاً له :

**مرداد** انهض يا رستيديون . فانت كذلك صورة الله. ولا يليق بصورة الله ان تتمرّغ امام اي ظلّ .

( ثم الى شمادم )

أرني صك الدَّيْن .

**نووندا** : ولشدّ ما ذهلنا عندما رأينا شمادم ، وقد كان منذ هنيهة اسداً هائجاً ، ينقلب بغتةً حملاً وديعاً ويناول المعلّم الورقة التي في يده من غير اقلّ تردد او اعتراض . فاخذ المعلم الورقة وتفحصها مليّاً وشمادم ينظر اليه ولا يبدي حركة كأنه مسحور .

**مرداد** ما كان مؤسس هذه الفلك مرابياً . العلّه اوصى لكم بمال تُدينونه للغير بالربا ؟ ام لعله اوصى لكم بامتعة تتاجرون بها واراضٍ تؤجرونها لتخزنوا خيراتها ؟ ام لعله اوصى لكم بعرق اخوانكم ودمائهم ثم بالسجون للذين تعصرون آخر نقطة من عرقهم وتمتصون آخر قطرة من دمائهم ؟

انه ما اوصى لكم الا بفلك ومذبح ونار - ليس اكثر . بالفلك التي هي جسده الحي . وبالمذبح الذي هو قلبه الباسل . وبالنار التي هي ايمانه المتوقّد. وهذه قد اوصاكم ان تحفظوها سليمة وطاهرة في وسط عالم يرقص لزمّارات الموت ويتخبّط ، اذ يرقص ، في مستنقعات الاثم لقلة ايمانه .

ولئلا تلهيكم مطالب الجسد عن مشاغل الروح، أبيح لكم ان تعيشوا من احسان المؤمنين . ومنذ تأسيس الفلك ما شكوتم يوماً قلة الاحسان .

فماذا كان منكم ؟ لقد حولتم الاحسان الى لعنة سواء لانفسكم وللمحسنين .

فها انتم بعطايا الناس تستعبدون الناس . ها انتم تجلدونهم بسياط تحبكونها من الخيوط التي يغزلونها لكم . وتعرّونهم بعين الانسجة التي ينسجونها ثياباً لكم . وتميتونهم جوعاً بقوّة الخبز الذي يخبزونه لكم . وتبنون لهم سجوناً من الحجارة عينها التي يقطعونها لكم . وتنجّرون لهم انياراً وتوابيت من الاخشاب التي يجمعونها لتجميل مساكنكم وتدفئتها . ثم تعودون فتُدينونهم حتى عرقهم ودماءَهم بالربا .

اذ ما هو المال ؟ انما المال عرق الناس ودماؤهم يسكّها الدهاة دراهمَ ودنانير ليكبّلوا بها الناس . وما هو الغنى ؟ انما الغنى عرق الناس ودماؤهم يختزنها اقل الناس عرقاً ونزيفَ دمٍ ليرهقوا بها ظهور من كانوا اكثر الناس عرقاً ونزيفَ دم .

الويل ثم الويل للذين يحرقون افكارهم وقلوبهم وينحرون ايامهم ولياليهم في سبيل خزن المال ، فهم لا يعرفون ماذا يخزنون .

انهم ليخزنون عرق المومس والقاتل والسارق ، وعرق المصدور والمجذوم والمشلول ، وعرق الضرير والكسيح والمشوّه مع عرق الحرّاث وثوره ، والراعي ونعجته ، والحاصد وجامع اللقاطة — هذا وكثير من جنسه مما يخزنه خازنو الأموال .

انهم ليخزنون دم اليتيم والشقيّ ، ودم الطاغية والشهيد ، ودم الشرير والصالح مع دم السالب والمسلوب ، ودم السيّاف ومن يفري عنقَه بسيفه ، ودم المكّار وفريسة مكره ، وهاتك العرض ومهتوكه — هذا وكثير من نوعه ما يخزنه خازنو الأموال .

بلى . الويل ثم الويل للذين ثروتهم وبضاعتهم عرق الناس ودماؤهم . اذ لا بدّ للعرق والدم من ان يطالبا بثمنهما في النهاية . ويا للثمن ما ابهظه ، وللمطالبة ما اقساها !

أدين وبالربا ؟ انه الكفر بالنعمة خالع العذار الى حدّ ان الصفح عنه كفر .

اذ ماذا عساكم تملكون لتُدينوا ؟ اليست ذات حياتكم عطية ؟ ولو ان الله شاء يوماً ان يفرض عليكم ربا عن اقل هباته لكم واصغرها فماذا عساكم تدفعون ؟

اليس هذا العالم خزانة مشتركة يودعها كل انسان وكل شيء جميع ما عنده لاعالة الجميع ؟

اتُدينكم القبّرة اغاريدها ، والينبوع مياهه الرقراقة ؟

اتقرضكم السنديانة فيئها الناعم ، والنخلة تمرها المعسول ؟

ايعطيكم الكبش صوفه ، والبقرة لبنها لقاء ربا معلوم ؟

ام تبيعكم المزن غيثها ، والشمس حرارتها ونورها ؟

ولولا هذه الاشياء وربوات سواها من أين كان لكم ان تحيوا ؟ ومن منكم في امكانه ان يقول اي انسان ، او اي شيء ، وضع الاكثر او الاقل في خزانة العالم المشتركة ؟

افي امكانك يا شمادم ان تحصي كل ما اسداه وسيسديه الى خزانة الفلك ؟ وها انت ، رغم ذلك ، تُدينه عطاياه — او قسماً ضئيلاً منها — وتفرض عليه الربا علاوة . بل ها انت لا تحجم عن ان تبعث به الى السجن لينتن فيه !

ايّ ربأ عساك تطلب من رستيدبون ؟ الا ترى ما كان اعظم نفعه من دَينك ؟ وماذا تريده ان يدفع لك اكثر من وحيده الميت ، وبقرتـه الميتة ، وزوجه المفلوجة ؟ وبأيّ ربا عساه يأتيك أوفى من هذه الاسمال على ظهر محدودب كظهره ؟

آهٍ لك يا شمادم ! ألا افرك عينيك . الا استيقظ قبل ان تطالَب انت كذلك بايفاء ما عليك مع الربا ، فلا تجد مـا تدفعه ، فتُجَرّ الى السجن وتُترك هناك حتى تنتن .

انّ ما اقوله لشمادم اقوله لجميع الرفاق : افركوا اعينكم واستيقظوا .

اعطوا بسخاء ما امكنكم الاعطاء . ولكن اياكم ان تُدينوا مخافـة ان يصبح كل ما لكم ، حتى حياتكم ، ديناً عليكم ، وان يستحق الدين في الحال ، واذ تعجزون عن الايفاء يُشهر افلاسكم وتساقون الى السجن وتتركون هناك حتى تنتنوا .

**ناروندا** : قال المعلم ذلك والتفت ثانية الى الورقة في يده ثم اخذ يمزقها بتأنٍّ نتفاً نتفاً ويذروها في الهواء . وعندهـا اتجه الى هِمْبال الذي كان امين صندوق الفلك وقال له :

**مرداد**

اعطِ رستيدبون من المال ما يكفيه لشراء بقرتين ولاعالة زوجه ونفسه حتى آخر حياتهما .

امّا انت يا رستيدبون فقد أُعفيت من دينك . فانطلق بسلام . وإياك ان تصبح يوماً من الايام دائناً . فدَيْنُ من يُدين لأفدح بكثير مِن دَين مَن يستدين .

# الفصل السابع عشر

شمادم يلجأ الى الرشوة في حربه ضد مرداد

**نروندا :** لأيام عديدة تلت ذلك بقيت حكاية رستيديون أهمّ موضوع للرفاق في أحاديثهم . فكان ميكايون وميكاستر وزمورا يُطرون صنيع المعلم بجدّة وحماسة . لا سيما زمورا الذي كان يقول انه يكره حتى ان يلمس المال بيده . أمّا بنّون وابيار فما تطرفا لا في المدح ولا في الذمّ . بينا همبال كان يلوم المعلم جهراً قائلاً ان لا حياة للعالم بدون المال ، وان الغنى ليس سوى مكافأة من الله لذوي الجدّ والاقتصاد ، وان الفقر قصاص عادل من الله لأهل الكسل والتبذير ، وأنه حتى نهاية الزمان سيبقى في الناس الدائنون والمدينون .

وكان شمادم في تلك الاثناء منصرفاً الى رأب ما تصدّع من نفوذه وسلطان رئاسته . فقد دعاني مرةً اليه وفي عزلة مخدعه خاطبني هكذا :

« أنت كاتب الفلك ومؤرخها . وانت ابن رجل فقير . فأبوك لا يملك ارضاً . وعنده سبعة اولاد وزوج عليه ان يكدح لسدّ عوزهم . فلا تدوّن ولا كلمة من هذا الحادث المشؤوم لئلا يطّلع عليها الآتون من بعدنا فيجعلوا من شمادم مضحكة . اهجر هذا المشعوذ مرداد وأنا أجعل أباك ملاّكاً بدلاً

من ان يكون شريكاً ، واملأ اهراءه بالحبوب وخزائنه بالمال . »

فأجبته على ذلك بقولي ان الله أقدر من شمادم على اعالة والدي وعيلته. واما بشأن مرداد فانا أعترف به معلّماً ومخلّصاً واؤثر ان اهجر حياتي قبل ان اهجره . واما بشأن سجلّ الفلك فقد قطعت على نفسي عهداً بان أحفظه سليماً من كل غش ومحاباة ولن أنكث عهدي .

وقد علمت فيما بعد ان شمادم عرض على كل واحد من الرفاق مثيل ما عرضه عليّ . لكنني ما دريت الى أي حدّ نجحت مساعيه . والذي لحظته هو ان همبال أخذ يتخلّف أحياناً عن حضور اجتماعاتنا في وكر النسور .

•

# الفصل الثامن عشر

مرداد بعلمه للغيب يذيع وفاة والد همبال وظروفها ثم يكلمنا في الموت. الزمان اكبر المشعوذين. دولاب الزمان واطاره ومحوره

كانت قد انحدرت مياه كثيرة من اعالي الجبال وانسابت الى البحر يوم كان الرفاق – ما خلا همبال – مجتمعين حول المعلم في وكر النسور .

وكان المعلم يحدثنا عن « الارادة الكلية » وبغتة توقف عن الحديث ثم قال :

**مرداد** همبال في ضيق ، ويود ان يأتي الينا طلباً للفرج . لكن رجليه تخجلان من أن تحملاه الينا . فاذهب يا ابيار واسعفه الى هنا .

**نروندا** : فانطلق ابيار وعما قليل عاد ومعه همبال . وكان همبال يبكي كالطفل ووجهه كأنه التعاسة بعينها .

**مرداد** اقترب مني يا همبال . همبال ، همبال ! واأسفي عليك ! ألأن اباك مات تأذن للحزن بأن ينهش قلبك نهشاً ويحوّل دمه دمعاً؟ فماذا عساك تفعل عندما تموت اسرتك كلها ؟ ماذا عساك تفعل عندما ينسحب كل آباء العالم وأمهاته ، واخوانه واخواته ، الى حيث لا تصل يدك ولا

ينفذ بصرك ؟

**همبال** : اجل يا معلم . ان ابي قد مات ميتة فظيعة . فالثور الذي كان قد ابتاعه منذ ايام انقضّ عليه مساء امس فبقر جوفه وحطّم جمجمته . وقد ابلغني الرسول هذا الخبر منذ دقائق لا غير فمن اين عرفته انت ؟ ويحي ويحي انا المنكود الطالع !

**مرداد** ويلوح ان اباك فارق العالم في الحين الذي أوشكَتْ فيه سعود العالم ان تفترّ له عن ثغورها الفتانة .

**همبال** : انه لكذلك يا معلم . انه لكذلك بالتمام .

**مرداد** ويلوح ان موته يؤلمك زيادة لانه ابتاع الثور الذي بقره بالمال المرسل منك اليه .

**همبال** : انه لكذلك يا معلم. انه لكذلك بالتمام. فكأنك عليم بكل شيء.

**مرداد** وذلك المال كان ثمن محبتك لمرداد .

**نروندا** : عندها اختنق همبال بدموعه فلم يبقَ في امكانه ان يحرك لسانه .

**مرداد** ما مات والدك يا همبال . ولا مات بعدُ شكله وظله . وإنما حواسك أمست ميتةً تجاه التغيُّر الطارىء على شكل والدك وظله . فهناك اشكال نحيفة وظلال خفيفة الى حدّ ان عين الانسان الخشنة لا تستطيع تمييزها .

ان ظلّ ارزة في الغابة ليس كظلّ تلك الارزة عينها وقد اصبحت

صارية على مركب ، او عموداً في هيكل ، او دعامة لمشنقة . لا ولا ظل تلك الارزة في الشمس كظلها في ضوء القمر او النجوم او عند ابتلاج الفجر .

لكن تلك الأرزة مهما تبدّلت احوالها ، تبقى ارزة وان انكرتها اخواتها اللواتي كانت وإياهن في الغابة .

أتعرف دودة القز التي ترعى ورقة التوت ان الورقة في الفيلجة بجانبها كانت فيما مضى اختاً لها ؟ ام تعرف الورقة في الفيلجة ان الفراشة المرفرفة بقربها كانت اختاً لها منذ هنيهة ؟

أتعرف حبة قمح في التراب القربى التي بينها وبين سنبلة فوق التراب ؟

أتعرف الأبخرة التي في الهواء ، والمياه التي في البحار ، صلة الرحم التي تربطها بعناقيد الجليد المدلاّة من شقوق الكهوف في الجبال ؟

أتعرف الأرض ان في النيزك المنقضّ عليها من مجاهل الفضاء نجمة شقيقةً لها ؟

أتبصر السنديانة نفسها في بلوطتها ؟

ولأن والدك اليوم في نورٍ ما تعودته عيناك، وفي شكل لا تستطيع ان تميزه ، تقول ان أباك غير موجود. لكن ذات الانسان المحسوسة ، مهما تبدلت اشكالها ، وكيفما تقلبت أحوالها ، لا بدّ لها من ان تطرح ظلاً. وستبقى كذلك الى ان تتلاشى في ذات الانسان الالهية .

ان قطعة من الخشب ، أكانت جذعاً نضراً من شجرة ، ام وتداً يابساً في حائط، تبقى خشبة معرضة للتحوّل الى ان تلتهمها النار التي في جوفها. كذلك الانسان يظلّ انساناً ، حياً كان أم ميتاً ، الى ان يلتهمه الاله الكامن في قلبه .

اي الى ان يفهم وحدته مع الواحد الأحد. لكن ذلك لا يتم له في تلك اللمحة من الزمان التي تعوّد الناس ان يدعوها عمراً .

ان كل الزمان لعمر واحد ، يا رفاقي .

ما من وقفات في الزمان ولا وثبات . ولا فيه فنادق تستريح فيها القوافل من عناء السفر وتتناول المرطبات والمنعشات .

انما الزمان دوام يلتوي على ذاته . فمقدمته مقطورة أبداً بمؤخرته . فليس فيه ما ينتهي ويندثر . ولا فيه ما يبتدىء وينتهي .

انما الزمان دولاب خلقته الحواس ثم أطلقته يدور في مفاوز الفضاء .

انتم تحسّون تقلّب الفصول المدهش ولذلك تعتقدون ان كل شيء عرضة للتقلب. الا انكم ، رغم ذلك ، تعترفون بان القدرة التي تنشر الفصول وتطويها هي ابداً هي .

وأنتم تحسّون نموّ الأشياء وانحلالها، ولذلك يسطو عليكم اليأس فتعلنون ان الانحلال هو نهاية كل ما ينمو تحت الشمس. الاّ انكم، رغم ذلك، تقرّون بان القدرة التي تعمل على النموّ والانحلال هي ذاتها لا تنمو ولا تنحلّ .

وانتم تحسّون سرعة الريح بالنسبة الى النسيم . فتقولون ان الريح أسرع من النسيم بما لا يقاس . الا انكم ، رغم ذلك ، تسلّمون بان محرك الريح والنسيم واحد ، وانه لا يعدو مع الريح ولا يحبو مع النسيم .

يا لسذاجتكم ما اسرع انخداعها بكلّ ما تجترحه حواسكم الخدّاعة من شعوذات ومكائد! ألا اين خيالكم ؟ فبه وحده تعرفون ان كل ما تبصرونه من تقلّب الأشياء وتغيّرها ليس سوى خفّةِ يدٍ وخديعة .

كيف للريح ان تسبق النسيم ؟ أليس انّ النسيم يلد الريح ؟ أليس ان الريح تحمل النسيم أنّى اتجهت ؟

ايها الماشون على الارض ، كيف لكم ان تقيسوا ما تقطعونه من المسافات بالخطوات والفراسخ ؟ فسواء أمشيتم الهوينا ام عدوتم عدواً ألستم محمولين بسرعة الارض الى الاجواء والارجاء المسوقة اليها الارض ؟ أليست مشية الارض ، اذنْ ، مشيتكم ؟ أليست الارض ذاتها محمولة بسرعة سائر الاجرام ، فلا اسرعهنّ بأسرع منها ، ولا ابطأهنّ بابطأ منها ؟

حقاً ان البطيء هو والد السريع . والسريع هو حامل البطيء . والسريع والبطيء لا ينفكان معاً في كل لمحة من الزمان ونقطة من المكان .

كيف تقولون ان النموّ نموّ ، والانحلال انحلال ، وان الواحد عدوّ الآخر ؟ أتعرفون شيئاً نما إلاّ من شيء انحل ؟ ام تعرفون شيئاً انحلّ إلاّ من شيء كان ينمو ؟

ألستم تنمون اذ تنحلّون ، وتنحلّون اذ تنمون ؟ أليس الاموات تربة الاحياء ، والاحياء اهراء الاموات ؟ ان يكن النموّ وليد الانحلال ، والانحلال وليد النموّ ؛ او تكن الحياة اماً للموت ، والموت اماً للحياة ، اذن كان الاثنان واحداً في كل لمحة من الزمان وكل نقطة من المكان ؛ واذن كان فرحكم للحياة والنموّ سخافة نظير ما هو حزنكم للموت والانحلال .

كيف تقولون ان الخريف وحده من بين كل الفصول هو فصل العنب ؟ اقول لكم ان العنقود لناضج في الشتاء كذلك حين لا يكون غير عصارة لا تبصَر ، تتململ في احشاء الكرمة وتحلم احلامها . وهو ناضج كذلك في الربيع

عندما يبرز حبيبات متلاصقة من الزمرّد ؛ وكذلك في الصيف عندما تنتفخ الحبيبات وتتلوّن خدودها بقبلات الشمس الذهبية . ان يكن كل فصل حاملاً في قلبه الفصول الثلاثة الاخرى ، اذنْ كانت الفصول كلها فصلاً واحداً في كل لمحة من الزمان وكل نقطة من المكان .

اجل ، ان الزمان لأعظم مشعوذ . وان الانسان لأعظم غرير .

ما اشبه الانسان بالسنجاب في دولاب . فالسنجاب ، اذ يحاول الفرار من الدولاب ، يدفعه على الدوران بسرعة فائقة . فينسى انه الدافع على الحركة ويعزوها الى الدولاب . ثم هو يبقى مكانه ، ويظن ، مع ذلك ، انه يتحرك بسرعة الدولاب . وهكذا الانسان يدفع دولاب الزمان على الدوران فينسحر بسرعة الحركة الى حدّ ان ينسى انه مولّدها ، والى حدّ انه لا يجد من وقته متسعاً لوقف دوران الوقت .

بل ما اشبه الانسان بالهرّ يلحس المبرد فيتلمظ بالدم السائل من لسانه ظانّاً انه يسيل من المبرد . فالانسان يلحس دمه السائل على إطار دولاب الزمان ويمضغ لحمه الممزق بشعاع دولاب الزمان ظانّاً انهما دم الزمان ولحمه .

ان دولاب الزمان لا ينفك عن الدوران في مجاهل الفضاء وقد علقت باطاره كل الاشياء التي في استطاعة الحواس ان تتناولها ، تلكمُ الحواس التي لا تتناول من الاشياء إلاّ ما كان ضمن زمان ومكان . وهكذا تبدو الاشياء للحواس ثم تغيب . فما غاب منها عنكم في هذه الآونة وهذا المكان اطلّ على غيركم في ذات هذه الآونة ولكن في غير هذا المكان . ان ما هو فوقكم ههنا هو تحت سواكم هنالك . وان نهاركم هذا لليل لسواكم . وذلك بحسب

مركزكم ومركز سواكم في الزمان والمكان .

واحد هو سبيل الموت والحياة على اطار دولاب الزمان ايها الرهبان . لان الحركة في دائرة لن تبلغ يوماً منتهاها او تصرف قواها . وكل ما في العالم من حركات ليس سوى حركات في دوائر .

أيستحيل ، اذن ، على الانسان ان يُفلت من دائرة الزمان المسحورة ؟ اقول لكم انه سيفلت لانه وارث الحرية المقدسة التي هي حرية الله .

ان دولاب الزمان ليدور ، اما محوره فهادىء ابداً .

الله هو المحور في دولاب الزمان الذي تدور عليه سائر الاشياء في الزمان والمكان اما هو فلا يدور ولا يعرف زماناً او مكاناً . من **كلمته** تنبثق الاشياء كلها وكلمته ، مع ذلك ، مثله – لا تدور ولا تعرف زماناً او مكاناً .

في المحور سكينة ابدية . وعلى الاطار حركة صاخبة . فأين تؤثرون ان تكونوا ؟ اقول لكم : ازحلوا من اطار الزمان الى محوره واريحوا انفسكم من غثيان الحركة . دعوا الزمان يدور عليكم . اما انتم فلا تدوروا على الزمان .

•

## الفصل التاسع عشر

في المنطق والايمان . نكران الذات هو تثبت الذات .
كيف تقف دولاب الزمان عن الدوران . في البكاء والضحك

**بنون :** ليغفر لي المعلم قولي ان منطقه يحيّرني اشد الحيرة بقلة ما فيه من منطق .

**مرداد** لا عجب أن لُقّبتَ بالقاضي يا بنون .

فانت تصرّ على المنطق في الدعوى المعروضة عليك قبل ان تعطي حكمك فيها . أعالجتَ القضاء طيلة هذه السنين فما عرفت حتى الآن ان لا نفع للانسان من المنطق الا ّ ليخلص منه الى الايمان المؤدي الى الفهم ؟

انما المنطق فكر ما بلغ اشدّه . فما يزال يحوك شباكاً من الخيتعور آملاً ان يصطاد بها بَهموت المعرفة . لكنه لا يبلغ اشدّه حتى يخنق نفسه بشباكه واذ ذاك يتحوّل ايماناً . والايمان معرفة صرف .

المنطق عكاز للمقعد . ولكنه عبء على العدّاء . وعبء افدح من ذلك على ذي الجناح .

وانت يا بنون ، من بعد ان يبلغ فكرك اشدّه – ولا بدّ له من

ذلك – لن تذكر المنطق بلسانك .

**بنون** : اما قلتَ انه من الافضل للانسان ان ينزلج من اطار الزمان الى محوره – من الحركة الى السكون ؟ ومعنى ذلك انّ على الانسان ان ينكر نفسه ؛ ايستطيع احد ان ينكر وجوده ؟

**مرداد** اجل . لا بد لكم ، ان شئتم الوصول الى المحور ، من نكران الذات التي هي العوبة في يد الزمان ، وتثبيت الذات التي لا تطالها شعوذات الزمان .

**بنون** : ايكون نكران الذات تثبيتاً للذات ؟

**مرداد** بلى . فما نكران الذات المحدودة الاّ تثبيت الذات التي لا تحدّ . فمتى مات الانسان للتحوّل وُلد لعدم التحوّل . ان معظم الناس يحيون ليموتوا . طوبى لمن يموتون ليحيوا .

**بنون** : ولكن ذات الانسان لجدّ عزيزة لديه . فكيف له ان يَغرق في الله من غير ان يفقد شعوره بذاته ؟

**مرداد** ألعلّها خسارة للجدول ان يُضيع ذاته في البحر فيصبح البحرُ ذاته ؟ وضياع الانسان في الله ليس باكثر من ضياعه ظلّه ليجد كنه وجوده الذي لا ظلّ له .

**ميكاستر** : كيف للانسان ، وهو خليقة الزمان ، ان يتملّص من قيود الزمان ؟

**مرداد** مثلما ستنعتقون من الموت بالموت ، ومن الحياة بالحياة ، هكذا ستتحررون من الزمان بالزمان .

فالانسان سيملّ التغيّر والتحوّل الى حدّ ان يتوق بكل جوارحه ، ويتوق بغير انقطاع ، الى ما هو اقوى وامنع من التغيّر والتحوّل . وذلك سيجده في نفسه من غير شك .

ألا ّ بشّروا التّواقين انهم قد بلغوا عتبة الحرية . فعنهم افتش ، ومن اجلهم اعلتم . ألَم اختركم لانني سمعت نداء اشواقكم ؟

اما الذين يدورون مع الزمان دوراته مفتشين فيها عن راحتهم وانعتاقهم فالويل لهم . اولئك ما ابتسموا يوماً للولادة الا ّ أكرهوا على البكاء للموت . ولا شبعوا يوماً حتى جاعوا . ولا اقتنصوا يوماً حمامة السلام الا ّ انقلبت في ايديهم غداقاً للحرب . ولا ازدادوا معرفة موهومة الا ازدادوا جهلا اكيداً . ولا تقدموا خطوة الا تقهقروا خطوات . ولا ارتفعوا فتراً الا ّ انخفضوا اذرعاً .

اولئك لن يحفلوا بكلام مرداد . بل يكون كلامه همساً مبهماً ومزعجاً لآذانهم ، ويكون كالصلاة في بيت المجانين ، وكالمشاعل الموقدة امام العميان . وهم لن يفتحوا آذانهم لمرداد حتى تتوق ارواحهم كذلك الى الحرية .

**همبال :** ( باكياً ) لقد فتحتَ يا معلم لا عينيّ فحسب بل وقلبي ايضاً . فاصفح عن همبال الذي ما كان امس غير اطرش واعمى .

**مرداد** كفكف دموعك يا همبال . فلا تلبق الدموع بعين تفتش عن آفاق ابعد من آفاق الزمان والمكان .

دع الذين يضحكون عندما تدغدغهم اصابع الزمان يبكون عندما تمزق اظافره جلودهم .

دع الذين يرقصون ويغنّون لبهجة الشباب يتجفون ويئنون لتجاعيد الشيخوخة .

دع الهازجين في اعياد الزمان يعفّرون جباههم ويذرّون الرماد على رؤوسهم في مآتمه .

اما انت فكن هادئاً ابداً . وفتش في تغيّرات الزمان عن الذي لا يتغيّر .

ليس في الزمان ما هو جدير بدمعة . مثلما ليس فيه ما هو جدير ببسمة . انما الوجه الضاحك والوجه الباكي لمتساويان في البشاعة والتشويه .

اتودّون ان تتحاشوا حرقة الدمع ؟ اذنْ تحاشوا سكرة الضحك .

يتبخر الدمع فيغدو ضحكاً . ويتكاثف الضحك فيمسي دمعاً .

اما انتم فلا تتبخّرنّ قلوبكم بالفرح ، ولا تتكمشنّ بالحزن . بل كونوا في طمأنينة معصومة عن الاثنين .

•

# الفصل العشرون

### أين نمضي بعد الموت ؟ في التوبة

**ميكاستر** : اين نمضي يا معلم بعد الموت ؟

**مرداد** اين انت الآن يا ميكاستر ؟

**ميكاستر** : في وكر النسور .

**مرداد** أتظن وكر النسور من السعة بحيث يستطيع ان يسعك ؟ أتظن ان لا مسكن للانسان إلاّ الارض ؟

ان اجسادكم ، وان تكن ضمن اطار من الزمان والمكان ، لمركّبة من كل ما في المكان والزمان . فما كان منها مأخوذاً من الشمس عاش في الشمس . وما كان مأخوذاً من الارض عاش في الارض . وهكذا ما كان مأخوذاً من سائر الاجرام وما بينها من الفراغ .

انما الجاهل وحده يظن ان لا مسكن للانسان الاّ الارض ، وان ربوات الاجرام السابحة في الفضاء ليست سوى زينة لمسكن الانسان وألهوّة لعينيه .

ما سكن الانسان الارض إلاّ سكن معها نجمة الصبح والمجرّة والثريا. فهذه ما لمست عينيه بشعاع من اشعتها إلاّ رفعته اليها . وهو ما مشى تحتها إلاّ اجتذبها اليه .

كل ما في الكون متداخل بعضه في بعض . فالكون كله في الانسان. وكل الانسان في الكون . ثم ان الكون جسد واحد. فما لمستم اقلّ اجزائه إلاّ لمستموه بكامله .

ومثلما تموتون موتاً مستمراً وانتم احياء، كذلك تحيون حياة مستمرة وانتم اموات ، ان لم يكن في هذا الجسد ، ففي جسد شكله غير شكل هذا . لكنكم لا تنفكون تحيون في جسد ما الى ان تتلاشوا في الله . وبكلمة اخرى ، الى ان تتغلبوا على كل تغيّر وتحوّل .

**ميكاستر** : انعود الى هذه الارض ابّان تنقّلنا من حالة الى حالة ؟

مرداد التكرار هو سنّة الزمان . فلا بد لما حدث مرّةً في الزمان من ان يعود فيحدث غير مرّة .

اما طول الفترات وقصرها ما بين العودة والعودة فموقوف ، فيما اختصّ بالانسان ، على ارادة كل انسان وشدّة رغبته في التكرار .

فعندما تخرجون من الدورة المدعوّة حياةً الى الدورة المدعوّة موتاً حاملين معكم عطشاً الى الارض لمّا يرتوِ وجوعاً لمّا يشبع ، حينئذٍ تعود الارض فتجذبكم الى صدرها من جديد . وهكذا تعود الأرض ترضعكم ، والزمان يفطمكم حياةً تلو حياة وموتاً بعد موت الى أن تفطموا انفسكم الفطام الاخير بملء ارادتكم ومن تلقاء نفوسكم .

**ابيار** : أللأرض سلطان عليك كذلك، يا معلم؟ فما انت تبدو كما لو كنت واحداً منّا .

**مرداد** : اني اجيء حين اشاء . واذهب حين اشاء . وانا اجيء لاعتق شركاء الارض من عبوديتهم للارض .

**ميكايون** : اريد ان افطم نفسي الى الابد عن ثدي الارض . فكيف السبيل الى ذلك ، يا معلم ؟

**مرداد** : السبيل هو ان تحبّ الارض وكلّ ما تُرضعه الارض . فعندما لا يبقى من رصيد حساب بينك وبين الارض غير المحبّة ، حينئذٍ تعتقك الارض من كل دَين لها في ذمتك .

**ميكايون** : لكنما المحبة رباط ، والرباط قيد وعبودية .

**مرداد** : كلا . بل المحبة انعتاق من كل رباط . فانت عندما تحب كل شيء لا تبقى مرتبطاً بشيء .

**زمورا** : ما منّا مَن ليس يخطيء ضد المحبّة . افي استطاعتنا ان نغسل بالمحبة خطايانا ضد المحبة كيما نخلص من تكرارها حياة بعد حياة وهكذا نقف دولاب الزمان عن الدوران ؟

**مرداد** : ذلك تدركونه بالتوبة. ان لعنة تقذف بها شفاهُكم تدور دورتها ثم تعود حتماً الى شفاهكم . لكنها اذا ما وجدت شفاهكم مغسولة بالبركات راحت تفتش لها عن شفاه تستقرّ عليها غير شفاهكم. وهكذا تقف المحبة تكرار تلك اللعنة .

وان نظرة فاسقة تنطلق من عيونكم تدور دورتها ثم تعود حتماً الى

عيونكم . لكنها اذا ما وجدت العين التي انطلقت منها طافحة ً بنظرات المحبة راحت تفتش لها عن عين فاسقة تلجأ اليها . وهكذا تقف المحبة حاجزاً في وجه عودة تلك النظرة الفاسقة .

وان ّ امنيـة شرّيرة تطير من قلبٍ شرير تدور دورتها ثم تعود حتماً الى القلب الذي طارت منه . لكنها اذا ما وجدته مرصوفاً باماني المحبة راحت تفتش لها عن وكر آخر تبيض فيه وتنقّر . وهكذا تعرقل المحبـة تجديد تلك الشهوة .

تلك هي التوبة .

لا يستطيع الزمان ان يكرّر لكم الا ّ المحبة عندما لا يبقى لكم من رصيد حساب غير المحبة . ومتى كان ما يكرره الزمان واحداً لا يتبدّل في الزمان والمكان ملأ الزمان والمكان . وهكذا محا الاثنين .

**همبال** : لكن هناك سؤالاً واحداً يا معلم ما يزال يعذب قلبي ويشوش افكاري وهو هذا : لماذا مات والدي تلك الميتة لا سواها ؟

•

# الفصل الحادي والعشرون

في الارادة الكلية المقدسة. لماذا تحدث الأحداث
في الحالات والظروف التي تحدث فيها؟

**مرداد** انه لمن الغرابة بمكان انكم، وانتم ابناء المكان والزمان، ما عرفتم بعدُ ان الزمان هو الذاكرة الكلية المحفورة على ألواح المكان.

فان كنتم، وانتم مقيدون بالحواس، تذكرون بعض ما يمرّ بكم بين الولادة والموت، فكيف بالزمان الذي كان من قبل ان تولدوا ويبقى من بعد ان تموتوا؟

اقول لكم ان الزمان يذكر كل شيء على الاطلاق. فهو لا يذكر ما تذكرونه فحسب. بل يذكر كل ما سهوتم عنه كذلك. اذ لا سهو في الزمان ولا نسيان. فهو لا ينسى أقلّ حركة، او تنفّس، او هوًى عابر. وكل ما تخزنه ذاكرة الزمان محفورٌ في كل شيء يحتويه المكان. فلو كانت لكم المقدرة على القراءة وعلى فهم ما تقرأون لقرأتم في الأديم الذي تطأونه، والهواء الذي تتنفسونه، والبيوت التي تسكنونها سجلاّت صادقة لحياتكم في أدقّ تفاصيلها،

ما فات منها وما سيأتي .

ما مرّت بكم لحظة واحدة ، لا في الحياة ولا في الموت ، كنتم في عزلة فيها عن سائر المخلوقات . فأنتم في اتصال دائم مع الكائنات التي لها حصة في حياتكم وموتكم نظير ما لكم حصة في موتها وحياتها . فمثلما تأخذون منها تأخذ منكم . ومثلما تفتشون عنها تفتش عنكم .

ما كان للانسان ارادة في كل شيء إلا كان لكل شيء ارادة في الانسان . فالتبادل مستمر ما استمر الزمان والمكان . لكنما ذاكرة الانسان عرضة للسهو والنسيان فلا تتمكّن من ضبط حساباتها . على عكس ذاكرة الزمان التي تضبط بأقصى الدقة كل الحسابات الناتجة عن علائق الانسان باخوانه الناس وبكل الكائنات ، ثم تجبره على تصفية حساباته في كل طرفة عين ، حياةً تلو حياة ، وموتاً بعد موت .

صدّقوا انه ما انقضّت صاعقة على بيتٍ فهدّته الا لأنّ البيت جذبها اليه . فالبيت ليس بأقلّ مسؤولية عن هدّه من الصاعقة .

وما بقرَ ثورٌ رجلاً الا لأنّ ذلك الرجل دعا الثور ليبقره . فالرجل مطالَب بدمه اكثر من الثور .

ولا طعن رجل رجلاً بمدية فأرداه الا من بعد ان شحذ القتيلُ مدية القاتل وساعده في توجيه طعنته النجلاء .

ولا سلب لص رجلاً الا من بعد ان درّب المسلوبُ خطى السالب فكان شريكه في السلب .

اجل . ان الانسان ليدعو اليه رزاياه ثم يتبرّم بضيوفه ناسياً الاحوال ،

وظروف الزمان والمكان التي فيها حبّر دعوته وأرسلها في سبيلها . أمّا الزمان فما نسي ولن ينسى . فهو يبلّغ كل مدعوٍّ دعوته في حينها . ثم يقوده الى بيت الوليمة .

استقبلوا ضيوفكم ، مهما تكن اخلاقهم وهيئاتهم ، بأقصى ما تقضي به الضيافة من اللطف والايناس . فما هم في الواقع غير دائنيكم وقد جاؤوا يستوفون حقهم . اعطوا من كان أشرسهم خلقاً فوق ما يستحق كيما ينصرف عنكم شاكراً وراضياً.حتى اذا ما زاركم مرة ثانية كانت زيارته زيارة صديق لا زيارة دائن .

ألا احسنوا الضيافة واكرموا وفادة كل مدعوٍّ من مدعويكم كما لو كان ضيف الشرف . فلعلكم بذلك تكسبون ثقته فيبوح لكم بما خفي عنكم من دواعي زيارته . اقتبلوا التعاسة كما لو كانت سعادة . فالتعاسة اذا ما فهمتموها انقلبت حالاً الى سعادة. والسعادة اذا ما أسأتم فهمها انقلبت الى تعاسة.

انكم تختارون ولادتكم مثلما تختارون وفاتكم ، وتختارون احوال الاثنتين وظروف زمانها ومكانها . وذلك رغم ما ينتاب ذاكرتكم من السهو ، تلكم الذاكرة التي ليست سوى شبكة واسعة الثقوب من الأكاذيب والاباطيل .

يقول لكم ادعياء المعرفة ان لا بد للانسان على الاطلاق في ولادته وموته . أما الكسالى الذين يلوصون على الزمان والمكان من خلال وقب العين الضيّق فيغريهم القول بان أكثر ما يحدث في الزمان والمكان ليس سوى مصادفات عمياء . ألا حذار يا رفاقي من غرورهم وخداعهم ، حذار .

ما من مصادفات في الزمان والمكان. بل كل ما هنالك مسوق ومنظّم اتم التنظيم بالارادة الكلية التي لا تخطىء في شيء ولا تسهو عن شيء .

ونظير ما تتجمع قطرات الغيث فتغدو ينابيع ؛ وتنساب الينابيع جداول وسواقي ؛ وتنصبّ الجداول والسواقي في الانهر الكبيرة ؛ وتحمل الانهر الكبيرة مياهها الى البحر ؛ وتتصل البحار فتؤلف المحيط الاكبر، هكذا تنسكب ارادة كل مخلوق – حيواناً كان ام جماداً ام انساناً – في محيط الارادة الكلية .

اقول لكم ان لكل شيء ارادة . حتى الحجر الاصم الابكم ، الذي لا حياة له في الظاهر ، ليس بغير ارادة . فلو لم تكن له ارادة لما كان ، ولما أثّر وجوده في شيء ولا تأثر بشيء . اما وهو يؤثر ويتأثر فهو ذو ارادة من غير شك . وما الفرق بين حسّه بارادته ووجوده وبين حسّ الانسان بارادته ووجوده الاّ في الكميّة لا في الجوهر .

ماذا عساكم تعون من حياة يوم واحد من ايامكم ؟ انكم لا تعون منها الا اليسير اليسير . اما ما بقي فأعمق من وعيكم وابعد . فان كنتم ، وانتم مجهزون بدماغ وذاكرة وباساليب تساعدكم على تدوين افكاركم ومشاعركم ، لا تعون القسم الاكبر من حياة يوم واحد ، فما بالكم تعجبون للحجر لا يبدي وعياً لما فيه من حياة وارادة ؟

ومثلما تحيون وتتحركون من غير ان تعوا اكثر ما في حياتكم وحركاتكم ، هكذا تريدون اموراً كثيرة من غير ان تعوا كل ما تريدون . اما الارادة الكلية فتعي ما لا تعون من ارادتكم وما لا تعيه سائر الكائنات

من ارادتها .

واذ تعود الارادة الكلية فتوزع ذاتها جرياً على عادتها في كل لمحة من الزمان وكل نقطة من المكان ، تردُّ لكل انسان وكل شيء ما اراده ذلك الانسان وذلك الشيء واعياً او غير واعٍ ، وتردّه من غير زيادة او نقصان . الاّ ان الناس يجهلون نظام الارادة الكلية . فيهولهم ما ينزل عليهم من كشكولها الحاوي كل شيء . ثم يعترضون عليه يائسين ويعزون هولهم ويأسهم الى القدَر الطائش .

ليس الطيش في القدَر أيها الرهبان . فما القدر غير اسم آخر من اسماء الارادة الكلية . انما الطيش في ارادة الانسان الهوجاء ، السائرة على غير هدى . فهي تقفز اليوم الى الشرق وغداً الى الغرب . وهي تَسِمُ هذا الأمر بسِمَة الخير هنا . وبسِمَة الشر هنالك . وهي لا تقتبل الآن هذا الانسان صديقاً إلاّ لتحاربه فيما بعد عدوّاً .

أمّا انتم يا رفاقي فلا ينبغي لارادتكم ان تكون طائشة ، هوجاء . بل ينبغي لكم ان تعرفوا ان كل علائقكم بالناس والأشياء تتحدد بما تريدونه منهم ويريدونه منكم . وما تريدونه من الناس والاشياء يُحدّد ما يريدونه منكم .

لذلك حذرتكم قبل واحذركم الآن . انتبهوا لصدوركم بماذا تتنفس ، ولشفاهكم بماذا تنطق ، ولقلوبكم ماذا تشتهي ، ولأفكاركم بماذا تفكّر ، ولأيديكم ماذا تعمل . لان ارادتكم مكنونة في كل نفَس من أنفاسكم ، وكلمة من كلامكم ، وشهوة من شهواتكم ، وفكرة من أفكاركم ، وعمل من اعمالكم . وما كان مكنوناً عنكم كان ظاهراً للارادة الكلية .

لا تريدوا من أيّ انسانٍ ما يلذّ كم ويؤلمه، لئلاّ تؤلمكم لذتكم اكثر من ألمه. ولا تريدوا من أي شيء ما كان خيراً لكم وشراً له، لئلا تريدوا بذلك الشر لانفسكم. بل اريدوا من كل الناس والأشياء محبتهم. اذ بالمحبة وحدها تماط الحُجُب عن ابصاركم، ويشرق الفهم في قلوبكم. والفهم وحده يكشف لارادتكم كل ما في الارادة الكلية من عجائب الأسرار.

الى ان يحيط وعيكم بكل الكائنات لن تعوا كل ما تريده منكم وتريدونه منها.

والى ان تعوا كل ما تريدونه من كل شيء وما يريده كل شيء منكم لن تعرفوا أسرار الارادة الكلية.

والى ان تعرفوا اسرار الارادة الكلية حذار من ان تقيموا من ارادتكم خصماً لها. لانكم خاسرون لا محالة. فستخرجون من كل معركة تخوضونها مثخنين بالجراح وسكارى بالعلقم. وستحاولون الأخذ بالثأر فلا ينالكم من ذلك إلاّ جراح جديدة فوق القديمة وكؤوس جديدة طافحة بالعلقم البكر.

أقول لكم: اقبلوا الارادة الكلية اذا ما شئتم ان تحوّلوا الانكسار الى غلبة. اقبلوا بغير تذمّر كل ما ينهال عليكم من كشكولها السرّي؛ اقبلوه شاكرين ومؤمنين بانه ما كان الاّ حصتكم من الارادة الكلية وقد استحق دفعها. اقبلوه بارادة تصرُّ على معرفة معناه وقيمته. حتى إذا ما فهمتم سبل ارادتكم فهمتم سبل الارادة الكلية.

اقبلوا ما تجهلون كيما يساعدكم على فهمه. عاندوه، يبقَ لغزاً مبهماً ومؤلماً.

لتكن ارادتكم جارية للارادة الكلية الى ان يجعل الفهم المقدس الارادة الكلية جاريةً لارادتكم .

هكذا علّمت نوحاً .

وهكذا اعلمكم .

## الفصل الثاني والعشرون

مرداد يربح زمورا من سره ويحدث عن الذكر
والأنثى وعن الزواج والتبتل وعن الانسان المتغلب

**مرداد** ايه نروندا ، يا ذاكرتي التي لا تخون ! ماذا تقول لك هذه الزنابق ؟

**نروندا** : لا شيء يمكنني سماعه يا معلم .

**مرداد** اما انا فاسمعها تقول : « إننا نُحبّ نروندا ويسرنا ان نقدّم اليه قلوبنا العطرة عربوناً لمحبتنا . »

ايه نروندا ، يا قلبي الثابت في امانته ! ماذا تقول لك المياه في هذا الحوض ؟

**نروندا** : لا شيء يمكنني سماعه يا معلم .

**مرداد** اما انا فاسمعها تقول : « إننا نحبّ نروندا . لذلك نروي عطشه وعطش زنابقه المحبوبة . »

ايه نروندا ، يا عيني اليقظى ! ماذا يقول لك هذا النهار بكل ما يوجج من العجائب في ذراعيه المغمورتين بنور الشمس ؟

**نروندا :** لا شيء يمكنني سماعه يا معلم .

**مرداد** اما انا فاسمعه يقول : « اني احب نروندا . ولذلك أزوّجه بلطف في ذراعيّ المغمورتين بنور الشمس اسوةً بسواه من عيالي المحبوبة . »

ما دامت لنروندا كل هذه الاشياء ليُحبها ويكون محبوباً منها اليست حياته ملأى الى حدّ ان لا تتسع للاحلام والافكار الباطلة لكي تعشش فيها وتبيض وتنقف ؟

حقاً ، ان الانسان لَابنُ المسكونة المدلل . فكل ما فيها يتنافس في ترفيهه وتغنيجه . ولكن قلّ من الناس من لا يفسدهم مثل هذا الدلال . واقلّ من القليل اولئك الذين لا يعضّون اليد التي ترفههم .

من لم يفسده الدلال يرى في لسعة الحية قبلة محبة . اما الذين افسدهم الدلال فيرون حتى في قبلة المحبة لسعة حيّة . أحقّ ما اقول يا زمورا ؟

**نروندا :** هكذا كان المعلم يتكلم عصر ذات نهار بينا هو وزمورا وانا نسقي بعض الازهار في حديقة الفلك . وكان زمورا في كل ذلك الوقت مشرّدَ الفكر ، تائه البصر ، كئيب الطلعة . وكأنه استفاق من غيبوبة اذ فاجأه المعلم بسؤاله ، فاجفل واجاب عن غير وعي :

**زمورا :** ما يقول المعلم انه حقّ ينبغي ان يكون حقاً .

**مرداد** ألا يصح ذلك فيك يا زمورا ؟ أليس انك تسمّمت بقبلات كثيرة من شفاه الحبّ ؟ الست تتألم الآن بذكرى حبك المسموم ؟

**زمورا** : ( منطرحاً على قدمي المعلم والدموع تنهمر من عينيه )

تباً لجهلي يا معلم ، وجهل اي انسان يظن في امكانه ان يخفي سرّاً عن عينيك، حتى في اعمق اعماق قلبه !

**مرداد** ( رافعاً زمورا اليه ) بل تـبّـاً لجهل مَنْ يحاول ان يخفي سرّاً حتى عن هذه الزنابق !

**زمورا** : اعرف ان قلبي ليس نظيفاً بعد لأن الحلم الذي حلمته في الليلة البارحة ما كان نظيفاً .

اليوم اريد ان اطهّر قلبي . اريد ان اتعرّى امامك يا معلّمي ، وامام هاته الزنابق والديدان التي تدبُّ حول جذورها في ظلمة التراب . اريد ان اطرح عن نفسي وقر السرّ الذي يكاد يسحقها سحقاً ؛ فليحمله هذا النسيم الناعس الى كل مخلوق في الكون :

احببت في شبابي صبيّة كانت اجمل من كوكب الصبح . وكان اسمها اعذب لشفتيّ من النوم لعينيّ . واخالني كنت اول من فهم كلامك واستلذّ ترياقه الشافي يوم كلمتنا عن الصلاة وعن جيش الدم الجرّار . فلقد كان حبّ حُجْلَة – ذلك هو اسم الصبيّة – قائداً لدمي . ولقد عرفت حينئذٍ ما يستطيع الدم ان يأتيه من العجائب اذا ما توحّدت الارادة التي تقوده .

بحبّ حُجْلة ملكت الابدية بل رحت البسها كخاتم في خنصري ، ورحت ارتدي الموت درعاً . فكنت اشعر اني أقدم من اول امس عبر ، وافتى من آخر غدٍ سيولد . ذراعاي كانتا تدعمان السماء ، ورجلاي تديران الارض . اما في قلبي فكانت تستدير شموس كثيرة .

لكن حُجلة ماتت وبموتها تحول زمورا ، الذي كان فينقساً ملتهباً ، الى كومة من رماد بارد خالٍ من الحياة ، لا امل بان ينهض منها فينقس جديد . زمورا الذي كان عموداً للسماء اصبح كومة انقاض محزنة في بركة من المياه الآسنة .

حينذاك جمعت ما امكنني من بقايا زمورا واسرعت الى هذه الفلك راجياً ان ادفن نفسي حياً بين ما علق بجدرانها من خيالات الطوفان وذكرياته . ولحسن طالعي وصلتها على اثر وفاة رفيق من رفاقها . فقُبلت في الحال .

مرّت خمس عشرة سنة والرفاق في هذه الفلك يرون زمورا ويسمعونه . اما سرّ زمورا فما رآه ولا سمعه منهم احد . قد يكون انّ جدران الفلك الدهرية وسراديبها القاتمة لا تجهله ؛ وانّ الاشجار ، والازهار والاطيار في هذه الحديقة تعرف عنه شيئاً . لكنّ ما لا ريبة فيه هو انّ اوتار قيثاري ، يا معلم ، تستطيع ان تخبرك عن حُجلتي اكثر مما استطيع .

وفي الوقت الذي بدأتْ فيه كلماتك تدفىء رماد زمورا وتنفخ فيه الحياة فتكاد تبعثه مخلوقاً جديداً ، في ذلك الوقت عينه خطر لحجلة ان تزور احلامي . فكان من زيارتها انها الهبت دمي حتى الفوران ، ثم طرحت بي من شاهق غبطتي الموهومة الى حقيقة هذا النهار بكل ما فيها من حراب حادّة ونواتىء مسنّنة . واذا بي مشعل مُطفأ ، ونشوة جهيضة ، وكومة رماد عقيم .

آه ، حُجلة ، يا حُجلة ! اغفر لي يا معلمي . فلا قدرة لي على وقف دموعي . اتكون الطبيعة البشرية الاّ طبيعة بشرية ؟ اشفق على لحمي ودمي . اشفق على زمورا .

مرداد

ان الشفقة ذاتها في حاجة الى شفقة . لا شفقة عند مرداد . بل عنده محبة فيّاضة لكل شيء حتى للحم والدم . وبالأكثر للروح الذي يتخذ شكل اللحم والدم الخشن ليعود فيذيبه في لا – شكليته . ومحبة مرداد ستنهض بزموراً من رماده وتجعل منه انساناً متغلباً .

اني ابشّر بالانسان المتغلّب – الانسان الموحّد والمالك نفسه .

اما الرجل المستأسر لحب امرأة، والمرأة المستأسرة لحب رجل، فكلاهما ليس اهلاً لتاج الحرية النفيس .

اني ابشّر بالانسان المتغلب ، الانسان – الفينِقس المنعتق الى حد ألاّ يكون ذَكراً ، والمتسامي الى حدّ ألاّ يكون انثى .

فمثلما الذكر والانثى واحد في اسفل درجات الحياة واكثفها، كذلك هما واحد في اسمى اجواء الحياة واصفاها . وما الفسحة بين المرتبتين سوى قطعة من دائرة الابدية تسيطر عليها الثنائيـة . وهذه القطعة من الابدية تبدو للذين لا يبصرون ما قبل وما بعد كما لو كانت هي الابدية . فتبدو لهم الثنائية وكأنها من الحياة لبّها وكنهها، جاهلين ان ناموس الحياة هو الاحديّة .

ليست الثنائية إلاّ مرحلة في الزمان تبتدىء في الاحديّة وتنتهي اليها . فمن اسرع في اجتيازها اسرع في الاتصال بحرّيته .

انما الرجل والمرأة الانسان الواحـد ما كان واعياً لوحدته فانشطر الى شطرين وأُكره على شرب علقم الثنائية كيما يعود فيتوق الى رحيق الاحدية ، واذ يتوق اليه يفتش عنه بارادة لا تُقهر ، واذ يفتش عنه يجده ويحرص عليه بكل قوّته واعياً ما فيه من حرّية لا توصف .

دعوا الجواد يصهل للفرس ، والظبية تستغوي الظبي . ان الطبيعة نفسها تدفعهما على ذلك وتبارك ما يفعلان وتصفق له . فهما لا يشعران بعد بغاية من وجودهما اسمى من التبذير وتجديد النسل .

كذلك دعوا الرجال والنساء الذين ما يزالون قريبين من الجواد والفرس، والظبي والظبية، يفتشون بعضهم عن بعض في عزلة اللحم والدم المظلمة.

دعوهم يموّهون دعارة المخادع الزوجية برخصة الزواج. دعوهم يفرحون بخصب ظهورهم وارحامهم . دعوهم يجددون النسل . فالطبيعة ذاتها تفرح بان تكون لهم اشبينة وقابلة . والطبيعة تفرش لهم أسرّةً من الورود . لكنها لا تنسى الاشواك .

اما الرجال والنساء التوّاقون الى الانعتاق فعليهم ان يدركوا وحدتهم حتى وَهم في حالة اللحم والدم . لا بتزاوج اللحم والدم ، بل بارادة الانعتاق من سلطان اللحم والدم وكل العقبات التي يبثّانها في طريقهم الى الوحدة الكاملة والفهم المقدس .

كثيراً ما تسمعون الناس يتكلمون عن « الطبيعة البشرية » كما لو كانت عنصراً ثابتاً ، تمّ لهم وزنه وقياسه ، ودَرْسُ كل ما فيه ، ثم تحديده من جهاته الاربع بما يدعونه « العاطفة الجنسية ». فمن طبيعة البشر ارضاء الشهوة الجنسية. أما ان يلجم الانسان شهوته الجنسية ويستعين بثوراتها الصاخبة على التخلص من ثوراتها فذاك منافٍ للطبيعة البشرية كل المنافاة ، وعقباه وخيمة . هكذا يرأون . فاياكم ان تعيروهم آذانكم .

الانسان اكبر من ان يُحدّ ، وطبيعته اوسع من ان يحصرها وزن ،

ومواهبه اكثر من ان تحصى ، وقواه اغزر من ان تنضب . فاحـذروا الذين يحاولون ان يقيموا له تخوماً .

لا شك في ان طبيعة الانسان الحيوانية تفرض عليه جزية ثقيلة . لكنه يدفعها الى حين . ومن منكم يرضى ان يدفع جزية الى الابد ؟ اي رقيق اقطاعي لا يحلم بالتخلص من نير أميره ودفع الجزية له ؟ اي انسان لا يطمح الى الانفلات من سلطة الحيوان ؟

ما ولد الانسان ليكون رقيقاً حتى لناسوته . وهو ابداً يحلم بالانعتاق من كل انواع الرقّ . وستكون الحرية نصيبه في النهاية .

ما هي صلة الرحم لمن يريد ان يتغلب ؟ انها لرباط ينبغي قطعه بارادة لا تلتوي . فالمتغلب يعرف ان دمه يرتبط بكل دم . لذلك لا يشعر برباط على الاطلاق .

دعوا غير التوّاقين يجددون النسل . أما التوّاقون فعليهم ان يخلقوا نسلاً آخر – نسل المتغلّبين .

ونسل المتغلبين لا ينحدر من الظهر والرحم بل يصعد من القلوب المتبتلة التي تقود دماءَها ارادةُ التغلّب .

إني لأعرف انكم وكثيراً مثلكم في العالم قد نذرتم العفّة على انفسكم . ولكنكم ما تزالون نجدّ بعيدين عنها كما يشهد حلم زمورا في الليلة البارحة .

ليس عفيفاً كل من لبس ثوب راهب او راهبة واحتجب عن الناس خلف جدران كثيفة وبوّابات حديدية ضخمة . فما اكثر الرهبان والراهبات الذين هم أفظع فسقاً من أفسق الفاسقين حتى وان اقسمت لحومهم – واقسمت

صادقة — انها ما لاصقت يوماً لحماً آخر لغايةٍ فاجرة . انما الأعفاء هم الذين عفّت قلوبهم وأفكارهم ، أكانوا في ديرٍ ام في سوقٍ عمومية .

كرّموا المرأة يا رفاقي وقدّسوها . كرموها لا أمّاً للنسل، ولا حليلةً، ولا حبيبةً، بل كرّموها لأنها توأم الرجل وشريكته حصّة بحصّة في جهاد الحياة الثنائية الطويل وآلامها المبرّحة . فبدونها لا يستطيع الرجل ان يجتاز فسحة الثنائية . أما بها فسيجد وحدته ، مثلما ستجد به خلاصها من الثنائية . والتوأمان سيتحدان فيما بعد فيصبحان واحداً — ذلك الواحد الذي ليس بالذكر ولا بالانثى ، بل هو الانسان المتغلب — الانسان الكامل .

اني أبشر بالانسان المتغلب — الانسان الموحّد والمالك نفسه . وكلّ منكم سيصبح متغلباً قبل ان يرفع مرداد نفسه من وسطكم .

**زمورا** : امِن الممكن ان تغادرنا يا معلم ؟ ان قلبي لَيَغتم في داخلي منذ الآن . واذا ما جاء ذلك اليوم الذي تغادرنا فيه فزمورا سيضع نهاية لحياته لا محالة .

**مرداد**

لك ان تريد اشياء كثيرة يا زمورا . بل لك ان تريد كل شيء إلاّ ان تريد ألاّ تريد. فما ارادتك غير ارادة الحياة؛ وارادة الحياة هي الارادة الكلية . وكيف للحياة التي هي كيان ان تريد عدم كيانها؟ كلا . حتى الله لا يستطيع ان يضع نهاية لزمورا .

أما ما كان بشأن مغادرتي اياكم ، فلا بدّ من ان يأتيكم يوم تطلبونني فيه في الجسد فلا تجدونني . إذ ان لي شغلاً على غير هذه الأرض . لكنني لا ابدأ عملاً أينما كان الا أنهيه . فليطمئن قلبك يا زمورا. اذ ان مرداد لن يتركَكم

من قبل ان يجعل منكم متغلبين – رجالاً موحِّدين ومالكين انفسهم . وانتم عندما تنالون الغلبة على انفسكم وتهتدون الى وحدتكم تجدون مرداد ساكناً في قلوبكم أبداً ، ولمعان اسمه لن يكمدَّ في ذاكرتكم .

هكذا علَّمت نوحاً .

وهكذا اعلمكم .

# الفصل الثالث والعشرون

مرداد يشفي سِمسِم ويكلمنا في الشيخوخة

**نروندا :** في جملة بقرات الفلك بقرة إسمها سِمْسِم .هي اكبرهنّ سناً واعتقهن في اسطبل الفلك . وقد بلغ شمادم انّ مرضاً المّ بها وانها لخمسة ايام خلت ما ذاقت علفاً على الاطلاق . فارسل في طلب القصّاب ليذبحها قائلاً انه خير للفلك ان تنتفع بثمن لحمها وجلدها من أن تخسرها برمّتها .

فما كاد المعلّم يسمع بذلك حتى تقطب حاجباه واسرع في الحال الى الاسطبل . وتبعه السبعة على الأثر .

كانت سمسم واقفة بغير حراك والكآبة الصماء عالقة بكل شعرة من شعراتها الباهتة المنتصبة كأنها شعر السنّور وقد بغته كلب . وكان رأسها منحنياً الى صدرها ، وعيناها مطبقتين حتى النصف . وبين الآونة والأخرى كانت تحرك احدى اذنيها حركة بطيئة ، خفيفة ، لتطرد عنها ذبابة ثقيلة . اما ضرعها الكبير فكان كالجراب الفارغ بين فخذيها . لانها ، وقد قاربت نهاية عمر طويل ، اصبحت محرومة من اوجاع الأمومة الحلوة . واما حرقفتاها فقد انتصبتا كأنهما حجران على ضريح . ونفرت اضلاعها وفقرات سلسلتها فكان من

السهل عدّها واحدة واحـدة . وتدلّى ذيلها الجميل بطوله ودقّته حتى كاد يلمس الارض بالشعر الذي في آخره .

دنا المعلّم من البهيمة المريضة واخذ يحكّ لها ما بين قرنيها وعينيها وتحت ذقنها . ثم راح من حين الى حين يمرّ بيده على ظهرها وبطنها مكلماً اياها كما لو كان يكلّم مخلوقاً عاقلاً ناطقاً :

« اين جرّتك يا سمسم السخيّة ؟ لقد انشغلت سمسم بالعطـاء الى حدّ ان نسيت ان تحتفظ لنفسها حتى بجرّة تلهو بها . وسمسم ستعطي كثيراً بعد . ها هي عجولها القوية ما تزال تجرّ المحاريث الثقيلة في حقولنا. وها هي عجالها الهيف تملأ مراعينا بصغارها . وها هي فضلات سمسم ما برحت تزيّن مائدتنا بالخضروات الطيبة والفاكهة الشهية من بساتيننا .

ان اوديتنا لتردد حتى اليوم خوار سمسم القويّ . وينابيعنا لتعكس حسن وجهها اللطيف ، الحنون . وان تربتنا لتفخر بآثار أظلافهـا التي لا تمحي وتحتفظ بها ذكرى طيبة وغالية .

اعشابنا تُسرّ بان تغذّي سمسم ، وشمسنا بان تدغدغها ، ونسماتنا بان تتزحلق على فروها الناعم اللماع . وانها لغبطة لمرداد ان يقطع بهـا مفازة الشيخوخة ويكون دليلها الى مراعٍ غير مراعينا في ارضٍ شموسها غير شمسنا ، ونسماتها غير نسماتنا .

ان ما اعطته سمسم حتى اليوم لكثير ، وكثير جداً . وان ما اخذته لكثير ، وكثير جداً . لكنها ستعطي الكثير بعد ، وستأخذ الكثير . »

**ميكاستر** : انستطيع سمسم ان تفهمك حتى تكلمها كما لو كان لها

فهم الانسان ؟

**مرداد** ما السرّ في الكلمة يا ميكاستر . السرّ في المويجات والاشعاعات المنطلقة من الكلمة وهذه تحسها حتى البهيمة . وعلاوة على ذلك ، فانا ابصر امرأة تتطلع اليّ من خلال عين سمسم الوديعة .

**ميكاستر** : ما النفع من مخاطبتك سمسم بمثل هذا الكلام ؟ العلك ترجو بذلك ان تصد عنها هجمات الشيخوخة فتطيل بعمرها ؟

**مرداد** انما الشيخوخة عبء هائل للانسان والبهيمة بالسواء . ولقد زاده الناس هولاً باهمالهم وقساوة قلوبهم . فهم يغمرون المولود الجديد باقصى ما عندهم من العطف والحنان . اما على المثقل بالسنين فيجودون بقلة اكترائهم اكثر من جودهم بعنايتهم ، وبتقززهم اكثر من عطفهم . وعلى قدر ما يُفرحهم ان يروا الرضيع يدرج من مهده الى شبابه ، يفرحهم ان يروا الشيخ يحبو من فراشه الى لحده .

يتساوى الرضيع والهرم في عجزهما وافتقارهما الى المعونة . لكن عجز الرضيع يجذب اليه المحبة والمعونة والتضحية من جميع الناس . بينا عجز الهرم يدفع عنه المحبة والتضحية ، وان هو حظي بمعونة من أحد فعن كرهٍ واشمئزاز . حقاً ان عجز الهرم لأحرى بالعطف من عجز الرضيع .

عندما تغدو الأذن ، التي كانت فيما مضى تلتقط أخفّ الهمسات ، ثقيلةً الى حدّ ان لا تلجها الكلمة الا من بعد ان تقرعها قرعاً طويلاً عنيفاً ؛ وعندما تصبح العين التي كانت مرآة صافية الأديم مرقصاً لأغرب الأشكال والأشباح ؛ والرّجل التي كانت مجنّحة تصير قطعة من رصاص ؛ واليد التي كانت تقولب

الحياة تمسي قالباً محطّماً ؛ عندما تنخلع الركبة من حُقّها ، ويغدو الرأس العوبة راقصة على الكتفين ؛ وعندما تبرى حجارة الرحى ، وتصبح الطاحون مغارة خالية خاوية ؛ وعندما يرافق النهوضَ عرقُ الخوف من السقوط ، ويرافق الجلوسَ الوجلُ من عدم القدرة على النهوض ؛ عندما تُنغّص لذّةَ الأكل والشرب مخافةُ ما يعقب الأكلَ والشرب ، ولا يُستطاع الانقطاع عن الأكل والشرب مخافةً من شبح الموت — اجل ، عندما تدهم الشيخوخة الانسان عندئذٍ يا رفاقي ينبغي ان تعيروه آذاناً وعيوناً ، وان تعطوه أيدياً وأرجلاً ، وان تدعموا قوّته المنهزمة منه كيما تجعلوه يشعر انه في شيخوخته ليس باقل قيمة في نظر الحياة منه في صباه وفتوّته .

قد لا تكون الثمانون من السنين أكثر من لمحة في الأبدية . أما الانسان الذي راح يزرع نفسه في خلال ثمانين سنة فانه لأكثر من لمحة .

ألستم تحصدون حتى في هذه اللحظة حياة كل من مشى قبلكم ويمشي على الأرض من رجال ونساء ؟ فما هي اللغة التي تتكلمون ان لم تكن حصاداً من لغاتهم ؟ ما هي افكاركم ان لم تكن لقاطاً من أفكارهم ؟ بل ما هو لباسكم وغذاؤكم ؟ وما هي نُظُمكم وتقاليدكم واصطلاحاتكم ان لم تكن لباس من سبقكم وغذاءهم ونظمهم وتقاليدهم واصطلاحاتهم ؟

ومن ثم فأنتم لا تحصدون هذا الشيء او ذاك في هاته الآونة او تلك . بل تحصدون كل شيء في كل آن . فأنتم الزارعون ، وانتم الحصاد والحصّادون ، وانتم الحقل والبيدر كذلك . ان يكن من قحط في حصادكم ففتشوا عن السبب في البذار الذي بذرتموه في الغير او اذنتم للغير بان يبذره فيكم . فتشوا

كذلك في الحصاد وفي منجله ، ثم في الحقل والبيدر .

ان شيخاً حصدتم حياته وخزنتموها مع ما تكدّس في اهرائكم من غلال الحرّيّ حقاً بأقصى عطفكم وعنايتكم . وأيامه الأخيرة ما تزال غنيّة بخيرات كثيرة تحصدونها ان انتم أحسنتم الحصاد . فاذا ما نغّصتموها بمرارة اهمالكم تحوّل كل ما حصدتموه وما ستحصدونه من حياته مرارةً في افواهكم. كذلك هي حالكم مع بهيمة ادركتها الشيخوخة .

حرام ان تنعموا بالغلّة ومن ثم ان تلعنوا الزارع والحقل .

عليكم بالرفق بكل الناس بارفاقي من اي جنس ومن اي اقليم كانوا . فما هم غير زادكم في سفركم نحو الله . ولكن عليكم بالرفق على الأخص بالرازحين تحت اعباء الشيخوخة لئلاّ تفسدوا زادكم بقساوة قلوبكم فلا تبلغوا نهاية سفركم .

عليكم بالرفق بالحيوان من اي جنس او عمر كان . فما الحيوان الابكم سوى مساعدٍ امينٍ لكم في إعداد العدّة لسفركم الطويل الشاق . ولكن عليكم بالرفق على الأخصّ بالحيوان في هرَمه لئلا تحوّلوا أمانته خيانةً بقساوة قلوبكم ، فيصبح عقبةً في سبيلكم بدلاً من ان يكون مساعداً لكم.

انه لأخسّ درجات النكران للجميل ان تسمنوا بلبن سمسم ، وعندما لا يبقى عندها من لبن لتعطيكم ، ان تحزّوا حلقومها بسكّين القصّاب .

**نوندا** : ما كاد المعلم يقول ذلك حتى دخل شمادم ومعه القصّاب . وهذا الأخير مشى توًّا الى سمسم . ولكنه ما وقع بصره عليها حتى سمعناه يصرخ متهكّماً : « كيف تقولون ان هذه البقرة مريضة وتوشك ان تموت ؟

انها لاحسن صحةً مني . والفرق انها جائعة حتى الموت وأنا شبعان حتى التخمة . إيتوها بعلف . »

ولشدّ ما ذهلنا عندما نظرنا الى سمسم واذا بها في الواقع تجـترّ .

ومـا كان شمادم أقلّ فرحاً بذلك من ايّ منّا . فقد أمر في الحال بأن يؤتى لسمسم بأفخر ما تستلذه البقر من العلف . وراحت سمسم تأكل علفها بشهيّة عظيمة .

# الفصل الرابع والعشرون

أحرام ان نذبح لنأكل ؟

**نروندا :** ومن بعد ان انصرف شمادم والقصّاب التفت ميكايون الى المعلم وسأله :

**ميكايون :** أحرام يا معلم ان نذبح لنأكل ؟

**مرداد** مَن تغذى بالموت كان غذاءً للموت . ومن عاش بألم الغير كان فريسة للألم . بذاك قضت الارادة الكلية يا ميكايون . اعرف ذلك واختر لنفسك ما تريد .

**ميكايون :** لو كان لي ان اختار لاخترت ان اعيش بعبير الارض والسماء .

**مرداد** نعمًا الخيار يا ميكايون . صدّق انه سيأتي يوم يعيش فيه الناس بعبير الاشياء الذي هو روحها لا بلحومها ودمائها . وما ذلك اليوم ببعيد للتوّاقين . فالتواقون يعلمون ان حياة اللحم والدم ليست سوى العبّارة الى الحياة التي لا لحم لها ولا دم . والتواقون يعلمون ان الحواس الخشنة المتناهية ليست سوى نوافذ ضيقة يطلّون منها على عالم الحس اللامتناهي

برقته ودقته . والتواقون يعلمون ان من مزّق لحماً تحتّم عليه رتقه بلحمه ، ومن أراق دماً أُكره على التعويض عنه من دمه . لان تلك هي سنّة اللحم والدم .

والتواقون يريدون الانعتاق من رقّهم لهذه السنّة . ولذلك يخففون من حاجاتهم الجسدية الى اقصى حدّ . وهكذا يخففون من دَينهم للّحم والدم الذي ليس سوى دينٍ للألم والموت .

للتواقين رادع من ارادتهم ومن توقهم . اما غير التواقين فرادعهم في ألسنة الغير . لذاك يحلّلون لانفسهم الكثير مما يحرّمه التوّاق على نفسه .

لا يشبع مَن لا يتوق من الزيادة في ما يحشو به بطنه وجيبه . في حين يمشي التوّاق في سبيله ولا جيب له ، وبطنه براء من لحم ايّ مخلوق ورعشته لدى الموت . فالذي يربحه غير التواق – او يظن انه يربحه – في الكمية يربح نقيضه التوّاق من خفّة في اثقال الروح ومن حلاوة الفهم .

تمثلوا رَجلين ينظران الى حقل اخضر . احدهما يقدّر غلّة الحقل من الحنطة ثم يحسب ثمن الحنطة بالفضة والذهب . بينما الآخر يشرب خضرة الحقل بعينيه ، ويقبّل بفكره كل وريقة من اعشابه ، ويتآخى بروحه مع كل جُذَيْر من جذيراته ، وحُصَيبة من حصباته ، وذُرَيرة من ترابه .

اقول لكم انّ هذا الأخير هو بحق صاحب الحقل وان يكن الأول يملك صكاً مسجّلا به .

او تمثلوا رجلين جالسين في بيت. احدهما صاحب البيت والآخر ضيف عنده . اما صاحب البيت فيتبجّح باكلاف البناء ، وباثمان الستائر على النوافذ ،

وجودة الطنافس وباقي الرياش في البيت . واما الضيف فيصغي اليه مباركاً في قلبه الايدي التي اقتلعت الحجر وهندمته وبنته ؛ والايدي التي حاكت الستائر والطنافس؛ والايدي التي غزت الغابة فحوّلت اشجارها شبابيك وابواباً وكراسي وطاولات . واذ يبارك تلك الايدي يتمجد بروحه ممجّداً اليد المبدعة التي كوّنت كل هذه الاشياء .

اقول لكم ان الضيف هو ساكن ذلك البيت الاصيل . اما صاحب البيت فليس سوى بهيمة تحمل البيت وكل ما فيه على ظهرها ولكنها لا تسكنه .

او تمثلوا رجلين يشاركان عجلاً في لبن امه . واحدهما يتفحص العجل بعينٍ لا تبصر فيه الاّ لحماً طرياً يصلح للوليمة التي يزمع ان يولمها قريباً لاصحابه في عيد مولده . والثاني كلما نظر الى العجل وجد فيه اخاً له في الرضاعة . فامتلأ قلبه حنوّاً على العجل وأمّه .

اقول لكم ان الثاني يتغذى حقاً بلحم العجل . اما الاوّل فلا يناله منه إلاّ التسمّم .

ما اكثر الاشياء التي تُزجّ في البطن وكان من الاجدر ان تزج في القلب .

وما اكثر ما يخزنه الناس في الجيب وبيت المؤونة وكان احقّ بان يخزن في العين والانف .

وما اكثر ما يسحقه الناس باضراسهم وكان من الأحرى ان يمضغوه بأفكارهم .

ان ما يحتاج اليه الجسم لتغذيته لزهيد جداً .فهو اجود ما يكون عليكم

عندما تبخلون عليه . وهو ابخل ما يكون عليكم عندما تجودون عليه . ان دللتموه ذللكم . او ذللتموه دللكم . حقاً ان ما كان خارج البطن وبيت المؤونة لأكثر غذاءً للناس منه في بيت المؤونة والبطن .

ونظير ما تدعوكم الارض الى مائدتها غير ممسكة عنكم شيئاً مما عندها، كذلك عليكم ان تدعوا الارض الى مائدتكم قائلين لها باقصى ما فيكم من المحبة والاخلاص :

« ايتها الأمّ التي لا يُنطق بها ! ها انا ابسط قلبي امامك لتأخذي منه حاجتك مثلما تبسطين امامي قلبك لآخذ منه حاجتي . »

اذا كان ذلك شأنكم حقاً مع الارض وكان ذلك الروح في قلوبكم وعيونكم اذ تمدون ايديكم لتتناولوا من قلب الارض ، فلا حرج اذ ذاك عليكم في ما تأكلون وتشربون . ولكن اذا كان ذلك الروح روحكم حقاً كان لا بدّ لكم من حكمة تودعكم ومحبة تنهاكم عن ان تثكلوا الارض باحدٍ من ابنائها – لا سيما اولئك الذين بلغوا درجة الحس بلذّة الحياة وألم الموت فكانوا مثلكم ضمن منطقة الثنائية . فهؤلاء كذلك امامهم طريق لا بدّ من قطعها الى الاحدية . وطريقهم اطول من طريقكم واكثر اعوجاجاً وعقبات . فان انتم عرقلتم مسيرهم عرقلوا مسيركم .

**ابيار** : ما دام كل حيٍّ سائراً حتماً الى الموت، فما عليّ لو كنت سبب موت هذا الحيوان او ذاك ؟

**مرداد** وان يكن كل حيّ محكوماً عليه بالموت ، فالويل ، مع ذلك ، لمن كان سبباً في موت ايّ حيّ .

مثلما لا تنتدبني يا ابيار لقتل نوروندا لانك تعرف عظيم محبتي له وتعرف ان ليس في قلبي من شهوة للقتل ، كذلك لا تنتدب الارادة الكلية انساناً لقتل اخ له في الناسوت، او لقتل حيوان ما ، ما لم تجد فيه اداة صالحة للقتل .

ما دام الناس على ما هم ، دامت بينهم السرقات، والحروب، والكذب، والقتل، وكل اصناف الشهوات الشريرة ، المظلمة . ولكن ويل للسارق وللص ؛ وويل للكذوب وربّ الحرب؛ وويل للقاتل وكلّ من كان قلبه ملجأ للشهوات السود . فهؤلاء تستخدمهم الارادة الكلية رسلاً للويل .

اما انتم يا رفاقي فعليكم ان تطهروا قلوبكم من كل شهوة شريرة ، سوداء، كيما تختاركم الارادة الكلية لتحملوا الى العالم الذي نهكه الألم بشارة الخلاص من الألم ؛ بشارة التغلّب ؛ بشارة الانعتاق بواسطة المحبة والفهم .

هكذا علّمت نوحاً .

وهكذا اعلمكم .

•

# الفصل الخامس والعشرون

يوم الكرمة والاستعداء لاستقباله . مرداد يختفي عشية العيد

**نروندا :** واقترب يوم الكرمة فراح كل من في الفلك يعملون ليل نهار في اعداد العدّة للعيد العظيم ، تساعدهم في ذلك شرذمة من الرجال المتطوعين من خارج الفلك . وكان المعلم أسبقنا وأشدنا حماسة فما كان يشفق على جسمه من التعب . حتى ان شمادم لحظ ذلك فما أخفى سروره به .

لقد كان علينا ان ننظّف أقبية الفُلك الواسعة وندُمّ جدرانها بالكلس ، وان نُعدّ الخوابي والبراميل الفارغة لاقتبال النبيذ الجديد ، ونخرج الملأى من مكامنها الى حيث يتمكن الراغبون في الشراء من فحص النبيذ الذي فيها . فقد جرت العادة في كل عيد من أعياد الكرمة ان يُباع نبيذ العيد الذي قبله .

وكان علينا كذلك ان ننظّف ونرتّب باحات الفلك الفسيحة وان نضرب فيها مئات الخيام لاستقبال الحجّاج والتجار طيلة اسبوع العيد . ثم ان نهتم بالمعصرة ونعدّها لاقتبال الكميات الباهظة من العنب التي كانت تأتينا في مثل هذا اليوم من كل عام من شركاء الفلك وأنصارها محمولة على ظهور مئات الحمير والبغال والجمال . وكان لا بدّ لنا كذلك من خبز كميات وافية

من الخبز لتباع للذين لا تكفيهم مؤونتهم او الذين يأتون العيد بلا مؤونة البتة.

لقد كان عيد الكرمة في ما مضى يوماً واحداً مكرّساً لتقديم الشكران لله . لكن شمادم ، بما أوتيه من حنكة تجارية عظيمة ، ما عتم ان جعل منه اسبوعاً كاملاً تُعرض فيه كل أصناف الامتعة وتجري في خلاله المهرجانات ، فيأتيه الناس من كل فجّ وصوب ، أميرهم وحقيرهم ، فلاحهم وصانعهم ، الزائر التقي والمتشرّد الكافر ، رجل الهيكل ورجل الخمّارة . بعضهم يفتش عن هذه اللذة وبعضهم عن تلك . مثل هذه الغزوة كانت تشهدها قمة المذبح مرّتين في كل عام – في يوم الكرمة في الخريف ، ويوم الفلك في الربيع .

ويندر لزائر ان يأتي الفلك في احد هذين العيدين من غير ان يحمل اليها هديّةً ما . أمّا الهدايا فتتراوح ما بين عنقود من العنب او كوز من الصنوبر وبين عقد من اللؤلؤ او الالماس . وعلاوة على ذلك فللفلك ضريبة على كل ما يباع بمعدّل عشرة بالمائة من الثمن .

ومن التقاليد المرعية في اول يوم من مهرجان الكرمة ان يجلس الرئيس على دكّة عالية قائمة تحت عريش تدلّت من فوقه عناقيد الكرمة ، فيؤهل بالجماهير ويباركهم ، ثم يبارك هداياهم ويقتبلها منهم ، وأخيراً يشرب معهم الكأس الاولى من النبيذ الجديد . وطريقة ذلك ان يسكب الخمر من قرعة طويلة العنق في كوب يحمله في يده ، ثم ان يناول القرعة لأحد الرفاق بجانبه لتدار على الجمهور ، فتُملأ كلما فرغت الى أن يملأ الكل اكوابهم. وعندها يسأل الرئيس الجمهورَ ان يرفعوا الاكواب عالياً ويرتلوا معه نشيد الكرمة المقدسة الذي يروى عن أبينا نوح انه رتّله وعائلته عندما ذاقوا دم الكرمة للمرة

الاولى . واذ ينتهي الحضور من توتيل النشيد يشربون اكوابهم هاتفين هتافات الفرح . ومن بعدها يتفرقون كل في سبيل تجارته او لذّته . وهذا هو نشيد الكرمة :

مجّدوا الكرمة البتولْ !
مجّدوا جذورها
مجدوا بذورها
مجدوا عصيرها
ساحر العقولْ
مجدوا الكرمة البتولْ

يا رهائن الترابْ ،
يا مساخر السرابْ ،
يا بيادر العذابْ ،
اكرعوا الذهولْ
في دم الكرمة البتولْ

يا مقابر السلَفْ ،
ومنابر الخلَفْ ،
احفظوا من التلَفْ
غرسةً تقول :
« من دمي تسكر الفصولْ »

مجـدوا ، مجـدوا ،

مجدوا الكرمة البتولْ !

•

في صباح اليوم السابق لافتتاح العيد طلبنا المعلم فلم نجده . فاضطرب السبعة أيما اضطراب ، وفي الحال انطلقوا يفتشون عنه . فتشوا كل النهار وكل الليل ، بالمشاعل والمصابيح ، في الفُلك وفي جوار الفُلك ، لكنهم ما عثروا له على أثر . ولقد أبدى شمادم من الاهتمام بالامر ما نفى من أذهاننا كل شك في براءته . إلا اننا كنا على يقين من ان المعلم ذهب ضحية يدٍ أثيمة .

وأخيراً ابتدأ المهرجان الكبير والسبعة ينتقلون من مكان الى مكان كأنهم سبعة أشباح، لا يتحرك لأحدهم لسان من شدة الحزن. ورتّلت الجماهير نشيد الكرمة ، ونزل الرئيس عن دكّته . وإذا بصوت يهتف عالياً فيتغلب على ضجة الجماهير وضوضائهم : « نريد ان نرى مرداد.نريد ان نسمع مرداد .»

ما كان ذلك الصوت الا صوت رستيدبون الذي كان قد اذاع في اماكن كثيرة ما فعله معه المعلم وما قاله له . وسرعان ما التقطت الجماهير هتافه فما كنت تسمع الا صراخاً يشق عنان السماء « نريد ان نرى مرداد . نريد ان نسمع مرداد . » فاغرورقت أعين السبعة بالدموع وشعروا كأن كلاّبات كانت تشدّ على حلاقيمهم .

وبغتةً هدأت الضوضاء وهبطت على الجمع سكينة رهيبة . فما كدنا نصدق أبصارنا عندما التفتنا فرأينا مرداد واقفاً على الدكّة العالية تحت العريش وقد رفع يده الى الجمهور طالباً السكوت .

# الفصل السادس والعشرون

مرداد يخطب في جماهير الحجاج يوم
الكرمة ويعتق الفلك من بعض اثقالها

**مرداد**

ها هو مرداد . ها هي الكرمة التي ما جُني نتاجها ولا شُرب دمها بعد .

ان مرداد لمثقل بقطوفه . لكن القاطفين لاهون عنه في كروم أخرى . وان دمه لفي انتظار الكأس . لكن السقاة والشاربين سكارى بخمر غير خمره .

يا رجال المحراث والمعول والمِشذّب ! اني ابارك محاريثكم ومعاولكم ومشاذبكم . ماذا عساكم حرثتم ونكشتم وشذّبتم حتى اليوم ؟

أحَرثتم الارض السباخ التي في نفوسكم وقد اشتبكت اشواكها الى حدّ ان اصبحت كالغابة الملتفة الادغال تأوي اليها وتتكاثر فيها كل اصناف الزحّافات البشعة والضواري الشرسة ؟

أنكشتم الجذور الخبيثة الملتفّة حول جذوركم في ظلمات المعاصي والتي تخنق ثماركم في الاكمام ؟

أم شذّبتم ما نخره السوس من جذوعكم واتلفته عساكر الطفيليات

من اغصانكم ؟

انكم لتجيدون حراثة كرومكم الارضية ونكشها وتشذيبها . اما الكرم غير الارضي الذي هو انتم فما يزال سباخاً مهملاً كل الاهمال.

باطل كل ما تعملون ما لم تهتموا بالكرّام قبل اهتمامكم بالكرم !

يا ذوي الايدي التي خشّنها العمل ! اني ابارك خشونة ايديكم .

يا اصدقاء الشاقول وميزان الزئبق ، وندماء المطرقة والسندان، ورفقاء الازميل والمنشار ـ ما ابرعكم كلّ في الحرفة التي اختارها لنفسه وما اوفر كفاءتكم!

انه لمن السهل عليكم ان تعرفوا من الاشياء مستواها واعماقها . اما مستواكم واعماقكم فما تجدون الى معرفتها سبيلاً .

وما ألبق ايديكم تطرّق قطعة من الحديد الخام على السندان فتخلق منها الشكل الذي تريدون . اما الانسان الخام فما عرفتم بعد كيف تطرقونه بمطرقة الارادة على سندان الفهم . ولا انتم تعلمتم من السندان كيف تقتبلون الضربة من غير ان تقابلوها بضربة .

ثم ما احذقكم في استعمال الازميل والمنشار ، سواء في الخشب وفي الحجر . اما الانسان المعوّج والمعقّد فما تعرفون كيف تقوّمونه او كيف تزيلون منه عقده .

باطلة كلّ حرفةٍ تحترفون ما لم تطبقوا قواعدها على المحترِفِ اولاً .

ايها المتاجرون لأجل الكسب بحاجات الناس الى نِعَم امّهم الارض والى ما تنتجه ايدي اخوانهم من الناس ! اني ابارك الحاجات ، والنعم ،

والنتاج ، وابارك حتى التجارة . اما الكسب ، وهو في الواقع خسارة ، فلا يجد بركة في فمي .

عندما تختلون بانفسكم في هدأة من الليل مثقلة بارقام القَدَر وتأخذون في تصفية حساب نهاركم ماذا عساكم تحسبونه ربحاً وماذا تحسبونه خسارة؟ اتحسبون ربحاً ما جمعتموه من المال علاوة على ما انفقتموه؟ اذن يا لضياع نهار بعتموه بكمية من المال مهما تكن وافرة. ويا لضياع قلوب الناس التي حملها على كفه هدايا لكم!

ان يكن كل همّكم من الناس محصوراً في ما حوته جيوب الناس ، فأنّى لكم الوصول الى قلوبهم؟ وانتم إن لم تجدوا السبيل الى قلوب الناس ، تعذّر عليكم الوصول الى قلب الله. وانتم ما لم تبلغوا قلب الله فاي جدوى لكم من حياتكم ؟ انها لخسارة في خسارة .

ان يكن ربحكم خسارة ، فيا لفداحة خسارتكم!

باطلة كل تجارتكم ما لم تحسبوا ربحكم محبةً وفهماً .

يا رجال التاج والصولجان ! انما الصولجان صِلٌّ في يدٍ تسرع في الجَرْحِ وتبطىء في الضمد . اما في اليد الحاملة بلسم المحبة فهو كقضيب الصاعقة يردّ الويل والدمار .

ألاَ تفحّصوا ايديكم باخلاص ودِقّة .

وان تاجاً من الذهب الابريز المرصّع بالالماس والياقوت والزمرّد ليَجلس جلسةً متقلقلة ، كئيبة على رأسٍ نفخه الادعاء ، والكبرياء ، والجهل ، والمجد الباطل ، وشهوة التسلطن على الناس . في حين ان تاجاً من انفس

اللآلىء واصفاها ماءٌ ليخجل من حقارته اذا مـا دعي للجلوس على رأس تكلله هالةٌ من الفهم والتغلب على النفس .

ألا تفحّصوا رؤوسكم باخلاص ودقة .

اتريدون ان تحكموا الناس؟ اذنْ تعلّموا اوّلاً ان تحكموا نفوسكم . اذ كيف لكم ان تحكموا الغير حكماً صالحاً من قبـل ان تحكموا نفوسكم حكماً صالحاً ؟ اتستطيع موجة ترغي وترْبد تحت سياط العاصفـة ان تحمل السكينة والسلام الى البحر ؟ ام عين دامعـة أن تُنفذ بسمةَ الغبطة الى قلب دامع ؟ ام يدٌ ترتجف ذعراً او غيظا ان تدير دفّة سفينةٍ وتسيّرهـا في السبيل السويّ ؟

ان حكام الناس محكومون من الناس . ومـا اكثر ما في الناس من صخب، وقلق، وفوضى . فهم كالبحر معرّضون لكل ريح من رياح السماء . وكالبحر لهم مدّهم وجزرهم ويكادون في بعض الاحايين ان يطغوا على الشواطىء . ولكنهم كالبحر في اعماقهم حيث لا انواء ولا زبد ولا رغوة بل سكينة وسلام وطمأنينة .

اذا ما شئتم ان تحكموا الناس فعليكم بالغوص الى اعماقهم . فالناس اكثر من امواج مزبدة . إلاّ انكم لن تبلغوا اعماق الناس ما لم تغوصوا الى اعمـاقكم اوّلاً . ولن تتمكنوا من الغوص الى اعماقكم إلاّ من بعـد ان تطرحوا الصولجان والتـاج جانباً كيما تفرغ يدكم فتستطيع ان تتلمس السبيل ، ويستريح رأسكم من حِمله فيتاح له ان يفكّر ويقدّر ويستنتج .

باطل هو حكمكم ، وفاسدة هي شرائعكم ، وفوضى هو نظامكم ما

لم تروّضوا الانسان الجموح فيكم الذي لا يستهويه شيء مثلما يستهويه اللعب بالصوالجة والتيجان .

يا رجال الكتاب والمبخرة ! ماذا عساكم تحرقون في المبخرة ، وماذا تقرأون في الكتاب ؟

أتحرقون دماً نزّ ثم تجمّد من افئدة نباتات معلومة ؟ ولكنّ ذلك يباع ويشرى في الاسواق ، ومقدار درهم منه يكفي لازعاج ايّ إله .

اتظنون رائحة البخور تقوى على نتانة البغض والحسد والطمع ، وعلى مراوغة الاعين المخاتلة ، ونفاق الالسنة النامة ، وقذارة الايدي الفاسقة ، وعلى رياء الالحاد يتبختر في جبّة الايمان ، والتكالب على حطام الارض ينفخ في ابواق القناعة الفردوسية ؟

انّ ربكم ليؤثر على رائحة البخور رائحةَ هذه الاشياء كلّها وقد أمتّموها جوعاً ، ثم احرقتموها في قلوبكم ، ثم ذرّيتم رمادها لرياح السماء الاربع .

ماذا عساكم تحرقون في المبخرة ؟

اتحرقون ترضية وسبحاً وابتهالاً ؟ لَخيرٌ لكم ان تتركوا إلهاً غضوباً ينشقّ بغضبه ؛ وإلهاً جائعاً ابداً الى التسبيح ان يقضي جوعاً ؛ وإلهاً قاسي القلب ان يموت بقساوة قلبه .

ما كان الله يوماً غضوباً ولا نهماً في حبه للتمجيد ، ولا قاسي القلب . ولكنكم انتم الغضاب والجائعون الى التمجيد وقساة القلوب .

لا بخوراً يريدكم الله ان تحرقوا امامه ، بل يريدكم ان تحرقوا غضبكم

وكبرياءكم وقساوة قلوبكم كيما تكونوا احراراً وقديرين على كل شيء مثله.

وماذا عساكم تقرأون في الكتاب؟

اتقرأون وصايا تسطّرونها بماء الذهب على جدران المعابد وقببها؟ ام تقرأون حقائق حيّةً تحفرونها على ألواح القلب؟

اتقرأون عقائد تعلّمون بها من على المنابر، وتدافعون عنها بالمنطق وكل اصناف الحيل الكلامية، وان لم تنجحوا في ذلك فبالمال وبحدّ السيف؟ ام تقرأون حياةً ليست عقيدة تحتاج الى دفاع. بل هي طريق عليكم ان تسلكوه الى الحرية، في المعبد وخارج المعبد، وفي الليل كما في النهار، وفي الامكنة المنخفضة مثلما في الامكنة المرتفعة؟ وانتم ما لم تسلكوا ذلك الطريق وتكونوا على بينة من هدفه فمن اين لكم الجرأة على دعوة الآخرين لسلوكه؟

ام تقرأون في الكتاب تصاميم وخرائط وقوائم اسعارٍ يتبين منها الناسُ مقدار ما يتوجب عليهم دفعه من الأرض لقاء كبت وكيت من السماء؟

أيها الدجّالون ويا سماسرة عمّوره! انكم لتبيعون السماء من الناس وأما الثمن الذي تقبضون فحصص الناس في الأرض. وانكم لتجعلون من الأرض جحيماً وتحثّون الناس على الهربة منها بينما تحفرون انتم الخنادق وتقيمون المتاريس لتتحصنوا في الارض الى الابد. فعلامَ لا تعكسون الآية فتحملوا الناس على بيع حصصهم في السماء بحصّة في الأرض؟

لو انكم أحسنتم قراءة ما في كتابكم لرحتم تعلّمون الناس كيف يجعلون من الأرض سماءً. فمن كان سماويّ القلب كانت الأرض سماءً له. ومن كان أرضيّ القلب حوّل السماء أرضاً. ألا كشفتم الانسان عن السماء

التي في قلبه بمحو كم كل ما في قلبه من فواصل بينه وبين اخيه الانسان، وبينه وبين المخلوقات ، وبينه وبين الله ؟ ولكنكم لا سبيل لكم الى ذلك ما لم تكونوا ذوي قلوب سماوية .

ليست السماء جنّة غنّاء تباع أو تؤجر . ان هي الا حالة من حالات القلب يستطاع بلوغها على هذه الارض مثلما يستطاع في أية بقعة من بقاع المسكونة التي لا تُحد . فعلامَ تشرئبّون بأعناقكم الى أبعد من الأرض ؟

لا ولا جهنم اتّون تخلصون من ناره بكثرة صلواتكم ودخان بخوركم . ان هي ايضاً غير حالة من حالات القلب يخبرها الناس على هذه الارض وفي اي مكان آخر من مفاوز الفضاء المترامية . فأين تهربون من نارٍ وقيدها القلب ان لم تهربوا من القلب ذاته ؟

باطلاً تفتشون عن الجنة ، وباطلاً تحاولون الفرار من جهنم ما دمتم ممسو كين بظلالكم. فما الجنة وجهنم غير حالتين ملازمتين للثنائية. وما لم يصبح الانسان موحّد الفكر والقلب والجسد ؛ ما لم ينعتق من ظلّه فيصبح موحد الارادة دام واقفاً باحدى رجليه في الجنّة وبالاخرى في جهنم. وحاله تلك هي حقاً جهنم.

أجل ، انه لأفظع من جهنم ان تكون لكم أجنحة من نور وأرجل من رصاص ؛ وان يرفعكم الأمل الى فوق ويشدكم اليأس الى أسفل ؛ وان ينشركم الايمان الباسل ويطويكم الشك الجبان .

ما كان جنّةً لانسان وجهنّمَ لآخر ليس خليقاً بان يدعى جنّة. كذلك ليس بجهنم ما كان جهنّمَ لواحد وجنّة لسواه . وإذ ان جنة البعض كثيراً ما تكون جهنّم الغير ، وعلى العكس ، لذلك ما كانت الجنة وجهنم حالتين

متناقضتين ، ثابتتين ، بل كانتا مرحلتين في الطريق الطويل المؤدي الى الانعتاق من كلتيهما .

يا حجّاج الكرمة المقدسة !

لا جنّات عند مرداد يغريكم بأثمارها كيما تفعلوا الخير . ولا عنده جُحُم يهددكم بنيرانها كيما ترتدعوا عن الشرّ . فما لم يكن لكم جنة في الخير الذي تعملون أزهر خيركم يوماً ثم ذوى الى الابد . وما لم يكن لكم جهنّم في الشرّ الذي ترتكبون هجع شرّكم ليلةً ثم أزهر واورق وأثمر الف شرّ .

ما جاءكم مرداد بجنّات وجُحُم . بل جاءكم بالفهم المقدس الذي يسمو بكم فوق نارِ أيّ جحيم ونضارة اي نعيم . أما عطيّة مرداد هذه فلن تستطيعوا اقتبالها باليد بل بالقلب . ولذلك كان عليكم ان تفرغوا القلب من كل رغبة وارادة عابرة ما خلا الرغبة في الفهم وارادة الوصول اليه .

ما انتم بالغرباء عن الارض ، ولا الأرض لكم برابّة . بل انكم قلبٌ من قلبها وصلبٌ من صلبها . وهي تحملكم بفرح وبغير أقل عناء على ظهرها القويّ ، الثابت الواسع . فما بالكم تصرّون على حملها على صدوركم الضئيلة ، الضيّقة ، الهابطة ثم تئنون ، وتلهثون وتكاد أنفاسكم تزهق من ثقل ما تحملون ؟

وان ضرع الأرض ليفيض لكم لبناً وعسلاً . فما بالكم تفسدون الاثنين بحموضة الطمع اذ تأخذون منهما اكثر من حاجتكم بكثير ؟

وانّ وجه الأرض لهادىء أبداً ومطمئنّ . فما بالكم تعكرون هدوءه وطمأنينته بالذعر والنزاع ؟

وان الأرض لوحدة كاملة . فما بالكم تجزئونها بسيوفكم وتخومكم ؟

وإن الارض لمطواع للناموس فهي لذلك خلو من كل همّ . فما بالكم يمزقكم العصيان وترهقكم الهموم ؟

وانتم ، مع ذلك ، أبقى من الارض ، وابقى من الشمس ومن كل دراري الفلك . فهذه كلها زائلة أما انتم فخالدون . فما لكم ترتجفون ارتجاف اوراق تصفقها الريح ؟

ان لم يكن لكم ما يدلكم على وحدتكم مع المسكونة لكفاكم بالارض دليلاً . والارض ، مع ذلك ، ليست سوى المرآة تنعكس عليها ظلالكم . ألعلّ المرآة أثمن من الناظر اليها ؟ ألعل ظل الانسان اعظم من الانسان ؟

ألا افركوا اعينكم واستيقظوا . فانتم أكثر من تراب . وقسمتكم من الوجود أكثر من ان تحيوا وتموتوا وتنسلوا طعاماً وافراً لاشداق الموت الذي لا يشبع . ان قسمتكم هي التحرر من الحياة والموت ، ومن الجنة والجحيم ، ومن كل اصناف المتناقضات التي تولّدها الثنائية والتي لا تنفك في نضال لا رحمة فيه ولا هوادة . ان قسمتكم هي ان تكونوا كرمةً مثمرة في كرمة الله المثمرة أبداً .

فمثلما يُدفن غصن حيّ من كرمة حيّة فينُبت جذوراً ويصبح كرمة مستقلة مثمرة وهو ما يزال متصلاً بالكرمة الأمّ ، هكذا الانسان ، ذلكم الغصن الحيّ في الكرمة الالهية ، اذا ما دُفن في تربة الوهته اصبح الهاً وظلّ متصلاً بالله اتصالاً لا انقطاع له .

ألا بدّ ، اذن ، للانسان من ان يُدفن حيّاً كيما يعود الى الحياة ؟

•

إي ثم إي. فأنتم ما لم تُدفنوا لثنائية الموت والحياة لن تنهضوا لوحدة الوجود . وما لم تغتذوا بقطوف المحبة لن تمتلئوا بخمرة الفهم . وانتم ما لم تسكروا بخمرة الفهم لن تصحوا بقبلة الحرية .

انكم لا تأكلون محبة اذ تأكلون من عنب الكرمة الارضية . إنما تأكلون جوعاً اكبر لتسكّنوا به جوعاً أصغر . وانكم لا تشربون فهماً اذ تشربون من دم الكرمة الارضية . وإنما تشربون ذهولاً قصير المدى عن آلامكم لتستفيقوا منه على آلام أشدّ وأفظع من ذي قبل . فكأنكم لا تهربون من ذاتكم المتعبة الاّ لتعود فتلاقيكم وراء أول عطفة في الطريق .

أما العنب الذي يقدمه لكم مرداد فعنب لا يتعفّن ولا يتهرّأ . ومن شبع منه مرّةً ظلَّ شبعانَ الى الابد . والخمر التي عصرها مرداد لكم خمر تحرق الشفاه التي تخشى النار ولكنها تروي القلوب الطامحة الى الذهول عن ذاتها حتى الأبد .

أفيكم من هم جياع الى عنبي ؟ ليتقدموا بسلالهم . ام بينكم من هم عطاش الى دمي ؟ ليتقدموا بأكوابهم . لان مرداد مثقل بقطوفه ويكاد يختنق بفيضان دمه .

لقد كان يوم الكرمة المقدسة فيما مضى يوماً مكرساً لنسيان الذات؛ يوماً نشوانَ بخمرة المحبة ومغموراً بوهج الفهم؛ يوماً راقصاً لتصفيق أجنحة الحرية؛ يوماً تزاح فيه الستائر وتهدم الفواصل فيندمج الواحد في الكل ، والكل في الواحد . فانظروا ما هو اليوم .

لقد اصبح ذلك اليوم اسبوعاً من الاعتداد بالذات والاهتمام بها حتى الكآبة؛ ومعرضاً للجشع يتاجر بالجشع؛ وللعبودية تلهو مع العبودية، وللجهل يفحش بالجهل.

حتى ان الفلك ذاتها، التي كانت في سالف الاحقاب معصرةً للايمان والمحبة والحرية، قد تحولت اليوم معصرةً هائلة للنبيذ وسوقاً فظيعة للتجارة. فهي اليوم تأخذ غلّة كرومكم عنباً طاهراً لتبيعها منكم خمراً قتّالة. وتأخذ نتاج أيديكم لتغلّ به ايديكم، وعرق جبينكم فتحوله جمراً تكوي به جبينكم.

ركبت الفلك متن الشطط سنين طوالاً. أما الآن فدفتها موجهة في السبيل السويّ. وهي تريد ان تنعتق من الاثقال التي لا نفع منها كيما تسير في سبيلها بسهولة وسلامة.

لذلك ستُرَدّ كل هبة الى واهبها. وكل مدين سيعفى من دينه. فالفلك لا تعرف واهباً غير الله. والله لا يرضى لانسان ان يكون مديناً — حتى لذاته.

هكذا علّمت نوحاً.

وهكذا اعلمكم.

•

# الفصل السابع والعشرون

أيحسن ان تُعلَن الحقيقة للكل بالسواء ام للقليل من المختارين ؟
مرداد يكشف سر احتفائه عشية العيد ثم يكلمنا في السلطة الزائفة

**نروندا** : مرّت ايام على عيد الكرمة وعاد السبعة فاجتمعوا حول المعلم في وكر النسور . وكان المعلم ساكتاً بينا الرفاق يتبادلون النظرات بشأن ما جرى في العيد . فمن مُظهرٍ دهشته للحماسة التي ابدتها الجماهير للمعلم وكلامه . ومن متعجب لشمادم كيف انه ما فاه بكلمة ولا حرك ساكناً طيلة الوقت الذي أُخرجت فيه خوابي النبيذ من اقبيتها وفُرّقت على الجماهير، ورُدَّ الكثير من الهبات الثمينة الى واهبيه . بل كان واقفاً مكتوف اليدين ينظر الى ما يجري ولا يعترض عليه الا بدموعه المطّالة .

امّا بنّون فما كان يرى ما رآه الآخرون . ففي اعتقاده ان هتاف الجماهير ما كان تحمساً للمعلّم وكلماته بل فرحاً بالهبات التي رُدّت والديون التي سُومح بها . حتى انه لامَ على المعلم اسرافه في انفاق قواه من غير جدوى على جماهير لا تفتش عن لذة اسمى من لذة الاكل والشرب والعبث . واردف قائلاً ان الحقيقة لا يحسن ان تذاع للكل بغير تمييز ، بل لنخبة قليلة من

المختارين . وعندها تكلّم المعلم فقال :

ان نَفَساً تقذفه صدوركم لا بدّ له من ان يلج صدر انسانٍ ما . لا تسألوا عن الصدر صدر مَنْ هـو . بل اهتمّوا للنَفَس كيما يكون طاهراً من كل غش .

مرداد

وان كلمة تتحرك بها شفاهكم لا بدّ لها من ان تلج أذن انسان من الناس. لا تسألوا عن الاذن أذن مَن هي.بل اهتمّوا للكلمة كيا تكون رسولاً حقاً من رسل الحرية الحقة .

وانّ فكراً يجول في سكينة افكاركم لا بـدّ له من ان يتّصل بلسانِ انسانٍ ما فيتلفظ به . لا تسألوا عن اللسان لسان مَن هو . بل اهتموا للفكر كيا يكون شعاعاً من اشعة الفهم المقدس .

لا يذهب جهد ، مهما يكن ، جزافاً . فمن البذور مـا يبقى دفيناً في التراب سنة بعد سنة . ولكنه سرعان ما يتململ الى الحياة حالما تتاح له ظروف مؤاتية .

ان بذور الحق لَدَفينـة في كل انسان وكل شيء . فليس شغلكم ان تبذروا الحق بل ان تُعدُّوا الظروف المؤاتية لظهوره.

ليس في الابديّة من مستحيل. لذلك لا تقنطوا من حرية ايّ انسان . بل احملوا رسالة الانعتاق الى الكل بالسواء ، احملوها الى غير التوّاقين بمثل الايمان والحماسة اللذين تحملونها بهما الى التوّاقين . اذ لا بدّ لمن لا يتوق الآن من ان يتوق في الغد ؛ مثلما لا بدّ لفراخ النسر مـا تزال زغب الحواصل في عشها من ان تكتسي يوماً بالريش ، فترتقي في الشمس ثم تشقّ بقوادمها اقصى

مجاهل الجوّ .

**ميكاستر** : انه ليحزننا ان المعلّم، رغم استفهاماتنا المتكررة، ما شاء حتى اليوم ان يبوح لنا بسرّ اختفائه قبيل عيد الكرمة. العلّنا لسنا اهلاً لثقته؟

**مرداد** من كان اهلاً لمحبة مرداد احرِ به ان يكون اهلاً لثقته . العل الثقة اكبر من المحبة ؟ الست اعطيكم من قلبي بغير حساب ؟

اذا ما سكتُّ عن ذلك الحادث المستمجّ فلأني اردت ان اتيح لشمادم فرصة للتوبة. فهو الذي اقتادني من هذا الوكر بمساعدة رَجُلين غريبين وطرحني في الهوّة السوداء . يا لتعس شمادم ! ما دار له في خلد قط ان مرداد لا تؤذيه حتى الهوّة السوداء ، بل تقتبله بايدٍ من حريرٍ وتأتيه بسلالم الى القمة .

**زوندا** : صُعقنا اذ سمعنا ذلك من المعلم . وتهيّب الكل فما منّا مَن جرؤَ ان يسأله كيف نجا من الهلاك الأكيد . وبقينا سكوتاً حصّة من الوقت طويلة .

**همبال** : لماذا يضطهد شمادمُ المعلّمَ بينا المعلم يحب شمادم ؟

**مرداد** شمادم لا يضطهدني . وانما يضطهد شمادمُ شمادمَ .

اعطوا العميان حتى شبه سلطان يفقأوا عيون المبصرين. ولعلّهم يبدأون بعيون الذين يجهدون انفسهم فوق الجميع ليردّوا اليهم البصر .

سلّطوا العبد على العالم ولو ليوم واحد يحوّله الى عالم عبيد . ولعل اول من ينهال عليهم بسوطه ويكبلهم بحديده اولئك الذين يسعون ليل نهار في سبيل تحريره من عبوديته .

كل سلطة عالمية ، مهما يكن مصدرها ، سلطة زائفة . لذلك تتذرع برنّة المهماز ، وقلقلة السيف ، وأنّى سارت واكبتها الطبول والزمور ، والمظاهر البرّاقة ، والعظمة الخدّاعة مخافة ان يجسر احد ان ينفذ ببصره الى قلبها الاسود الفارغ . اما عروشها المتداعية فتشيدها على المدافع والحراب . واما نفسها المنفوخة بالمجد الباطل فتعلّق في عنقها وعلى صدرها التمائم والتعاويذ التي تبعث الرهبة في قلوب الناظرين لئلاّ تجسر عين « خبيثة » ان تطل على ما تخبأ خلفها من زري وفاقة .

ما سلطةٌ ذاك شأنها غير حجاب على اعين الطامحين اليها ، ولعنة للذين يمارسونها . فهي لا دأب لها سوى المحافظة على ذاتها حتى بافحش الاثمان وافظعها . فلكم بطشتْ بذويها ومَنْ والاها ومَن عاندها .

اما ترون الناس في اضطراب دائم لشدّة شغفهم بالسلطة ؟ فالذين السلطة في ايديهم يناضلون ابداً عنها . والذين فرغت ايديهم منها يناضلون ابداً في سبيل الحصول عليها . بينا الانسان - ذلكم الاله الذي ما يزال في القمط - يداس بالارجل والسنابك وليس في حومة الوغى من يحفل بوجوده أو من يمنّ عليه باقلّ عناية او محبة .

ويحتدم القتال ويجنّ جنون المتقاتلين اذ يسكرون بالدم فلا يخطر لواحد منهم ان يميط اللثام عن وجه العروس الكاذبة التي من اجلها يتقاتلون ليفضح هول شناعتها لكل ذي عينين .

صدّقوا ايها الرهبان أن ما من سلطة جديرة حتى برفّة جفن الاّ سلطة الفهم المقدس ، فهي لا تثمّن . وكل تضحية في سبيلها ، وان جلّت ، تبدو

طفيفة ، تافهة . وهذه اذا ما نلتمسوها مرةً نلتمسوها حتى نهاية الدهر . واذ ذاك كانت في كلماتكم قوّة لا تعادلها كل جيوش العالم ؛ وفي اعمالكم بركات لو تكاتفت سلطات الارض كلها لما جاءت الارض بقسم منها ضئيل .

ذلك لان الفهم درعه الفهم وساعده المحبة . فهو لا يضطهد ولا يستبد ، بل كالندى ينزل بالسواء على كل القلوب القاحلة ، وبالسواء يبارك القلوب التي تمتصه والقلوب التي ترفضه . وهو لا يلجأ الى القوة الخارجية لانه واثق من القوة التي في داخله . ولا يلوذ بالوعيد والتهويل ، لانه لا يعرف الذعر والوجل .

لله ما افقر العالم الى الفهم ! لذلك ترونه يستر فقره بستائر السلطة الزائفة . والسلطة الزائفة لا تنفك تبرم معاهدات الهجوم والدفاع مع القوّة الزائفة . والاثنتان معاً تسلّمان قيادتهما الى الخوف . والخوف يسحقهما سحقاً . فمنذ كان العالم والضعيف يحالف الضعيف للذود عن ضعفهما .

هكذا تسير السلطة العالمية والقوة الغاشمة جنباً الى جنب ويداً بيد مسوقتين بسوط الخوف . وهكذا تدفعان الجزية في كل يوم للجهل — تدفعانها حروباً طاحنة ، ودماء قانية ، ودموعاً سخينة . والجهل يفترّ عن ثغر الرضى ويقول لكلتيهما : « نعمّا . نعمّا . »

وشمادم قال لشمادم « نعما . نعما » عندما قذف بمرداد الى الهاوية . لكنه ما خطر لشمادم قط انه اذ قذف بمرداد الى الهاوية انما قذف بنفسه لا بمرداد . لان الهاوية اضيق من ان تسع مرداد . بيد انها فسيحة جداً لشمادم . ويا لطول الزمان الذي سينفقه شمادم في تسلّق جدرانها الملِسة ، الدكناء !

حلية زائفة هي كل سلطة عالمية . دعوا الذين ما يزالون اطفالاً من

حيث الفهم يتلهون بها . اما انتم فحذارِ من ان تفرضوا سلطتكم بالقوة على اي انسان . فما من سلطة تفرضها القوّة إلاّ تنتزعها القوة عاجلاً او آجلاً .

لا تطلبوا السلطة على حياة الناس . تلك من خصائص الارادة الكلية . ولا السلطة على اموال الناس ومتاعهم . فالسلاسل التي تربط الناس باموالهم ومتاعهم ليست باضعف من التي تربطهم بحياتهم . والناس يكرهون الذين يتعرضون لسلاسلهم ولا يأمنون لهم جانباً . واذا ما طلبتم فاطلبوا ان يتاح لكم الدخول الى قلوب الناس بمفتاح المحبة والفهم . حتى اذا ما دخلتم قلوب الناس واقمتم فيها سهل عليكم ان تعملوا على فكّهم من سلاسلهم . فالمحبة اذ ذاك تقود ايديكم بينا الفهم يحمل لكم السراج .

•

# الفصل الثامن والعشرون

امير يتعار وشمادم في وكر النسور . الحوار بين الامير
ومرداد حول الحرب والسلم . شمادم يثأر لنفسه من مرداد

**نروندا** : ما وقف المعلم عن الكلام ورحنا نفكّر في ما قال صامتين حتى سمعنا وقع أقدام ثقيلة خارج وكر النسور ووشوشة أصوات غريبة . وما عتّم ان برز لنا في مدخل الكهف جنديان مدجّجان بالسلاح وكأنهما من العمالقة. فوقف كل منهما في جانب من جانبيّ المدخل وفي يده سيف مصلت يبرق في الشمس . وتبع الجنديين أميرٌ فتيّ في حلله الملكية وتلاه شمادم يمشي في حذر وخجل ، ثم جنديان آخران من طراز الأوّلَيْن. وهذان وقفا خارجاً.

وكان الأمير احد امراء جبال الآس واللبان وأوسعهم شهرة وسلطاناً واوفرهم عدّة وغنىً. فوقف هنيهة في الباب يتفقّد الجماعة التي داخل الكهف ، وعندما استقرّت عيناه الكبيرتان الصافيتان على المعلّم انحنى الى الارض وقال:

**الأمير** : السلام ايها الرجل القديس ! لقد جئنا نؤدي ما علينا من واجب التكريم الى مرداد العظيم الذي امتدت شهرته في هذه الجبال حتى بلغت ابواب عاصمتنا القصيّة .

**مرداد** الشهرة خارج بيتها كاعب في مركبة من نار . اما في بيتها فعجوز تحبو على عكازتين، وشمادم شاهدي على صحة ما اقول. لا تركنن ّ ايها الأمير الى عبث الشهرة .

**الأمير :** ولكنّ عبثها حلو المذاق . فما احلى ان يطبع الانسان اسمه على شفاه الناس !

**مرداد** لا فرق بين اسم تطبعه على شفة وآخر تكتبه على رمال الشاطىء. ذاك تمحوه الريح بهبّة . وهذا يمحوه الناس بعطسة . اما اذا شئت ألاّ يمحو الناس اسمك بعطسة فاطبعه في حبّات قلوبهم بأحرف من نار .

**الأمير :** ولكن قلوب الناس مقفلة بأقفال كثيرة .

**مرداد** قد تكون الاقفال كثيرة . أما المفتاح فواحد .

**الأمير :** ألعلّ عندك مثل ذلك المفتاح ؟ فاني لفي أمسّ الحاجة اليه .

**مرداد** انه لفي حوزتك كذلك .

**الأمير :** أوّاه ، يا معلم ! انك لتثمّنني بأكثر من قيمتي بمراحل . فها أنا منذ سنين أفتش عن مفتاح لقلب جاري فلا أجده . وجاري أمير عاتٍ جبّار وهو يلجّ عليّ بالقتال فأماطله . إلا انني رغم ميولي السلمية سأكرَه على رفع سلاحي بوجهه . لا تغرّنك حللي وحلاي . فأنا ما تمكنت حتى اليوم من ان أجد فيها المفتاح الذي افتش عنه .

مرداد لا مفتاح في هذه بل تضليل عن المفتاح . فهي تخدع يديك ، وتعرقل قدميك، وتموّه على عينيك فتجعل تفتيشك عقيماً من كل جدوى .

**الأمير** : ماذا عسى المعلم ان يعني بذلك ؟ أيعني انه عليّ ان أطرح بحللي وحلاي جانباً كيما يتيسر لي الوصول الى قلب جاري ؟

مرداد أعني انك ان تمسّكت بها أفلتَ منك جارك . أو تمسّكتَ بجارك أفلتتْ هي منك. ومَنْ أضاع جاره كمن أضاع نفسه .

**الامير** : ما أظنني أرضى ، ولا اخالك ترضى لي ، ان اشتري صداقة جاري بمثل هذا الثمن الفاحش .

مرداد ألا تشتري نفسك بمثل هذا الثمن التافه ؟

**الامير** : أأشتري نفسي ؟ ما أنا بالأسير لأدفع فدية . وعلاوة على ذلك فرهن بناني جيش كامل العدّة وافر العدد. وليس لجاري ان يباهي بأفضل منه .

مرداد من كان أسير انسانٍ واحد ، او شيء واحد ، كان له من أسره هوانٌ لا يطاق ومرارة أين من طعمها العلقم. فكيف بمن كان أسير جيش من الناس والاشياء ؟ انه لمَنفيٌّ بغير أوبة . من اتكل على شيء كان أسير ذلك الشيء على قدر اتكاله عليه . لذلك أقول لك ايها الامير : اتكل على الله وحده . فمن كان أسير الله كان حرّاً من غير شك .

**الامير** : ألا أذود ، اذن ، عن عرش أجدادي، وعن بلادي وعبادي؟

مرداد بل ذد عن نفسك .

**الامير** : ولذلك احتفظ بجيشي .

**مرداد** بل لذلك عليك ان تسرّح جيشك .

**الامير** : لكن جاري يبتلعني ومملكتي في الحال .

**مرداد** قد يكتسح جارك مملكتك . أما أنت فلا يقوى على ابتلاعك انسان .

ان سجنين اذا ما اندمجا في واحد لا يؤلفان ولو كوخاً حقيراً للحرية . افرح لنفسك اذا ما طُردتَ من سجنك . ولا تحسد الذي يطردك منه ليحلّ محلك فيه .

**الامير** : اني من سلالة مشهود لها بالبأس في النزال . فما عُرف عنا يوماً انّا شهرنا الحرب ظلماً وعدواناً على أحد . ولكننا اذا ما تحدانا أحد للحرب نكّلنا به تنكيلاً فما غادرنا ميدان القتال الا على أشلاء العدوّ واعلامنا تخفق عالية ، زاهية . انك لتسيء النصح يا سيدي اذ تنصح لي بان ادع جاري يفعل بمملكتي ما يشاء .

**مرداد** أما قلتَ انك تؤثر السلم ؟

**الامير** : أجل ، اني لأؤثر السلم .

**مرداد** اذن ، لا تحارب .

**الامير** : لكن جاري يأبى إلا محاربتي . فلا مندوحة لي عن حربه كيما

يستتب بيننا السلم .

**مرداد** اذنْ تريد ان تقتل جارك كيما تعيش واياه في سلم ؟ انه لمشهد غريب حقاً . وأي فضلٍ لحيّ ان يعيش في سلمٍ مع ميت ؟

لكنما الفضل كل الفضل لحيّ يعيش في سلم مع الأحياء . ان لم يكن لك بدّ من محاربة كل مخلوقٍ خالفك في الذوق والمصلحة فأحرِ بك ان تعلن الحرب على الله الذي اوجد هذه المخلوقات . او على المسكونة بأسرها . فما اكثر ما فيها من كائنات تشوش عليك افكارك وتثير لواعج غضبك وكوامن احزانك ، وتفرض ذاتها فرضاً على حياتك ، شئت ام أبيت .

**الامير** : وكيف العمل ؟ ألا اقاتل من اعرضُ عليه السلم فيأبى الاّ القتال ؟

**مرداد** بلى قاتلْ .

**الامير** : الآن تنصحني بالصواب .

**مرداد** اجل ، قاتل ! ولكن لا تقاتل جارك بل كل ما من شأنه ان يحمل جارك على قتالك .

لماذا يرغب جارك في قتالك ؟ ألأن عينيك زرقاوان وعينيه عسليّتان ؟ ام لأن في احلامك ملائكة وفي احلامه شياطين ؟ ام لانك تحبه محبتك انفسك وتحسب كل ما لك كأنه له ؟

ما من اجل ذلك يرغب جارك في مقاتلتك أيها الامير . ولكن من اجل حللك وحلاك ، ومن اجل عرشك وتاجك ، ومن أجل مجدك وسلطانك

وكل الأشياء التي أنت اميرٌ لها . أفلا تؤثر ان تقهره من غير ان ترفع في وجهه سيفاً او قناةً ؟ اذن فاسبقه الى ساحة القتال واعلن الحرب على كل ما يبغي محاربتك من أجله . حتى اذا ما تمّت لك الغلبة ، وتحرّرت من شباك هذه الاشياء بطرحك اياها على المزبلة ، وجاء جارك بجيشه ساعياً في طلبها فألفاها هنالك ، وقف زحفه وحار في أمره وما عاد يدري مَنْ يقاتل . ولعله يقول اذ ذاك في نفسه : « لو ان هذه الأشياء كانت جديرة بالقتال لما طرحها جاري على المزبلة . »

أما اذا أمعن جارك في جنونه فانقضّ على المزبلة وحملها الى بيته فافرح لانه أراحك من عبء ثقيل كربه، وارثِ لحاله وسوء بخته .

**الامير** : وماذا عساني أقول في شرفي وهو أعزّ لديَّ من كل ممتلكاتي؟

**مرداد**

شرف الانسان الأوحد هو كونه انساناً — صورة الله الناطقة ومثاله الحيّ . أما كل شرف عداه فخزي وهوان .

ان شرفاً يُسبغه عليك الناس يسلبك اياه الناس . وشرفاً يخطه السيف يمحوه السيف.ما من شرف ،أيها الأمير ،يساوي نَبلةً صدِئةً ؛ فكيف بدمعةٍ حرّى ، وكيف بقطرة نجيع قانية ؟

**الامير** : والحرية — حريتي وحرّية شعبي — أليست هذه حقيقة بأعظم التضحيات ؟

**مرداد**

الحرية الحقّة جديرة حتى بتضحية الذات . وهذه لا سلاح جارك يقوى على اغتصابها منك ، ولا سلاحك يقوى على اغتصابها منه او الدفاع عنها ضده . أما ساحة الوغى فليست سوى مدفن لها .

انما تُنال الحرية الحقة في القلب وتُفقد فيه . أتريد الحرب ؟ اشهرها ، اذن ، في قلبك على قلبك ، وامضِ فيها بغير هوادة على كل أملٍ ورغبة وخوف من شأنها ان تجعل من عالمك زريبة فسد هواها وضاق مداها . حتى اذا ما عُقِد النصر لك وجدت عالمك أفسح من المسكونة ، وكنت فيه طليقاً كالهواء ، ولا عقبة او عثرة في سبيلك أنّى اتجهت . تلك هي الحرب الوحيدة التي يجمل بالانسان اعلانها . وأنت اذا ما خضتَ يوماً غمارها شغلتك عن كل حرب سواها فعرفت ان الحروب التي يشنّها الناس على الناس لا تختلف بشيء عن حروب ذوات الناب والمخلب ، وانها ليست سوى أحابيل شيطانية تصرف الناس عن حربهم مع نفوسهم التي لا حرب مقدسة سواها . من ربح هذه الحرب ربح مجداً أبقى من الدهر . اما الظافرون في اي حرب سواها فظفرهم انكسار شائن . وتلك هي فظاعة كل حرب يشنها الناس : أنّ الانكسار فيها نصيب الغالب والمغلوب بالسواء .

أتريد السلم ؟ اذن لا تفتش عنه في المعاهدات الضخمة ولا تحاول ان تنقشه حتى في الصخر . فالقلم الذي يخطّ كلمة « السلم » بسهولة يستطيع شطبها بمثل تلك السهولة وكتابة « الحرب » بدلاً منها . والازميل الذي ينقش في الصخر « ليكن بيننا سلم » يستطيع ان ينقش بعين السهولة « لتكن بيننا حرب » . وفوق ذلك فالقلم والازميل والقرطاس والصخر سرعان ما يعبث بها السوس والعفن والصدأ وكيمياء العناصر المتقلبة بين لحظة ولحظة . لكنّ قلب الانسان الذي هو معقل الفهم منبع ضدّ هذه الآفات كلها . فما اكتشف انسان الفهم في قلبه الا كان الظفر نصيبه والسلم رفيقه حتى الأبد . فالقلب الفاهم يحيا حياة سلمٍ دائم حتى في وسط عالمٍ مستعر بنيران الحروب .

ان قلباً جاهلاً لقلب مزدوج . والقلب المزدوج يخلق عالماً مزدوجاً . والعالم المزدوج يولّد أبداً نزاعاً وحروباً . بينما القلب الفاهم قلب موحّد . والقلب الموحد يخلق عالماً موحّداً ـ والعالم الموحّد عالم سلم ابديّ . اذ لا بد للحرب من خصمين . لذلك أنصح لك ايها الأمير بان تشن حرباً على قلبك كيما تجعله موحداً . أما جزاء الفوز فسلم ينتهي الزمان ولا ينتهي .

يوم يصبح في امكانك ، أيها الأمير ، ان تتخذ من ايّ حجر عرشاً ، ومن اية مغارة حصناً ، يومذاك تتمنى الشمس ان تكون عرشاً لك والثريا ان تكون حصونك وابراجك .

ويوم تبصر في أصغر اقحوانة وساماً ، وفي احقر دودة معلّماً ، يومذاك تتسابق الدراري لتجلس اوسمةً على صدرك ، وتشتهي الارض لو تكون منبراً لك .

ويوم تغدو حاكمَ قلبك المطلق والمطاع ، فما همّك يومذاك مَنْ يحكم جسدك ؟ ويوم تغدو المسكونة كلها ملكاً لك ، فأي بأس عليك لو ادّعى الملكية هذا الانسان او ذاك في هذه البقعة او في تلك من بقاع الارض ؟

**الامير** : ان في كلامك ما يُغري ، أيها المعلم . ولكنني ، رغم ذلك ، ما انفكّ اعتقد ان الحرب سنّة الطبيعة . حتى الأسماك في بحورها لا تنقطع عن الحرب . والضعيف في الطبيعة هو أبداً فريسة القويّ . أما أنا فما ارضى ان اكون فريسة لأحد .

**مرداد** تتراءى لك الطبيعة كأنها في حرب وما هي في حرب . ولكنها تطعم ذاتها من ذاتها وتجدد ذاتها بذاتها . فيحسب الجاهل محبتها

حرباً. وهي ما قدمت الضعيف طعاماً للقويّ الاّ قدمت القوي طعاماً للضعيف. ومن ثم فمَن هو القوي . ومن هو الضعيف في الطبيعة ؟ انما الطبيعة وحدها قويّة، وكل ما عداها ضعيف ينصاع لمشيئتها وينجرف صاغراً بامواج نهر الموت.

ما من قويّ حقاً الاّ من كان أقوى من الموت. والانسان، أيها الامير، أقوى من الموت. أجل، وأقوى من الطبيعة. فهو ما أكل من قلبها المحسوس الاّ ليبلغ قلبها الذي لا يُحَسّ . وهو ما تناسل الاّ ليرقى الى ما هو أسمى من التناسل .

دع الذين دأبهم تبرير شهواتهم القذرة بغرائز الحيوان النقيّة يتكنّون بالخنزير البرّيّ ، وبالذئب وابن آوى او غير هذه من الضواري . أمّا ان يدنسوا لَقَب الانسان فحرام عليهم حرام .

صدَقَ مردادَ، أيها الأمير، وعش في سلام.

**الامير** : سمعت من المتقدّم ان لمرداد معرفة عظيمة بأسرار السحر وما يتفرع عنه. وأنا أودّ اليه ان يريني آية من آيات سحره لكي اؤمن به .

**مرداد**: ان يكن الكشف عن الله في الانسان سحراً فمرداد ساحر من غير شك . أتريد مني برهاناً على ذلك وآية ؟ تأمّل ، إذنْ ، مرداد . فأنا الآية والبرهان .

والآن فاعمل ما جئت لتعمله أيها الأمير .

**الامير** : حقاً انك لساحر ماهر . فمن أدراك ان لي غرضاً من مجيئي الى هنا غير تشنيف اذنيّ بثرثرتك وهذيانك ؟ انّ أمير بتْعار لساحر كذلك . ولكن سحره من غير نوع سحرك. وهو سيريك في الحال آيات من فنه بيّنات.

( الى رجاله ) هاتوا سلاسلكم وكبّلوا هذا الاله ـ الانسان او الانسان ـ الاله بيديه ورجليه لنريه ومَن حواليه آيات سحرنا الرهيب .

**روندا** : وكما ينقضّ وحش ضارٍ على فريسته انقض الجنود الاربعة على المعلم وأخذوا يوثقون سلاسلهم حول يديه ورجليه. ولبث السبعة في أماكنهم مبهوتين ينظرون الى ما يجري امامهم ولا يدرون أيحملونه على محمل الهزل ام الجدّ . لكنّ ميكايون وزمورا كانا أسبق من الآخرين الى فهم حراجة الموقف وسوء مغبّته . فوثبا على الجنود وثبة لَبُؤَتَيْن هائجين وكادا يبطشان بهم لو لم يردعهما المعلم بصوته الهادىء المطمئن :

**مرداد** لیعملوا كل ما يقضي به سحرهم يا ميكايون . وانت يا زمورا دعهم وشأنهم . فسلاسلهم لن تنال من مرداد أكثر مما نالته الهوّة السوداء . ليبتهج اليوم شمادم برتق ما تمزّق من سلطته بما تبقّى من سلطة امير بتعار . سيعود الرتق فيمزق الاثنين .

**ميكايون** : أنقِف مكتوفي الأيدي بينا يكبّلون معلمنا كما يكبلون المجرمين ؟

**مرداد** لا تضطربنّ قلوبكم من أجلي . بل كونوا في سلام . فستأتيكم ايام يفعلون بكم فيها مثلما يفعلون بي الآن . لكنهم لن يؤذوكم ، ويؤذون انفسهم .

**الامير** : هكذا يفعلون بكل دجّال يجرؤ على معاندة السلطة المشروعة . هذا الرجل القديس ( مشيراً الى شمادم ) هو رئيس هذه الجماعة الشرعيّ . وكلمته يجب ان تكون قانوناً للكل . وهذه الفلك المقدسة التي تنعمون بخيراتها

هي تحت رعايتي وحمايتي . فعيني ساهرة أبداً عليها ، ويدي القوية تحرس سقفها وكل ممتلكاتها ، وسيفي البتّار بقطع كل يـد تنزل بها اقل اذيّة . فليعرف الكل ذلك وليحذروا !

( ثم الى رجاله ) قودوا هذا المشعوذ من هنا . فتعاليمه الخطرة تكاد تقضي على الفلك . وهي ستقضي على مملكتنا ، حتى وكل الأرض ، ان لم نضع اليوم حدّاً لمجاريها الخبيثة . دعوه من الآن فصاعداً ينشر تعاليمه على الجدران السود في سجن بتعار . خذوه من هنا !

**نروندا** : واقتاد الجنود المعلم اثنـان من امامه واثنان من خلفه ، وتبعهم الأمير وشمادم مَزهوَّيْن بفوزهما واندحار مرداد .

ومشى السبعة خلف ذلك الموكب الصغير المشؤوم ، واعينهم تتتبّع كل حركة من حركات المعلم ، وشفاههم مطبقة بالأسى ، وقلوبهم تتفجّر دموعاً .

اما المعلم فكان يمشي بخطوات رزينة ثابتة ورأسه مرفوع لا يعرف الذلّ . ومن بعد ان سار مسافةً التفت الينا وقال :

**مرداد** اثبتوا في مرداد . فهو لن يغادركم حتى يسيّر فلكه ويسلّمكم الدفّة .

**نروندا** : واخيراً غـاب المعلم ، اما وجهه فما غاب عنّا . واما كلماته الاخيرة فما برحت ترنّ في آذاننا مرفقة بقلقلة السلاسل الضخمة .

•

# الفصل التاسع والعشرون

شمادم يحاول بدون جدوى ان يستميل الرفاق اليه . مرداد يعود
الينا بطريقة عجيبة ويعطي كلاً منا – ما عدا شمادم – قبلة الايمان

**نروندا :** واقبل الشتاء بَضّ الجبين والجلباب ، قاسي القلب والناب . وسكنت من تحته الجبال فلا نبض ولا نَفَس ولا صوت إلاّ في المنخفضات السحيقة حيث ما برحت بادية للعيان رُقَع من الكلإ الشائب والاشجار العارية وبينها جداول تتلوى ذات اليمين واليسار حاملة ذَوْبها الفضّي الى البحر .

وكان السبعة في الفلك كأنهم سبعة اشباح على غارب اليمّ ، ترفعهم موجة وتخفضهم موجة . وتصفّقهم رياح اليأس والأمل . فميكايون وميكاستر وزمورا ما برحوا متمسكين بأملهم ان المعلم سيعود لا محالة حسبما وعد . بينا بنّون وهمبال وأبيار كانوا الى اليأس اقرب منهم الى الامل . ولكنهم كلهم كانوا يحسّون فراغاً هائلاً وتفاهة في حياتهم ما احسوا مثلها من قبل .

اما الفلك فكانت باردة ، عابسة ، ضيقة . وقد توشحت جدرانها بصمتٍ كأنه الجليد ، رغم كل جهود شمادم ان ينفخ فيها حياة ودفئاً . فهو منذ اليوم الذي اقتادوا فيه مرداد الى بتعار ما انفكّ يتودّد إلينا ويحاول ان

يغرقنا في بحر من لطفه وكرمه . فقد اخذ يقدم الينا من المآكل اشهاه ، ومن الخمر انفسها ، وراح يحرق القناطير من الفحم والحطب لتدفئتنا ، ويبدي لنا اقصى ما لديه من العطف والمحبة . لكن طعامه ما كان يقيتنا ، وخمره ما كانت تنعشنا ، وناره ما كانت تدفئنا ، وعطفه ما كان يدنينا منه ، بل كان يقصيه عنا .

مرّت ايام طوال وشمادم ما ذكر المعلم بكلمة . واخيراً فتح لنا قلبه وقال :

**شمادم :** انكم لتسيئون اليّ يا رفاقي باعتقادكم انني امقت مرداد . فانا لا أمقته بل اشفق عليه بكل جوارحي .

قد لا يكون مرداد رجلاً شريراً . ولكنه متهوس خطر بلا ريب ، والخطر كل الخطر في تعاليمه الفاسدة التي يستحيل تطبيقها في عالم لا يدين بغير الواقع ولا يميل الى نظرات لا يمكن العمل بها على الاطلاق . فهو وكل مَن تبعه سائرون لا محالة الى نهاية ما بعد شؤمها شؤم لدى اول اصطدام يصطدمونه بالواقع الذي لا يرحم . ولا شك عندي في ذلك البتة . وانا اريد ان انقذ رفاقي من مثل تلك النهاية .

لا مراء في ان لمرداد لساناً ذرباً يلهبه طيش الشباب . لكن قلبه اعمى ، وعنيد ، وكافر . أمّا انا ففي قلبي خوف الله الحقّ ، وحكمة السنين ، وخبرة الحياة العملية . وهذه وحدها كافية لان تجعل لرأيي وزناً ولحكمي سلطاناً . أفيكم مَن لو أُلقيت اليه مقاليد الفلك مثلما القيت اليّ تمكن من ان يبلغ بها الشأو الذي بلَغْتُ ؟ اما عشت واياكم طيلة هذه السنين فكنت لكم أباً وأخاً معاً ؟ اما بارك الله افكارنا بالسلام وايدينا بالبحبوحة ؟ فكيف نسمح لغريب

عنّا ان يهدم ما صرفنا الأعوام الطوال في بنيانه ، وان يزرع الشقاق حيث كان الوئام قائداً ، والنزاعَ حيث كان السلم سلطاناً ؟

انه الجنون المطبق يا رفاقي ان تتخلوا عن عصفور في اليد لقاء عشرة على الشجرة . ومرداد يريدكم ان تتخلوا عن هذه الفلك التي احتضنتكم طوال هذه السنين ، فكنتم قريبين من الله ، بعيدين عن شرور العالم وضوضائه واحزانه ، متمتعين بكل نعمة يشتهيها الناس . وماذا عساه يعدكم عوضاً عنها ؟ انه ليعدكم اوجاع قلب ، وخيبة ً، وفاقة ، ونزاعاً لا حد له ، وضربات كثيرة اسوأ من هذه . فهو يعدكم فلكاً في الهواء ، في فضاء اللاشيء ؛ يعدكم حلم رجل مجنون ، وأوهام طفل طائش . يعدكم حلاوة يستحيل تذوّقها . ألعلّه اوفر حكمة من ابينا نوح مؤسس هذه الفلك ؟ لله كم يؤلمني يا رفاقي ان اراكم تعيرون هذيانه اذناً صاغية !

قد اكون اخطأت ضد الفلك وتقاليدها المقدسة عندما استنجدت صديقي امير بتعار على مرداد . لكنني ما اقدمت على ذلك الا ّ في سبيل خيركم ؛ وفي حسن نيّتي ما يكفّر عن خطيئتي . فقد رأيت ان انقذكم والفلك قبل فوات الوقت . ولقد كان الله معي . فانقذتكم .

ألا َ ابتهجوا معي يا رفاقي . ولنشكر الله لانه نجانا من خزيٍ ما بعده خزي . فهل افظع من ان نشهد انهيار فلكنا باعيننا الخاطئة ؟ اني لأوثر الموت على مثل ذلك العار . والله شاهدي على ما اقول . اما الآن وقد نجونا باذن الله من تلك النهاية الشائنة ، فانا اكرس نفسي من جديد لخدمة ربّ نوح وفلكه ، ولخدمتكم يا رفاقي الاحباء . عودوا الى الطمأنينة التي كنتم فيها من

قبل كيما تتم سعادتي في سعادتكم .

**رووندا** : وانهمرت الدموع من مقلتيّ شمادم . لكنها كانت دموعاً محزنة بعزلتها ، اذ انها لم تجد رفيقات لها لا في قلوبنا ولا في مآقينا .

ذات صباح ، وقد اخترقت الشمس حصار الغيوم الطويل ، فغمرت جبالنا بفيض من بهائها ، تناول زمورا قيثاره وأخذ ينشد :

**زمورا** : شفتاكِ عضّها الجليدْ ،
قيثارتي !
وعليهما جمَد النشيدْ ،
قيثارتي !
وتجمّد الحُلْم الجميلْ ،
قيثارتي !
في قلبك السّمْح النبيلْ ،
قيثارتي !

أين الذي أنفاسُه الطاهره
تُسبل أنغامَكِ ؟
أين الذي نقْراته الساحره
تفكّ احلامك ؟
– في سجن بيتْعارْ

شرّقي ، شرّقي

يا نسائمَ القِمم

وازحفي على الجليدْ

واسرقي لي نَغَمْ

من سلاسل الحديدْ

في سجن بِتْعارْ

شرّقي ، شرّقي

يا قوافل السما

وازحفي مع الرياحْ

واحملي لي نَغما

من سلاسل الصلاحْ

في سجن بِتْعارْ

يا لنَسري وكان امس جناحاه القويّان مِلءَ صدر الفضاءِ !

يا لقلبي وكان مِن ظلّ نسري في حصونٍ من الشقا والفناءِ

كيف أضحى ، من بعد ان كان قلباً ، أثراً مِن ثمالةٍ في إناءِ

يا سمائي تسودها بومةٌ نكراء تبغي محوَ الضحى بالمساءِ

منذ أن حلّق المليك الى وكرٍ قصيٍّ مقنّع الأضواءِ

في سجن بتعار ...

**روندا** : وتدحرجت من عين زمورا دمعة اذ انقطع صوته ، وتراخت يداه ، وانحنى رأسه على صدره. وكأن تلك الدمعة افرجت عن احزاننا المكبوتة وفتحت سدود مآقينا . واذا بميكابون يقفز من مكانه شاهقاً بدموعه ويصيح : « اني لأختنق » ويهرول نحو الباب ومنه الى الهواء الطلق . فما كان من زمورا وميكاستر ومنّي الا ّ ان لحقنا به حتى البوابة الكبيرة في السور الخارجي من حول الفلك . وكان محظوراً علينا فتحها وتعدّيها الى خارج السور . لكن ميكابون ما توقف عندها بل امسك بالمزلاج الضخم وشده بعنفٍ فاطاعه . ثم فتح البوابة على مصراعيها وانطلق يعدو كأنه النمر افلت من قفص . فانطلق الثلاثة في إثره .

كانت الشمس وضّاءَةً تبعث الدفء في الاجسام ، واشعتها المتكسرة على الثلج تبهر الأنظار . وكانت التلال الجرداء المكسوة بالثلج تمتد امامنا الى اقصى حدود النظر وكأنها امواج يمّ تجمّد ثم اشتعل بالوان ساحرة من النور الذي لا يوصف . والسكينة المخيمة عليها عميقة الى حدّ انها تملأ الآذان اصواتاً رهيبة . والهواء بما فيه من لذعة قارسة ينفخ صدورنا بقوةٍ تحملنا من غير عناء منّا ، فكأننا على بساط من الريح .

ومن حيث لا ندري شعرنا بتبدّل غريب في حالاتنا النفسية . حتى ان ميكابون توقف فجأة في المسير ليهتف عالياً : « يا لها من لذّة ان تكون لك المقدرة على التنفّس . أن تتنفس — لا غير ! » ، واكيدٌ اننا كلنا شعرنا شعور ميكابون . فكأننا ما تنفّسنا من قبل ولا عرفنا لذة التنفس ولا معنى النَفَس .

كنّا قطعنا شوطاً حين لمح ميكاستر شبحاً اسود على مسافة منّا . فقال

البعض انه ذئب . وقال الآخر انه صخرة كنست الرياح عنها الثلج . ولكننا ما لبثنا ان رأينا الشبح يتحرك نحونا ، فمشينا نحوه . فكان كلما اقترب منّا بدا لنا في شكل انسان . وبغتة قفز ميكايون قفزة هائلة الى الأمام وصاح :

« هذا هو ! هذا هو ! »

وكان كما قال ميكايون . فما لبثنا أن تبينّا مشيته المتـّزنـة ، وهيبته الوقور ، ورأسه النبيل المرفوع عالياً ، ووجهه الوسيم ببشرتـه السمراء وقد تفشّى فيها اصفرار لطيف ، وعينيه السوداوين الحالمتين ، تتدفق منهما امواج من الطمأنينة الواثقة من نفسها ومن المحبة لا يخبو لهـا شعاع . وكان النسيم اللعوب يداعب حيناً تجاعيد شعره الاسود الطويل ، وحيناً يدخل ثنية من ثنايا ثوبه الفضفاض ليخرج من اخرى . اما رجلاه المشدودتان باسيار من جلد فوق نعل من خشب فقد علاهما احمرار من شدة الصقيع .

كان ميكايون اوّل مَن ادركه منّا . فانطرح على قدميـه باكياً ، ضاحكاً ، ومتمتماً كمن يهـذي من الحمّى : « الآن رُدَّت روحي اليّ . » وفعل الثلاثة الآخرون مثلما فعل ميكايون . لكن المعلم رفعهم إليـه واحداً واحداً ، مقبّلاً اياهم بلهفة لا حدّ لها وقائلاً :

**مرداد** خذوا قبلة الايمان . منذ الآن تنامون في الايمان وتنهضون في الايمـان . ولن يتوسد الشك وسادتكم ، ولن يشلّ خطواتكم بالتردّد .

**نروندا** : اما الاربعة الباقون في الفلك فما صدّقوا اعينهم عندما بدا لهم المعلم في الباب . فقد ظنوه في البداية طيفاً من عالم آخر ، فاعترتهم رجفة من الجزع .

لكنهم ما ان سمعوا صوته اذ القى السلام عليهم حتى راحوا يتسابقون إليه وينطرحون على قدميه . ما عدا شمادم الذي بقي كالمسمّر في مكانه . ففعل المعلم بالثلاثة وقال لهم مثلما فعل وقال للاربعة من قبلهم .

وكان شمادم يرقب ذلك المشهد بعينين حائرتين ، وجثته الضخمة ترتجف من رأسه حتى اخمصيه ، وشفتاه كأن بهما مناخس ، واصابعه تتلمس منطقته على غير هدى . وفجأة زحل عن كرسيه وحبا نحو المعلم حبواً فطوّق رجليه بيديه ومن غير ان يرفع بصره اليه قال بصوت متهدج : « انا كذلك اؤمن . » فانهضه المعلّم ، ولكن من غير ان يقبله قال له :

**مرداد** هو الخوف يهزّ جثة شمادم الجبّارة ويحرك لسانه ليقول : « انا كذلك اؤمن . » فشمادم يرتجف وينحني امام « السحر » الذي انتشل مرداد من الهوّة السوداء وجاءَ به من سجن بتعاو . وشمادم يخشى السحر ان يثأر منه . فليطمئن باله من ذلك القبيل . وليتجه بقلبه شطر الايمان الصحيح .

ان ايماناً محمولاً على موجة من الخوف ليس باكثر من زبد الخوف . فهو يرتفع بارتفاعه ويهبط بهبوطه . اما الايمان الصحيح فلا يزهر الا على جذع من المحبة فيثمر فهماً . إن كنت تخشى الله فلا تؤمن بالله .

**شمادم** : ( متراجعاً وعيناه ابداً الى الارض ) يا لذل شمادم ! فهو منبوذ حتى في بيته . ألاَ سمحتَ لي في الاقلّ ان اكون خادماً لك ولو ليوم واحد ، فآتيك بأكل وثياب دافئة . فانت لا شك جائع ومقرور .

**مرداد** لي طعام لا تعرفه المطابخ . ودفء لا استعيره من خيوط الصوف وألسنة النار . ويا ليت شمادم يختزن من طعامي

ودفئ اكثر مما يختزن من المآكل والمدفئات المألوفة .

ها هو البحر قد جاء للتشتية على قمم جبالنا . وها هي قممنا جذلى بان تلتف بالبحر المتجلّد كما لو كان عباءة . وما ادفأها في عباءتها ! بل ما اسعد البحر ان يهجع هجعة المسحور على القمم . ولكنها هجعة قصيرة المدى . اذ قريباً يأتي الربيع ؛ وكما تتململ افعى عند انتهاء فصل التشتية فتنساب من جحرها الى الشمس والهواء ، هكذا سيستعيد البحر حرّيته فيكرّ من جديد ويفرّ من شاطىء الى شاطىء ، ويمتطي الهواء ، ويجوب السماء ، وينزل ندى او غيثاً حيث شاء .

لكن هناك اناساً مثلك يا شمادم حياتهم شتاء مستمر وتشتية دائمة . اولئك هم الذين ما جاءتهم بعد بشارة الربيع .

مرداد هو البشير والبشارة . بشارة حياة هو مرداد لا ناقوس جنازة . فحتى مَ تشتيتُك ؟

صدّق يا شمادم ان الحياة التي يحياها الناس ، والموت الذي يموتونه ، تشتية لا اكثر . وانا ما جئت إلاّ لأوقظ الناس من سباتهم وأهيب بهم من جحورهم واوجارهم الى حرية الحياة التي لا تموت . صدّق لا خجلاً مني او اكراماً لي ، بل غيرةً على نفسك .

**نروندا** : لكن شمادم ما تحرك من مكانه ولا فتح فاه . فهمس بنّون في اذني ان اسأل المعلم كيف تمكن من ان ينجو من سجن بتعار ؛ الاّ ان لساني ما تحرّك بالسؤال . وكأنّ المعلم ادرك ما جال في خاطر بنون فالتفت إليه وقال :

مرداد ان سجن بتعار ليس بعدُ سجناً . اذ قد تحوّل الى مزار .
وامير بتعار ليس بعدُ اميراً . فهو اليوم توّاق نظيركم .
حتى السجون المظلمة ، يا بنّون ، يُستطاع تحويلها منارات متلألئة بالانوار . وحتى امير عاتٍ يُستطاع حمله على طرح تاجه وصولجانه جانباً . وحتى السلاسل التي تحزّ في اللحم والعظم حزاً يستطاع تحويلها آلاتٍ تنبض باناشيد سماوية . ليس من عجيبة يصعب اجتراحها على الفهم الذي لا عجيبة إلاّه .

**زوندا :** هبطت كلمات المعلم بشأن تخلّي امير بتعار عن العرش هبوط الصاعقة على شمادم . ولشد ما ُرعبنا عندما رأيناه يتشنّج بغتة وتنتابه اعراض غريبة بفظاعتها . حتى اننا حسبناه مائتاً لا محالة فما عرفنا كيف وبماذا نداويه . لكنه ما عتّم ان غاب عن الوعي . فرحنا نعالج غيبوبته الطويلة . وما زلنا به حتى استفاق .

•

## الفصل الثلاثون

المعلم يفشي حلم ميكايون

**نروندا** : مرّ زمان قبل أوبة المعلم من بتعار وبعدها، وميكايون كأنه غير ميكايون . فهو يكتفي من الطعام بالقليل ، ومن الكلام بالأقل ، ولا يغادر مخدعه إلاّ نادراً ، ولا يبوح لاحد بسرّه ، حتى ولا لي . ومما زاد في حيرتنا من امره ان المعلم ، على وفرة محبته له ، ما حاول يوماً ان يخفف من كربته او ان يطرد السآمة عن وجهه . وذات ليلة ، اذ كان ميكايون وباقي الرفاق يصطلون حول الكانون ، اخذ المعلم يحدثنا عن **الحنين الاكبر** :

**مرداد** : حلم رجل حلماً . واليكم ما حلم : حلم انه على ضفة خضراء من نهر واسع المخاضة ، بعيد الغور ، لا يُسمع لجريه صوت ولا تبصَر لمياهه حركة . وكانت الضفة تموج بالناس من رجال ونساء تعددت لغاتهم، وتباينت اعمارهم ، وفي يد كل منهم دولاب يدحرجه على الضفة من طرف الى طرف . والدواليب هذه متفاوتة الحجم ، ملوّنة بكل الوان قوس السحاب ، على حدّ ما كانت عليه ثياب اللاعبين بها . وبدا للحالم ان هذه الجماهير المتألبة صعوداً ونزولاً ، كأنها امواج بحر جائش ، كانت في مهرجان من اللهو والطرب

او في عيد عظيم . إلاّ وحده . فما كان له دولاب يدحرجه ، ولا كانت عليه حلّة تليق بالعيد . اذ انه ما كان يعلم ان هناك عيداً .

ارهف الرجل اذنيه علّه يسمع كلمة من لغته فلم يسمع . وحملق بعينيه في الجماهير عساهما تقعان على وجه تعرفانه فلم تقعا . فأدرك انه غريب بين ذلك الجمع ، وان العيد ليس عيده . واحسّ انقباضاً وغصّة في قلبه . لا سيما وقد لحظ ان الجماهير المتألبة من حوله كانت ترمقه شزراً وتقلّب شفاهها اذ تمرّ به كأنها تقول : « مَنْ هذا المخلوق المضحك ؟ »

وبينا هو كذلك اذا به يسمع خواراً كأنه قصف الرعد آتياً من جانب الضفة الأعلى ؛ واذا بالجموع تخرّ سُجّداً على ركبها ، وتغطي عيونها بأيديها ، وتطأطىء رؤوسها حتى الارض ، تاركة في الوسط فرجة ضيقة ومستقيمة على طول الضفة . وبقي وحده واقفاً في وسط تلك الفرجة وقد حار في امره فما يدري ماذا يفعل وانّى يتّجه .

وحانت من الرجل التفاتة الى حيث سمع الخوار فاذا بثور هائل يعدو بسرعة البرق وسط ذلك الممر الضيّق ، قاذفاً من فمه ألسنة من اللهيب ومن منخريه أعمدة من الدخان . فاستحوذ الرعب على الرجل ، وشلّ منه اعصابه ، وسدّ عليه كل ابواب النجاة ، فأيقن انه هالك لا محالة .

الاّ انه ما اقترب منه الثور الى حيث كاد يحرقه بلهيبه ويخنقه بدخانه حتى ارتفع هو فجأةً في الهواء. فما كان من الثور إلاّ ان وقف تحته ورفع رأسه الى فوق واخذ يصليه ناراً حامية ودخاناً مميتاً . ولكنه كان يرتفع اعلى فأعلى ، فلا يكاد اللهيب يلفحه والدخان يدركه حتى يعلو على الاثنين . وما زال يمعن

في الصعود الى ان ايقن كل اليقين انه اصبح في مأمن من نار الثور ودخانه .
واذ ذاك أدار وجهه شطر الضفة الثانية.

وعندما التفت الى تحت رأى الجماهير ما تزال جاثية على الركب ، والثور يرشقه بالسهام بدلاً من النار والدخان. وكان يسمع ازيز السهام اذ تمر من تحته. لكنّ واحداً منها ما مسّ لحمه او عظمه ، وان يكن البعض اخترق ذيول ردائه . واخيراً غاب الثور وغاب النهر وغابت الجماهير ، وبقي الرجل محلّقاً في طيرانه ، والارض من تحته بلقع شوهه الشمس فاقفر من كل حيّ .
وما زال كذلك الى ان قام في وجهه جبل اجرد غابت قمته في الفضاء ، وعفت تربته من كل اثر للحياة ، فلا وريقة من العشب ، ولا ضبّ ، حتى ولا نملة . فهبط الرجل عند اسفله وشعر ان لا بدّ له من تسلّقه اذ لم يكن له من طريق سواه .

وراح الرجل يفتش عن طريق أمين فلا يجد سوى شِعْب لا يكاد يكون مرسوماً كتلك الشعاب التي تسلكها المعزى في الجبال . فاعتزم ان يجعله طريقه . ولكنه ما كاد يقطع منه بضع مئات من الخطوات حتى ابصر عن يساره سبيلا واسعاً كأنه السبيل المعبّد . فوقع في حيرة من امره ودهش لنفسه كيف انه لم يبصره من قبل . وكان على وشك ان يغيّر طريقه عندما التفت واذا بالسبيل يغدو نهراً بشرياً ، نصفه الواحد يجري صعوداً ببطء ومشقة ، ونصفه الآخر يكرّ نزولاً بسرعة خاطفة . وفي كلا النصفين رجال ونساء لا يحصيهم عدّ : الصاعدون منهم يتلوّون في صعودهم كالافاعي المنهوكة ، والنازلون يتدحرجون رؤوساً على اعقاب صارخين ومولولين كأنهم جيش من الجنّ .

وقف الرجل يتأمل ذلك المشهد الغريب وقد اخذ الرعب منه كل مأخذ. فما تبادر الى ذهنه إلاّ أنّ في مكان ما من الجبل بيتاً هائلاً للمجانين ، وان هؤلاء الناس افلتوا منه . وبعد قليل عاد يتوقل في سبيله ، فيقع هنا وينهض هنالك . ولكنه كان ابداً في صعود .

ومن بعد ان تسلّق مسافةً من الجبل التفت ثانية الى النهر البشريّ فاذا به قد جفّ واذا بمخاضته قد امّحت فكأنها ما كانت . فعاد ، كما كان ، وحده ولا رفيق له غير الجبل العبوس ، ولا يد تدلّه على الطريق ، ولا صوت ينعش ما خار من عزيمته ويجدّد ما أُتلف من قوّته ، إلاّ صوت ايمان عميق ، مبهم ، بان لا بدّ له من تسلّق الجبل .

وهكذا مضى الرجل في التسلّق ، لا يستريح ولا يقنط ، ولا يأبه لدمه يصبغ الحجارة والحصى ، ولا للعرق يتصبّب من جبينه فيكاد يعميه . وما زال كذلك حتى بلغ من الجبل نقطة طريئة التربة نظيفة حتى من الحصى . ويا لبهجته ما كان اعظمها حين ابصر من حواليه بضع عشيبات زرقاء كأنها انبثقت من الارض قبيل لحظة لا غير . وكان النسيم بليل الجناح ، معطر الانفاس . فكأن ما فيه من طراوة وعطر ، وما في وريقات العشب من زرقة ونضارة ، وما في التربة من نعومة ونظافة ، سطت على الرجل المنهوك دفعةً واحدة فسلبته آخر درهم من قوّته فاستسلم لسحرها وغرق في سبات عميق .

واستفاق الرجل بعد حين على يد تشدّه من يده وصوت يقول له : « انهض ! فالقمة قريبة منك . والربيع في انتظارك على القمة . » واذا بصاحبة الصوت واليد فتاة مجلببة بجلباب فائق البياض وفي وجهها من الحسن ما يبهر

البصر . فما شك في انها من كائنات الفردوس .

واخذت الفتاة بيد الرجل فأحس دبيب قوًى جديدة في عضلاته . ونهض فأبصر القمة ، واشتم رائحة الربيع . ولكنه ما ان همّ بالخطوة الاولى يخطوها نحو القمة حتى افاق من حلمه .

ترى ماذا كان يفعل ميكايون لو انه افاق من حلم كهذا فوجده مستلقياً على فراش عاديّ ، محصوراً ضمن جدران اربعة قاتمة ، ولكن خلف اجفانه ما يزال يجول طيف كطيف تلك الفتاة ، وفي انفه ما يزال عبق الربيع على قمة كتلك القمّة ؟

**ميكايون** : ( منتفضاً كالملسوع ) ولكنني انا الرجل الذي تُحدث عنه . والحلم الذي تقصّه حلمي . وانا رأيت الفتاة والقمة . وهذه الرؤيا ما تزال تتعقبني حتى اليوم . فهي التي سلبتني راحتي ، وجعلتني غريباً عن نفسي . فميكايون من بعدها لا يعرف ميكايون .

يا للدهشة ! فأنا ما حلمت ذلك الحلم إلاّ بُعيد ذهابك الى بتعار بقليل . فمن اين اتصل بك حتى ترويه في ادق تفاصيله ؟ اي انسان انت ؟ حتى احلام الناس تنكشف لعينيك فتقرأها كأنها كتاب مفتوح امامك .

يا لحرية تلك القمة ! يا لفتنة تلك الفتاة ! ويا لتفاهة كل ما في الكون ازاء عظمتها ! لقد هجرتني نفسي من اجلها فما عادت إليّ إلاّ ساعة ابصرتُك راجعاً من بتعار . فعدت قوياً ، وعدت هادئاً . لكن قوتي ما لبثت ان تركتني ، وهدوئي ما لبث ان انقلب اضطراباً . فها أنا من جديد تشدّني خيوط لا ابصرها الى حيث لا ادري . فكأن بعضي ينفصل عن بعضي .

ألا خلصني يا رفيقي الأكبر . فانني اتلاشى في سبيل رؤيا .

**مرداد** ما اخالك تعرف ماذا تطلب يا ميكايون . أتريد ان تخلص من مخلّصك ؟

**ميكايون** : اريد الخلاص من هذا الألم المبرّح - ألمٍ الذي لا موطن له ولا مأوى وسط عالم مستكنٌ في مواطنه ومآويه . اريد ان اكون مع الفتاة على القمة .

**مرداد** لا تجزع يا ميكايون . بل افرح لان الحنين الأكبر قد احتلّ قلبك وفي ذلك وعد صادق لك انك واجد لا بد موطنك ومأواك . وانك ستكون مع الفتاة على القمة .

**ابيار** : رجوناك ان تزيدنا علماً بالحنين الاكبر : ما هو وبماذا نعرفه ؟

# الفصل الحادي والثلاثون

## في الحنين الأكبر

**مرداد** كالضباب هو الحنين الاكبر . فعلى حد ما ينبعث الضباب من البحر والبر فلا يلبث ان يحجب الاثنين ، ينبعث الحنين الاكبر من اعماق القلب فلا يلبث ان يحجب القلب . ومثلما يغشى الضباب كل منظور فلا يذر للعين ما تبصره غير الضباب ، هكذا يسطو الحنين الاكبر على كل ما في القلب من مشاعر فيتغلب عليها ولا يترك للقلب ما يشعر به الا" الحنين . ونظير ما يبدو الضباب للناس عديم الشكل والبصر والهدف ، هكذا يبدو لهم الحنين الاكبر. حين انه في الواقع ، كالضباب ، يعجّ بشتى الاشكال، وهو ثاقب البصر ، سديد الهدف .

وكالحمّى هو الحنين الاكبر . فكما تشتعل الحمّى في البدن فتنهكه اذ هي تحرق سمومه ، هكذا يلتهب الحنين الاكبر من احتكاك ما في القلب من شهوات فيضني القلب اذ هو يلتهم كل ما فيه من صدإٍ ونفاية .

وكالسارق هو الحنين الاكبر . فمثلما يريح السارقُ اللبقُ غريمه من عبء ويتركه ، مع ذلك ، فريسةً للسخط والأسى ، هكذا يفعل هذا الحنين

بالقلب اذ يرفع عنه بخفةٍ متناهية كل اثقاله ويتركه ، مع ذلك ، في لجج من اليأس والكآبة ، لا لسبب الا" لأنه لا يجد اثقالاً ينوء تحتها .

واسعة" هي الضفة وخضراء حيث يُفني الناس أيامهم غِناءً ، ورقصاً ، وبكاءً ، وعناءً . وهائل هو النور القاذف بالنار والدخان الذي يعقل ركبهم فيخر"ون سجّداً ، ويرد" أغانيهم غصّاتٍ الى حناجرهم ، ويُغرّي أجفانهم بدموعهم .

واسع كذلك وعميق هو النهر الفاصل ما بينهم وبين الضفة الثانية . فما يستطيعون اجتيازه لا سباحة" ولا بالمجذاف ، ولا بالشراع . وما أقل" مَن جرؤ منهم ان يجتازه يوماً ولو بالفكر . فالسواد الاعظم منهم يؤثر الالتصاق بضفته الخضراء حيث يمضي كل"" في دحرجة دولابه المختار من دواليب الزمان .

أمّا أخو الحنين الاكبر فلا دولاب له يدحرجه . فهو وحده لا يلج" في عمل ولا يطمع في مكسب وسط عالم لا يعرف الراحة لا من العمل ولا من مهماز اللجاجة . وهو وحده عريان ، وألكن ، ومتثاقل الخطى بين انسانية أنيقة اللباس والنطق والحركة . وهو لا يستطيع الضحك مع الضاحكين ولا البكاء مع الباكين . الناس يأكلون ويشربون ويستلذون مأكلهم ومشربهم . أما هو فيأكل بغير شهيّة ، وشرابه مر" في فمه .

سواه يتزاوج او يفتش عن زوج . أما هو فيمشي وحده ، وينام وحده ، ويحلم أحلامه وحده . سواه غني" بمجون العالم وحكمته . أما هو فبليد وغبي" . سواه يملك مساكن يتفانى في حبها والذود عنها ، وله مواطن يغالي في تمجيدها . أما هو فلا بيت له ولا موطن يتغنّى بهما ويذود عن حياضهما . ذلك لان عين قلبه متجهة شطر الضفة الثانية .

ما أشبه أخا الحنين الاكبر برجل يمشي في نومه بين أناس يبدون كأنهم أيقاظ وما هم غير نائمين ! فالماشي في نومه انما يمشي مسوقاً او مقوداً بحلم لا يبصر منه الأيقاظ من حوله شيئاً . لذلك يتهكمون عليه ويضحكون منه في سرّهم مخافة ان يوقظوه. لكنهم ساعة يظهر ربّ الخوف على المسرح — ذلكم الثور القاذف بالنار والدخان — ساعتئذٍ يخرّون ساجدين ويعضّون التراب مرتجفين . بينا الماشي في نومه ، وقد كانوا منذ لمحة يتهكمون عليه ، يرتفع في الهواء على جناح الايمان ويحلّق فوقهم وفوق ثورهم ، ليجتاز النهر ويبقى محلقاً حتى أسفل الجبل الاجرد .

قفرٌ وقاحلة وموحشة هي الارض التي يطير من فوقها . لكنّ للايمان جناحين قويّين .

عبوس وأجرد ورهيب هو الجبل الذي يحط في أسفله . لكن للايمان قلباً لا يعرف الوجل .

ومليء بالمزالق والمخاطر هو الشِعْبُ المؤدي الى القمّة. لكن للايمان يداً ناعمة كالحرير ، وقدَماً ثابتة الوطء ، وعيناً نافذة البصر .

وهكذا يتوقل الرجل ذلك الجبل الأجرد خطوة خطوة . فيلتقي في اول الطريق أناساً يجدّون في السير مثله نحو القمة ، ولكن في سبيل واسع معبّد. اولئك الرجال والنساء هم اخوان الحنين الاصغر واخواته . فهم كذلك يسعون الى القمّة ، ولكن خلف دليل أعرج وكفيف البصر . ودليلهم ذاك هو ايمانهم بكل ما تبصره العين ، وتسمعه الاذن ، وتتلمسه اليد ، ويشتمّه الانف ، ويتذوّقه اللسان. بعضهم لا يبلغ من الجبل أعلى من كعبه ؛ والبعض

يبلغ ركبتيه ، والبعض وركيه . وقليل هم الذين يبلغون منه خصره . الاّ انهم بغير استثناء تزلّ بهم القدم فيتدحرجون رأساً على عقب الى أسفل من غير ان يتاح لهم ان يلمحوا القمّة ولو لمحة واحدة .

أتستطيع العين ان تبصر كل ما يبصَر، والاذن ان تسمع كل ما يُسمَع ؟ ام تستطيع اليد ان تلمس كل ما يُلمَس ، والانف ان يشمّ كل ما يُشَمّ ، واللسان ان يذوق كل ما يُذاق ؟ ما لم يُنجِد الايمانُ الحواسَّ — ذلكم الايمان المنبثق من الخيال الالهي — يستحيل على الحواس ان تكون على ثقة بما تحس وان تصبح مرقاة الى القمّة . والحواس ، لا يقودها الايمان المبصر ، كالقافلة في القفر يقودها دليل أعمى . فطريقها ، وان بدا واسعاً ومعبّداً ، محفوف أبداً بالمخاطر والاشراك الخفيّة . والذين يسلكونه الى قمة الانعتاق إمّا يهلكون في الطريق او تزلُّ به القدم فيتدحرجون الى أسفل حيث ينصرفون الى جبر ما تكسر من عظامهم ورتق ما تفتق من جلودهم .

ان اخوان الجنين الاصغر هم الذين يشيدون عالمهم بمعونة الحواس من المواد التي تتناولها الحواس ، فلا يلبثون ان يجدوا ذلك العالم ضيّق الارجاء فاسد الهواء . واذ ذاك تحنُّ قلوبهم الى عالم فسيح المدى طاهر الانفاس . ولكنهم بدلاً من ان يفتشوا عن مواد جديدة ومهندس جديد ، يرجعون الى المواد القديمة فيهدمونها ثم يجمعونها ويَكِلون الى المهندس عينه — الى الحواس — بنيان عالم جديد منها . وما ان يتم البنيان حتى يعودوا فيجدوه أضيق مجالاً وأفسد هواءً من الذي كان قبله . وهكذا يمضون في الهدم والبناء من غير ان يوفّقوا يوماً الى عالم يكفل لهم الراحة التي يشتهون والحرّية التي اليها يحنّون . وما

ذاك إلا لأنهم يلجأون الى خادعيهم ليخلّصوهم من الخداع . فمثلهم مثل السمكة تقفز من المِقلى الى النار . فهم لا يخلصون من سراب صغير الا ليجذبهم سراب اكبر .

ما بين اخوان الحنين الاكبر واخوان الحنين الاصغر تعيش قطعان البشر – الارانب الذين لا حنين عندهم على الاطلاق . فهم لا يطمحون الى اكثر من ان يحفروا اوجاراً يعيشون فيها ويتناسلون ثم يموتون . واوجارهم قصور فخمة في أنظارهم ، وفسيحة ، ودافئة . فهم لذلك يهزأون بكل من يمشي في نومه ، لا سيما اولئك الذين يمشون بلا رفيق في شعابٍ قلما يقعون فيها على أثر لأقدام . وان وقعوا فعلى آثار لا تكاد تميزها العين لقدميتها .

بماذا عساني أشبّه بعدُ أخا الحنين الاكبر بين اخوانه الناس؟ انه لشبيه بفرخ نسرٍ حضنته في البيضة دجاجة مع بيضها . فلما نقف زُجّ مع الدجاجة وفراخها في القنّ . فراحت الدجاجة وفراخها يعجبون له كأنه منهم وليس منهم ، ويحاولون بكل قدرتهم ان يجعلوه يتخلق بأخلاقهم ، ويتطبع بطباعهم ، ويتقيّد بعاداتهم ، ويعيش عيشتهم ، وراح هو يعجب لهم كيف لا يحلمون مثله بالفضاء الطلق والسماوات التي لا تُحَدّ . فما كان منهم بعد حين إلاّ ان نبذوه وأخذوا يُعملون فيه مناقيدهم . فما نجا حتى من منقاد أمه . وما كان منه الا ان أدرك وحدته وغربته فيما بينهم ، فتصبر على مضض ، وتحمّل قذارة القنّ وروائحه الكريهة ، وفي أنفه عبير الرياح الحرّة ، وفي أذنه نداء القمم البعيدة . وما برح كذلك حتى اكتسى جناحاه بالريش . فامتطى الهواء وحلّق في الفضاء والتفت مودّعاً الى من كانوا حتى هنيهة من الزمن اخواناً له وأمّاً فاذا بهم ما يزالون ينكتون الارض بمخالبهم ومناقيدهم طلباً لدودة او لحبة .

افرح يا ميكايون . فحلمك حلم نبيّ . والحنين الأكبر قد ضيّق عليك عالمك وجعلك غريباً عنه ومنبوذاً فيه. لكنه قد أطلق خيالك من سجن الحواس المستبدة . وخيالك قد ولد لك ايمانك . والايمان سيرفعك عالياً فوق عالمك القديم ، الضيّق، الآسن، وسيحلق بك عبر القفار السحيقة حتى الجبل الأجرد. ثم يصعد بك الجبل حيث لا مندوحة لكل ايمان من ان يجرّب ليُطهَّر من آخر ذرّة من الشك . ومن بعد ان يطهر من كل شك يقودك ايمانك الى حدود القمّة الخضراء أبداً . وهناك يسلمك الى الفهم ويعود ادراجه من بعد ان قام بوظيفته خير القيام . واذ ذاك يمشي بك الفهم الى الحربة التي لا يُنطَق بها — حربة تلك القمّة التي هي مسكن الله الشامل كل شيء ومسكن الانسان المتغلّب.

لا بد لايمانكم من الامتحان . فاثبت يا ميكايون في امتحانك . اثبتوا كلكم . فوقفة على تلك القمّة ، وان لم تطل غير لحظة ، لجديرة بان تتحملوا من أجلها أشدّ العذابات وأقساها . أما ان تسكنوها الى الابد فأثمن من كل ما في الدهور .

**همبال :** ألا رفعتنا الآن الى تلك القمّة لنلمحها ولو لمحة ، مهما تكن قصيرة ؟

**مرداد** تريّث يا همبال ولا تستبقْ ميعادك. فحيث أتنفس أنا اليوم براحة كلية تختنقون أنتم لقلة الهواء. وحيث أمشي بسهولة فائقة تلهثون أنتم من التعب وتتعثرون. اعتصموا بالايمان. والايمان يجترح المعجزة التي تتمنون.

هكذا علّمت نوحاً.

وهكذا اعلمكم .

# الفصل الثاني والثلاثون

في الخطيئة ونزع مآزر اوراق التين

مرداد سمعتم ما يقال في الخطيئة . وها انتم تودّون ان تعرفوا كيف امسى الانسان خاطئاً . وتقولون – ولا تثريب عليكم في ما تقولون – انه اذا كان الانسان خاطئاً ، وهو صورة الله ومثاله ، فالله ، لا شك ، مصدر الخطيئة . ههنا فخّ للسائرين على غير هدى . وانا اريد ان انقّي طريقكم من الفخاخ كيما تتقّوا منها طرق الناس .

لا خطيئة في الله إلاّ اذا حسبتموها خطيئة للشمس ان تعطي الشمعة من نورها . كذلك لا خطيئة في الانسان إلاّ اذا عددتموها خطيئة للشمعة ان تذيب ذاتها في الشمس لتتّحد بالشمس. ولكن الخطيئة في شمعة تضنّ بنورها ، واذا ما اشعلتم فتيلتها بثقاب لعنت الثقاب واليد التي اشعلته . انما الخطيئة في الشمعة التي تخجل من أن تحترق في الشمس ؛ ولذلك تحجب ذاتها عن الشمس .

ما عصى الانسانُ الناموسَ فخطىء. لكنه جهل الناموس فستر جهله وتمادى في ستر جهله فكانت الخطيئة .

اجل . ان الخطيئة لفي المئزر من ورق التين .

اما قرأتم حكاية **سقوط** الانسان . تلكم الحكاية الانسانيـة الأولى التي ما مثلها سذاجةً في المبنى وسمواً في المعنى؟ اما قرأتم كيف ان الانسان حال انبثاقه من الله كان إلهاً طفلاً ، سهل القياد ، فاتر الهمّـة ، لا يحسن عملاً ، ولا يخلق شيئاً ؟ فهو ، وان كانت له كل صفات الالوهة ، كان ما يزال قاصراً ، شأن كل الاطفال ، عن معرفة القوى الكامنة فيه وممارستها .

ما اشبه الانسان في جنة عدن ببذرة مختوم عليهـا في قارورة جميلة . فالبذرة في القارورة تبقى بذرة . والعجائب التي في قلبها لا تبرز الى الحيـاة والنور ، ما لم تُدفن في تربة مؤاتية لطبيعتها فتنشقّ قشرتها عنها . اما الانسان في عدن فما كانت له تربة من جنس تربتـه ليزرع ذاته فيها فينبت ويبصر نفسه ويعرفها .

لقد كان ، انّى التفت ، مـا رأى وجهه منعكساً على وجهٍ يماثله . وكيفما ادار اذنه ما سمع صوتاً شبيهاً بصوته . وحيثما رفع صوته مـا ارتدّ اليه من حنجرة نظير حنجرته . اما نبضات قلبه فمـا كان يسمع لها قراراً في ايّ قلب .

كان الانسان وحيداً فريداً وسط عالم كل مـا فيه ازدوج وسار في سبيله فكان غريباً عن نفسه ، لا عمل له ولا وجهة . فما كانت عدن له باكثر من مهد ناعم ، دافىء، او بأكثر من مرخمٍ دقيق الصنع تُحضن فيه مواهبه ريثما تنقف .

اما كانت شجرة معرفة الخير والشرّ وشجرة الحيـاة في متناول يده ؟ لكنه ما مدّ يوماً يده ليقطف من ثمارهـا ، ويتذوّق طعمها . ذلك لان ارادته

وذوقه ، وافكاره وشهواته ، حتى حياته ايضاً ، كانت ما تزال كلها هاجعة في اكفانها تنتظر الصوت الذي سيهيب بها من غفلتها ، واليد التي ستمزّق اكفانها عنها رويداً رويداً . فكان لا بد له من عون . اذ انه وحده ما كان قادراً ان يفعل شيئاً من ذلك . ومن اين لعونه ان يأتيه الا" من صميم كيانه الزاخر بالمعونة ؟ وذاك من الاهمية على جانب عظيم .

فحواء ما كانت طينة جديدة ونسمة جديدة . بل كانت من طينة آدم عينها ونسمته بالذات — كانت لحماً من لحمه وعظماً من عظمه . ولا كانت حواء خليقة جديدة . ان هي غير شطر من الانسان الذي انشطر شطرين : احدهما ذكر دعي آدم . والآخر انثى دعيت حواء . فكان من ذلك ان الوجه الذي ما كان يَرى له مثيلاً بين الوجوه اصبح له في وجه حواء رفيق ومرآة . والاسم الذي ما ردّده صوت بشريّ من قبل راح يتردّد انغاماً عذبة في ممرات عدن . والقلب الذي كان ينبض وحده في صدر لا رفيق له غدا يحسّ انباضه ويسمع ترجيعها في قلب شبيه به وصدر مرافق لصدره . وهكذا لقي الزَنْد زَنْدته فتطاير منه شراره وكان من قبلُ لا حرارة ولا شرار . وهكذا اشتعلت الشمعة من طرفيها ، وكانت من قبل لا لهب ولا نور . واحدة هي الشمعة ، وواحدة هي فتيلتها ، وواحد نورها وان بان كما لو كان منبجساً من طرفين متناقضين . وهكذا البذرة في القارورة لقيت التربة التي تستطيع ان تنبت فيها وان تنفتح عمّا في احشائها من اسرار .

تلك هي طبيعة الأحَديّة غير الواعية ان تنشطر فتصبح ثنائية لتعود ، بما تولده الثنائية من احتكاك ، فتدرك احديتها . ومن هذا القبيل كذلك كان

الانسان صورة صادقة ومثالاً ناطقاً لاله . فالله الذي هو الضمير الأول ازدوج إذ نطق بذاته في **الكلمة** ثم توحّد الاثنان في **الفهم الاقدس** .

ليست الثنائية قصاصاً . ان هي الا طبيعة ملازمة للأحدية وضرورية لكشف الوهيتها . فما اجهل الذين يرون غير ذلك . بل ما اجهل الذين يعتقدون ان الانتقال من الاحدية غير الواعية الى الثنائية فالاحدية الواعية يمكن ان يتم في سبعة عقود او في سبعة ملايين من العقود !

ألعله امر يسير ان يصبح الانسان إلهاً ؟

ام لعل الله ، والابدية كلها في قبضته ، بخيل وقاسٍ الى حدّ ان لا يفسح للانسان منها اكثر من سبعين سنة يوحّد فيها ذاته ويعود الى عدن عارفاً ألوهيته ووحدته مع الله ؟

طويل هو طريق الثنائية. واغبياء هم الذين يقيسونه بالروزنامة. فالابدية لا تعدّ دورات الكواكب .

لقد كان من ازدواج آدم انه تحوّل في الحال من كائن هادىء ، فاتر ، لا قدرة له على خلق شيء ، الى كائن يجيش بالحركة ، والهمّة ، وله القدرة على تجديد ذاته وخلق عالم مزدوج نظيره . فما ان ازدوج حتى مدّ يده الى شجرة الخير والشر فأكل منها وبذلك جعل كل عالمه مزدوجاً مثله . وهكذا تبدّلت الاشياء في نظره فغدت إمّا خيراً واما شراً ، نافعة او مضرّة ، جميلة او قبيحة . وكانت من قبل بريئة من الخير والشر ، والنفع والضر ، والقبح والجمال . كانت في معسكر واحد متآلف فانفصلت الى معسكرين متضادّين .

وما هو صوت الحيّة التي **اغوت** حوّاء على تذوّق الخير والشرّ ان لم

يكن صوت الثنائية التي لا تعرف السكون ، والتي لا خبرة لها بعد ، يحثها على العمل والاختبار ؟ اما ان حواء كانت اسبق من آدم الى سماع ذاك الصوت والانصياع لأمره فلا غرابة في ذلك البتة . فحواء ما كانت سوى المشحذ لرفيقها او الآلة المعدّة لاظهار القوى الكامنة فيه .

اما حاولتم مراراً ان تمثلوا لانفسكم هذه الحكاية البشرية العجيبة ؟ اما تصورت لكم حواء تسترق خطاها بين اشجار عدن ، متلفتة في كل ناحية مخافة ان يراها رقيب ، وقلبها يخفق في صدرها كأنه عصفور في قفص ، واعصابها كأنها الاوتار المشدودة ، والشهوة تسيل لعاباً على شفتيها اذ هي تمدّ يدها المرتجفة لتتناول ثمرة من تلك الثمار الغرّارة ؟ اما حبستم انفاسكم اذ رأيتموها تقطف الثمرة المحرّمة وتُعمل اسنانها في لبّها الطريء لتتذوق حلاوةً ما دامت لحظة حتى انقلبت الى ابدية من العذاب لها ولكل ذرّيتها من بعدها ؟

اما تمنيتم من كل قلوبكم لو ان الله ادركها قبيل ان غلبتها الشهوة الهوجاء ، لا بعد ، فحال بذلك دونها ودون هفوتها القتّالة ؟ وحتى من بعد ان فعلت حواء فعلتها ، اما تمنيتم لو ان آدم كان اوفر منها حكمة واصلب عوداً فما انقاد لشهوتها ولا ساهمها في جنونها ؟

الاّ ان الله ما حال دون شهوة حواء ، ولا آدم عفّ عن المشاركة فيها . ذلك لأنّ الله ما اراد لمثاله ان يكون غير مثاله . بل اراد ان تكون له ارادة حرّة كارادته . ولذلك اختط له سبيل الثنائية ، حتى اذا ما اجتازه بلغ الفهم ، واذا ما بلغ الفهم توحّد نظير الله .

امّا آدم فما كان في امكانه ، حتى ولو شاء ، ان يحجم عن الأكل من

الثمرة التي قدمتها رفيقته اليه . بل كان لزاماً عليه ان يأكل منها لمجرد اكل زوجه منها. فما هو وزوجه غير لحم واحدٍ وعظم واحد. وكل ما يفعله الواحد فكأن الآخر فعله حتماً .

احقاً ان الله غضب على الانسان لانه اكل من شجرة معرفة الخير والشر ؟ معاذ الله . فالله ما امر الانسان امراً . بل انذره انذاراً . لانه كان يعلم انّ الانسان آكل من الشجرة لا محالة . وقد كان يريده ان يأكل . لكنه كان يريده ان يعرف كذلك عاقبة الأكل وان يتحملها بصبر وبسالة . وكان الانسان صبوراً . وكان باسلاً .

امّا عاقبة الأكل فكانت موتاً . فالانسان بانتقاله الى الثنائية العاملة الواعية مات للأحديّة الساكنة الغافلة . اذن ليس الموت بالقصاص، ان هو غير مرحلة ملازمة لحياة الثنائية . فمن طبيعة الثنائية ان تخلق لكل شيء زوجاً او ظلاً ، او توأماً . هكذا كان لآدم توأم في حواء . وكان لحياة آدم وحواء توأم في الموت . لكن آدم وحواء ، وان خلقا لحياتهما ظلاً هو الموت ، ما برحا حيّيْن في حياة الله التي لا ظلّ لها .

الثنائية احتكاك دائم بين أمرين يصوّرهما الوهم كما لو كانا نقيضين او ضدين يعمل كل منهما ابداً للقضاء على نقيضه او ضده . اما في الواقع فما هما غير شطرين يكمّل واحدهما الآخر فيعمل الاثنان يداً بيد لغاية واحدة ألا وهي الوصول الى السلام الكامل، والوحدة الكاملة، والتوازن الكامل في الفهم المقدس . لكنّ وهم التناقض ينبت في الحواس الخارجيّة وينمو فيها . فهو باقٍ ببقائها .

لذلك اجاب آدمُ اللهَ عندما دعاه من بعد ان **انفتحت عيناه** : « سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان فاختبأت ... المرأة التي جعلتها معي هي اعطتني من الشجرة فأكلت . »

ما كانت حواء غير لحم من لحم آدم وعظم من عظمه . فما اغرب هذه الا **آنا** التي وُلدت لآدم حالما **انفتحت عيناه** ، والتي راحت ترى ذاتها غير ذات حواء ، وغير ذات الله ، وغير كل مخلوقات الله ! لكنها ما كانت غير وهم صوّرته العين **المنفتحة** حديثاً . فلا جوهر فيها ولا حقيقة لها . وهي ما وُلدت لآدم الا ليعرف بموتها ذاته الحقة التي هي ذات الله . وهي ستتلاشى يوم تُظلم العين الخارجية وتنفتح العين الباطنية . الا ان آدم ، وان وقع في حيرة من امرها ، راح يتعشقها بفكره وخياله . فقد اغراه ان تكون له ذات خاصة به ومنفصلة عن كل ذات . ذلك لانه كان يجهل ذاته الحقة .

وتمسك آدم بذاته الموهومة بكل ما فيه من قوّة الوهم فما كان ليتنازل عنها رغم انه كان يخجل بها لانها **عريانة** ، او لا وجود لها . بل راح يسيّجها بقلبه ويفديها بدمه ويناضل عنها بكل ما اوتيه من الدهاء والمعرفة من بعد ان **انفتحت عيناه** . فكان اول ما فعله من اجلها ان خاط لها مئزراً من ورق التين ليستر عريها ويحجبها عن عين الله التي تخترق كل الستائر والحجُب .

فنتج عن ذلك ان الانسان المؤتزر بورق التين فقدَ جنّة عدن ، تلك الغبطة الغافلة والوحدة التي ما كانت تعرف ذاتها ، وقام بينه وبين **شجرة الحياة** سيف من نار .

خرج الانسان من جنة عدن من الباب المزدوج – باب الخير والشر ؛

لكنه سيرجع اليها من الباب الموحّد – باب الفهم المقدس . خرج وظهره نحو شجرة الحياة ، لكنه سيعود ووجهه اليها . ثم انطلق في سبيل الثنائية الطويل وبه خجل من عريه ؛ لكنه سيبلغ نهاية السبيل ولا مئزر على طهارته ، وقلبه فخور بعريه . إلاّ ان ذلك لن يتم له حتى يتغلّب على **الخطيئة** بالخطيئة . فالخطيئة في النهاية ستكون مهلكة للخطيئة . اذ لا خطيئة إلاّ في المئزر من ورق التين .

اجل ، لا خطيئة إلاّ في الحاجز الذي اقامه الانسان بين نفسه والله – بين ذاته الزائلة وذاته الازلية الابدية .

ما كان ذلك الحاجز في البداية إلاّ قبضة من ورق التين . لكنه على مر الزمان اصبح سوراً هائلا . فمنذ ان خلع الانسان عنه نقاوة عدن وهو يدأب بغير انقطاع في جمع اوراق التين وخياطة مآزر منها . اما الكسالى من الناس فيكتفون برتق ما تهرّأ من مآزرهم بما ينبذه النشيطون من مآزر قديمة او بالية . واما النشيطون فما ينفكون يخيطون مآزر جديدة ، وان رتقوا مئزراً قديماً فباوراق جديدة . وكل رتقٍ في ثوب الخطيئة ليس الاّ خطيئة ، لان من شأنه ان يؤبّد خجل الانسان الذي كان اول شعور تنبه فيه حال انفصاله عن الله .

وماذا عسى الانسان يفعل اليوم للتغلب على خجله ، والانعتاق من عاره ؟ اواه ! لا شيء . فما كل اعماله سوى عار يضاف الى عار ؛ ومآزر فوق مآزر .

أليست فنون الانسان وعلومه اوراقاً من التين ؟

وممالكه ، وحواجزه الجنسية والقومية ، ومذاهبه الدينية النافخة ابداً

في بوق الحرب - أليست هذه كذلك اصنافاً من عبادة ورق التين ؟

وتثمينه ما لا يثمن ، ووزنه ما لا يوزن ، وقياسه ما هو ابعد من كل قياس - أليس ذلك كله رتقاً لمئزر تهرّأ لكثرة ما رُتق ؟

وجشعه في الملذات الحبلى بالألم ، وطمعه في الغنى الذي يُفقر ، وعطشه الى السلطة التي تَستعبد، وهيامه بالعظمة التي تُصغّر وتحقّر - أليست كل هذه مآزر من ورق التين ؟

لقد لجّ الانسان في ستر عاره . فكان من لجاجته انه أكثر من صنع المآزر وراح يرتديها الواحد فوق الآخر . وهذه المآزر ، على كرّ الزمان ، أصبحت ألصق به من جلده حتى انه ما بقي يميزها بشيء عن جلده . واذ أثقلته كثرة جلوده الى حدّ ان ضيّقت عليه انفاسه عاد يصيح المدد ويفتش عمّن يريحه من أثقاله . وكأنه ، لشدّة ما برّح به الألم ، فقد رشده . فهو يطلب ان يُراح من أثقاله بكل الوسائل ما خلا الوسيلة الوحيدة المؤدية الى الراحة . وهي طرحه الاثقال عن ظهره . وذلك يعني ان الانسان يطلب المستحيل - يطلب الخلاص من أثقاله التي هي مآزره ولا يرضى ان يتخلى عن مآزره . يريد ان يتعرى من غير ان ينضو ثوباً من أثوابه .

لكنّ يوم التعرّي قد أزف . وأنا ما جئتُ الاّ لأساعدكم في نزع ما اكتسبتموه من جلود جديدة وثقيلة كيما تساعدوا الناس في نزع جلودهم المرهقة . اني أدلّكم على الطريق لا أكثر . ومن ثم فعلى كل منكم ان ينزع جلوده بيده مهما يكن من ألم في مثل ذاك العمل .

لا تخافوا الألم ، ولا تنشلّ أيديكم من الخوف فتلبثوا في انتظار معجزة

تنوب عنكم في فعل ما فِعْله منوط بكم دون غيركم . فمتى عرفتم نشوة الفهم العريان من كل وهم نسيتم كل ما انتابكم من ألم وحزن .

وعندئذٍ اذا ما أبصرتم أنفسكم عراةً من كل شيء إلاّ الفهم ، وناداكم الله سائلاً : أين أنتم؟ ما شعرتم بأقل خجل او خوف ولا اختبأتم من وجه الله. بل وقفتم أمامه خالين من كل خوف ، احراراً من كل قيد ، وأجبتموه بصوت هادىء مطمئن :

« ها نحن يا الله ، – يا حياتنا ويا كياننا ، ويا ذاتنا التي لا ذات إلاّها. لقد قطعنا الطريق الذي أعددته لنا منذ فجر الزمان . طريق الخير والشرّ الطويل ، المتلوي ، الكؤود. قطعناه خجلين ، وجلين . فكان الحنين الأكبر قائداً لخطانا ، والايمان عوناً لقلوبنا ، والآن قد نزع الفهم عنا كل أثقالنا ، وضمد كل جراحنا ، وعاد بنا الى حضرتك القدسيّة عراةً من الخير والشر ، ومن الحياة والموت ، ومن كل أوهام الثنائية ومن كل ذات ما خلا ذاتك الشاملة كل ما في الوجود . وها نحن وقوف أمامك ، ولا مآزر من ورق التين علينا ، ولا خوف في قلوبنا ولا خجل ، بل في قلوبنا نور لا يوصف ، وطمأنينة لا تُحدّ . ها نحن قد توحّدنا . وها نحن قد تغلبنا . »

وإذ ذاك يعانقكم الله عناق محبة لا حدّ لها ويقودكم في الحال الى شجرة الحياة – حياته .

هكذا علّمت نوحاً .

وهكذا اعلمكم .

**نروندا :** وهذا كذلك فاه به المعلم حول الموقد .

# الفصل الثالث والثلاثون

## في الليل – سيد المنشدين

**نروندا** : حالت ثلوج الشتاء واعاصيره وزمهريره مـا بيننا وبين وكر النسور شهوراً بتنا بعدها نحنّ اليه حنين المنفيّ الى صحن داره . فما ان اقبل الربيع حتى قادنا المعلم ذات ليلة اليـه . وكانت ليلة كحيلة الجفن ، لألاءة الحدقة ، يقظة القلب ، معطّرة النفَس ، سريعة النبض .

دخلنا الوكر فالفينا الحجارة الثمانية التي كانت لنا فيه بمثابة الكراسي ما تزال مصفوفة في شكل نصف دائرة على حدّ ما تركناها ساعة اقتادوا المعلّم الى بتعار . فكان جليّاً ان احداً ما دخل الوكر منذ تلك الساعة .

ثم جلسنا كلّ في مكانه المعتاد ولبثنا نتوقع من المعلم ان يبدأ بالكلام . لكنه ما فتح فاه . وكأن البدر المطلّ علينا من سمائه كان يرحّب بنا وقـد علقت اجفانه ، نظير اجفاننا ، بشفتيَ المعلم .

وكانت الشلالات الجبلية الهاوية من صخر الى صخر تملأ الليل باهازيجها . وبين الفينة والفينة كانت تطرق آذاننا نبضات متقطعة من نعيب بومـة او نشيد جدجد .

لبثنا كذلك برهة ونحن لا يكاد يُسمع لنا نَفَس . واذا بالمعلم يرفع رأسه ويفتح عينيه نصف فتحة ويأخذ يكلمنا هكذا :

مرداد

في هدأة هذا الليل يودّ مرداد ان يسمع واياكم اناشيد الليل . أرْعوا الليل سمعكم . فالليل لا شكّ سيّد المنشدين . من شقوق الماضي السحيق ، ومن ثكنات المستقبل القصي ؛ من قباب السماء ومن احشاء الارض تتدفق اصوات الليل امواجاً متتالية تغمر الكون ادناه واقصاه . واذ تمرّ بآذانكم تدور من حولها طالبة الدخول . ألا انزعوا الأوقار من آذانكم كيما يتاح لكم ان تسمعوا.

انما الليل ساحر يجلو بخوارق سحره كل ما يغشّيه النهار الصاخب بلهوه وعبثه . اما ترون الى القمر والكواكب كيف تحتجب بوهج النهار فلا يميط حجابَها الا الليل ؟ ام لا ترون الى الأصوات التي يخنقها النهار بضوضائه كيف تُبعث حيةً على اوتار الليل النشوان بألحان السكينة ؟ حتى الاعشاب تنشد احلامها في نشيد الليل .

اسمعوا الافلاك في دوراتها ترنّم تهويدة السرير
للطفل العملاق الهاجع في سرير من الرمال الغوّارة الغدّارة .
بل الملك المتدثر بأسمال الصعاليك .
بل البرق المصفد بالحديد .
بل الاله المقمّط بالقُمُط .

واسمعوا الارض تعاني في آنٍ اوجاع المخاض

وترضع البنين وتنميهم وتزوجهم ثم تدفنهم .

ففي الغابات تزمجر الضواري مترصدةً فريسة ، او منقضّة على فريسة ، او ممزّقة تمزيق الفريسة .

والدبّابات تدب في سبيلها .

والهوامّ تطنّ اناشيدها السريّة .

والعصافير الغافية على الافنان تردّد في احلامها اقاصيص المروج واغاني الجداول .

وكل ما في الغاب من شجر وادغال ، ومن جماد ومتحرك ، يرشف الحياة باكواب الموت .

من كل قنة ومن كل واد ،

من صدور الصحاري ومن قعور البحار ،

من الفضاء ومن تحت التراب ،

ترتفع اصوات الليل متحدّية الانسان — ذلك الاله المحجّب بالزمان والمكان — ان ينزع عنه حجابه .

اسمعوا امّهات العالم كيف يُعولنَ ويولولن .

وآباء العالم كيف يئنّون ويلهثون .

اسمعوا ابناءهم وبناتهم يَعْدون من المدفع والى المدفع

مبكتين الله ، لاعنين القدر .

متظاهرين بالمحبة ونافثين البغضاء .

شاربين الحماسة لترشح من عروقهم جبناً وخوفاً .

هارقين نجيعهم على النيران المشبوبة من حولهم والزاحفة حثيثاً عليهم
زحفَ الحمم من البركان .
اسمعوا أمعاءهم الجافة تتقطع ،
واجفانهم المقرحة ترفّ رفة البله المذعور ،
وانامليهم الذاوية تفتش على غير هدى عن جيف آمالهم ،
وقلوبهم المفجوعة تتمدد ثم تتفطر اكداساً فوق أكداس .

اسمعوا قعقعة الآلات الجهنمية .
ثم اسمعوا المدن العاتية تنهار الى الحضيض ،
والابراج الشامخة تدق بايديها دقات حزنها ،
ومعالم الماضي تتخبط في برك من الدماء والاوحال .

اسمعوا صلاة البارّ تمتزج بفحيح الفجور ،
وتمتمة الطفل الطهور تتزاوج مع غمغمة اللآمة ،
وبسمة العذراء الخجول تغرّد مع كيد البغيّ ،
ووجد الشجاع المتوهج يدندن خواطر الوغد والجبان .

في كل خيمة لكل عشيرة ،
وفي كل بيت لكل امة ،
يقرع الليل للانسان طبل القتال .

غير ان الليل اذ يرنم تهويدة السرير للانسان ،
وإذ يقرع الطبل للقتال ،
يعود فيسكب كل ذلك بسحره الفائق الادراك
في نشيد واحد أدقّ وأرقّ من ان تستوعبه الاذن .
هو نشيد سمتْ نبراته ، وجلّت وقفاته ،
وبَعُدَ قراره ، وفاضت حلاوته الى حدّ انْ أعذب ما تنشده الملائكة
ليس ازاءه سوى ثرثرة وجلبة .
ذلك هو نشيد الانسان المتغلّب .

ان الجبال المثقلة بالنعاس في أحضان الليل ،
والفيافي الغارقة في لجج من الذكريات ،
والبحار الماشية أبداً في نومها ،
والدراري الهائمة في فضائها ،
والساكنين في مدن الأموات ،
والثالوث الأقدس مع ارادته الكلية ،
كل هذه وكل هؤلاء يبتهجون بان يحيّوا الانسان المتغلب،
وان ينشدوا له نشيد الغلبة .
فيا لطوبى السامعين والمستوعبين !

يا لطوبى مَنْ اذا ما افهم الليل بعزلته كانوا كالليل هدوءاً وعمقاً واتساعاً .

فما صفعتهم في الظلام آثام اقترفوها في الظلام ،

ولا حرقت أجفانَهم عبراتٌ سكبتها عيونٌ غير عيونهم وكانوا السبب في سكبها ،

ولا شعروا بايديهم يتأكلها حكاك الأذيّة والطمع ،

ولا بآذانهم يحاصرها فحيح أهوائهم ،

ولا لدغت أفكارُهم أفكارَهم ،

ولا كانت قلوبهم مباءة لكل أصناف الهموم المغيرة بغير انقطاع من كل نخروب من نخاريب الزمان ،

ولا أدمغتهم تربة تحفر فيها المخاوفُ الانفاق والخنادق ، —

الذين في مستطاعهم ان يخاطبوا الليل بكل جرأة قائلين: « ألا أعلِنّا للنهار » وان يقولوا للنهار : « ألا أعلِنّا لليل . »

أجل طوباهم مَثنى وثُلاثَ اولئك الذين اذا ما لفّهم الليل بعزلته أحسّوا ذواتهم مدوزنين ومطمئنين وغير متناهين كالليل .

فلهم وحدهم ينشد الليل نشيد المتغلبين .

اذا شئتم ان تجابهوا مخرقات النهار ودسائسه ومثالبه ،

وجباهكم عالية لامعة ، وأحداقكم تشع ثقةً وايماناً ، فاسرعوا الى كسب صداقة الليل .

صادقوا الليل .

اغسلوا قلوبكم بدمائكم وأودعوها قلب الليل .

ثم ضعوا في راحة الليل حنينكم عارياً من كل زخرف وغش ،

ثم اسفحوا على اقدامه دماء كل مطامحكم ما خلا مطمح الوصول الى الانعتاق بواسطة الفهم المقدس .

وعندها تصبحون في مأمن من حمم النهار وسهامه .

ويشهد لكم الليل أمام الناس بأنكم حقاً متغلبون .

اذ ذاك ، وان تقاذفتكم أيدي نهارات محمومة ،

وغمرتكم بدجناتها ليالٍ عمياء ،

فوجدتموكم على مفارق طرق العالم ، منبوذين منسيين ،

ولا من يدٍ او من علامة تدلكم على الطريق ،

بقيتم ، مع ذلك ، أقوى من اي انسان وأي ظرف ، وقطُّ ما خامركم شك في ان الأيام والليالي ، والناس وغير الناس ، سيفتشون عنكم في النهاية ، ويأتونكم صاغرين ومتوسلين لتقودوهم الى المحجة .

ذلك لانكم نلتم ثقة الليل . ومن كانت له ثقة الليل كان في قدرته ان يقود النهار الآتي .

أرعوا سمعكم قلب الليل . ففيه ينبض قلب الانسان المتغلب .

لو كان في عيني دموع لأرقتها في هذا الليل أمام كل نجم وكل ذرة تراب ، وكل جدول يعدو وجدجد يشدو ، وكل بنفسجة تنشر روحها العطر على كف النسيم ، وكل هضبة ووهدة ، وكل عشبة خضراء — أجل لأرقتها أمام كل ما في هذا الليل من السلام والجمال كفارةً عن عقوق الناس وجهلهم البربري .

فالناس ، وهم أرقاء الفلس الأذلاء ، لاهون في خدمة مولاهم عن

سماع أي صوت والامتثال لأيّ ارادة الا صوت الفلس وارادته .

ويا لخدمة مولى الناس ما اشقّها وما أفظعها من خدمة ! فهي تقضي على الناس بتحويل عالمهم الى مسلخ هم فيه القصّابون والمقصّبون . هكذا ، وقد سكروا بالدم، يذبح الناسُ الناسَ موقنين ان الذابح يرث حصّة المذبوح في كل بركات الأرض وهبات السماء .

يا لتعسهم ويا لغرورهم !

أسمعتم يوماً بذئبٍ افترس ذئباً فاصبح حَملاً ؟

ام بأفعى سحقت أفعى وابتلعتها فصارت حمامة ؟

أم بانسان قتل انساناً فورث خيراته دون ويلاته ؟

ام بأذن وقرَت شقيقتها فغدت من بعدها أرهف سمعاً وأوفر استمتاعاً بحلاوة مغاني الحياة ؟

أم بعين سملت رفيقتها فباتت أجلى من ذي قبل وأقدر على استجلاء جمالات الوجود ؟

أعلى البسيطة انسان او جيش من الناس في مستطاعهم ان يستوعبوا خيرات ساعة واحدة سواء أكانت من الخبز والخمر ، أم من النور والسلام ؟

لا تلد الأرض أكثر بما في قدرتها ان تغذّي . والسماء لا تسرق ولا تستجدي من أحدٍ قوتاً لأبنائها .

كذب القائلون للناس : اذا ما شئتم ان تشبعوا فاقتلوا وَرِثوا الذين تقتلون . – اذ أنّى لِمَن ما درى كيف ينعم ويسمن بمحبة الناس ، وبلبن الأرض وشهدها ، وبعطف السماء وحنانها، ان ينعم ويسمن بدموع الناس ودمائهم

وحسراتهم ؟

كذب القائلون للناس : كل أمّة لذاتها . — كيف لأم الأربع والأربعين ان تتقدم قيد قيراط اذا راحت كل رجل من أرجلها تمشي في وجهة معاكسة لرفيقاتها او تعمل على اتلاف رفيقاتها ؟ أليست الانسانية أمّ أربع وأربعين هائلة وكل أمّة بمثابة رجل من أرجلها ؟

كذب القائلون للناس : أن تَحكُموا شرف . وأن تُحكَموا عار . — أليس انّ سائق الحمار مَقُود بذيل حماره؟ أليس السجّان أسير سجينه ؟ حقّاً ان الحمار ليسوق قائده . والسجين لَيسجن سجّانه .

كذب القائلون للناس : السباق للسريع . والحق للقوي . — فالحياة ما كانت يوماً سباق عضلات وأعصاب . فكم من كسيح او مشوّه بلغ القمة قبل الصحيح . وكم من بعوضة صرعت مصارعاً .

كذب القائلون للناس : ان الاساءة لا تمحوها إلاّ الاساءة. فحتى اليوم ما ولدت اساءتان حقاً واحداً . دعوا الاساءة وشأنها . فهي كفيلة بان تمحو ذاتها بذاتها . واعلموا ان ظلم الناس للناس هو عدل الارادة الكلية في الناس.

لكنما الناس أغرار . فما أسرع ما يصدقون فلسفة الفلس وأعوانه الأوغاد ، وما أطوعهم في توضيتهم . أما الليل الذي ينشد لهم نشيد الانعتاق ، بل الله الذي هو الانعتاق ، فلا يصغون لهما ولا يحفلون بهما. فلا عجب يا رفاقي اذا هم وسموكم بسِمة الجنون والشعوذة .

لا يثقلن عليكم عقوق الناس وتهكمهم اللاذع . بل اعملوا بمحبة فيّاضة وصبرٍ لا نفاد له من أجل خلاصهم من نفوسهم ومن طوفان النار والدم الذي

سيدهمهم قريباً .

لقد آن الأوان للناس ان يكفّوا عن ذبح بعضهم بعضاً .

فالشمس والقمر والنجوم ما تزال منذ الأزل ترتقب العين التي ستبصرها وتفهمها؛ وكتاب الأرض الفكرَ الذي سيفك ألغازه؛ ومسالك الفضاء الاقدامَ التي ستسلكها؛ وخيط الزمان المعقّد اليدَ التي ستحلّ عقده؛ وعبير الوجود الأنفَ الذي سيتنشقه؛ ومغاور الألم المنجنيقَ الذي سيدمرها؛ ووجار الموت الغازيَ الذي سيغزوه فيتركه خراباً؛ وخبز الفهم الفمَ الذي سيتذوقه؛ والانسان — ذلكم الاله المحجّب — مَن سيميط عنه حُجبه.

أجل، لقد آن الأوان للناس ان يكفّوا عن سلب الناس ونهبهم وان يوحّدوا صفوفهم للقيام بالمهامّ الكبيرة التي تنتظرهم.

خطيرة هي تلك المهام وثقيلة. لكنما الفوز أحلى من ان يوصف، وأجلّ من ان يقدّر. وكل ما عداه تافه وضئيل ودميم.

بلى، لقد آن الأوان. ولكن ليس للجميع. فلن يسمع هذا النداء إلاّ القليل. أمّا الباقون فلا بدّ لهم من انتظار نداء غير هذا النداء. وفي فجر غير هذا الفجر.

•

# الفصل الرابع والثلاثون

## في البيضة الأمّ

**مرداد** في هدأة هذا الليل يودّ مرداد ان يكلمكم في البيضة الأمّ .

الفضاء وكل ما فيه بيضة قشرتها الزمان . تلكم هي البيضة الأمّ .

وكما يحضن الهواءُ الارضَ كذلك يحضن هذه البيضةَ روحُ الاله المنعتق من قيود المكان والزمان – الاله الشامل – الحياة غير المجسّدة ، المتسامية عن البدايات والنهايات وعن المدارك والاسماء .

اما الذي ضِمن البيضة فالاله **الجرثومة** – الاله **المشمول** – الحياة المجسّدة والمتسامية كذلك عن النهايات وعن المدارك والاسماء .

وهذه البيضة ، وان تاخمت اللانهاية من كل صوب ، ليست في ذاتها بغير نهاية . الاّ ان ابعادها لا تنقاد الى مقاييس الناس .

كل ما في الكون من حيّ وغير حيّ ليس سوى بيض من مكان وزمان وقد انغلقت كل واحدة منه على نفس الاله – الجرثومة ، ولكن في درجات متفاوتة من الانكشاف ، وان شئتم فقولوا من الوعي او من « النموّ » .

فالاله – الجرثومة في الانسان قد بلغ من النموّ في المكان والزمان ابعد مما بلغه في الحيوان. وفي الحيوان ابعد منه في النبات، وهكذا نزولاً حتى آخر درجة دون الانسان، وصعوداً حتى اعلى درجة فوقه في سلّم الكائنات.

ثم ان هذه البيضات التي لا تحصى، والتي تمثل كل الكائنات من منظور وغير منظور ومن حي وغير حي، قد رُتّبت ضمن البيضة الأمّ ترتيباً عجيباً بحيث ان ابعدها امتداداً أو وعياً او نموّاً في المكان والزمان ينطوي على كل ما هو دونه امتداداً او وعياً أو نموّاً. وهكذا تتدرج من الاكبر الى الأصغر حتى تبلغ البويضة المركزية المتناهية في صغرها والتي هي الاله – الجرثومة الذي ما تمدد بعد لا في المكان ولا في الزمان.

بيضة ضمن بيضة، ضمن بيضة الى ما لا حدّ له ولا عدّ. اما لقاح الكل فواحد، وهو الله – تلكم هي المسكونة يا رفاقي.

على انني، وانا اكلمكم عن البيضة الأمّ، يخالجني شعور بان افكاركم تتزلق عن كلماتي انزلاق الماء عن الزجاج فلا تبلغ لبابها. وكنت اودّ ان اجعل من كل كلمة درجة مكينة ثابتة لو انّ الكلام بطبيعته ينقاد لأن يكون درجات مكينة ثابتة في سلّم الفهم الكامل. لذلك عليكم ان تتمسكوا من كلماتي باكثر من حروفها، وباكثر من عقولكم اذا ما شئتم ان تدركوا الأبعاد والأعماق والأعالي التي يتوخى لكم مرداد ان تدركوها.

انما الكلمات، في خير مظاهرها، ومضات تكشف عن آفاق. ولكنها ليست تلكم الآفاق ولا الطريق اليها. لذلك اذا كلمتكم عن البيضة الأم، وعن الاله الشامل والمشمول، او الاله المنطلق والاله المنغلق، فلا تتعثروا

بالحروف ، بل اتبعوا الومضة. واذ ذاك فكلماتي اجنحة قوية لفهمكم المتعثر المتواني.

تأملوا الطبيعة . افما ترونها قائمة على المبدإ البيضوي ؟

تأملوا رأس الانسان وقلبه وكليته وعينيه ؛

تأملوا كل انواع الثمار والحبوب ؛

تأملوا الشرارة ، وقطرة الماء ، وذرة الرمل ، ونطفة اي سمكة ، او طير ، او حيوان ، أو انسان . تأملوا هذه الاجرام بغير عدّ السائرة بلا انقطاع في سبلها السرية النيّرة في رحاب الفضاء . اليست كلها بيضات متفاوتة الحجم ومنغلقة على خلاصة الحياة ، على الاله – الجرثومة ، في درجات متفاوتة من النموّ؟ اليس ان كل الحياة تنقف ابداً من بيضة لتعود الى بيضة؟ اجل ، انكم لواجدون في البيضة مفتاح الكون .

حقاً ان دأب الخليقة لدأب عجيب لا استراحة فيه ولا فتور . فالحياة ما تنفك تنفذ من غشاء البيضة الأمّ الى قلبها ، ومن قلبها الى غشائها في فيض مستمرّ ، مستقرّ . فالاله – الجرثومة الكائن في قلب البيضة الأمّ ، اذ يأخذ في التمدد ضمن المكان والزمان ، ينقف من بيضة الى بيضة ، من ادنى درجات الحياة الى اسماها . وادنى درجات الحياة ما كان اقلّها اتساعاً في الزمان والمكان ، واسماها ما كان اكثرها اتساعاً . اما الزمان الذي يستغرقه الانتقال من بيضة الى بيضة فقد يكون طرفة عين وقد يكون دهراً ، وهكذا تمضي الحياة في دورانها الى ان ينفذ الاله – المشمول من قشرة البيضة الأم ، اي الى ان يخترق الزمانَ ، فيتّحد بالاله الشامل الزمان والمكان ويصبح إلهاً شاملا

كل مكان وكل زمان .

والآن ما اخالكم تسيئون فهمي اذا ما قلت لكم ان الحياة تَفَتُّحٌ ، او نموّ وتقدّم ولكن على غير ما يفهم الناس النموّ والتقدّم . فالنموّ عندهم زيادة في الكميّة ، والتقدّم سير الى الأمام . في حين ان النموّ هو التمدُّد المتّسق المتوازي في المكان والزمان . والتقدم هو الحركة الموزّعة بالتساوي في كل جانب : يميناً ويساراً ، واماماً وخلفاً ، وصعوداً ونزولاً . فقصارى النمو ، اذاً ، هو الخروج من حظيرة المكان . وقصارى التقدّم هو سَبْق الزمان كيما يتمّ الاتحاد بالله الشامل وبذلك يتم الانعتاق من اصفاد المكان والزمان ، ذلك الانعتاق الذي ليس الا ّه حرياً باسم الحرية المقدسة ، والذي هو الهدف الاوحد والاسمى للانسان من حياته .

فكّروا ملياً بهذه الكلمات ايها الرهبان . فانتم ما لم تختمر بها دماؤكم عبثاً تحاولون تحرير انفسكم والغير . بل ان كل محاولة منكم قد لا تأتيكم وتأتي الناس الا ّ بسلاسل جديدة فوق سلاسلكم وسلاسلهم . اما مرداد فيريدكم ان تفهموا كيما تسهّلوا لكل توّاقٍ طريق الفهم . ومرداد يريدكم احراراً كيما يتاح لكم ان تقودوا الى الحرية سلالة التواقين الى الغلبة والانعتاق . لذلك سيمضي بكم مرداد شوطاً آخر في شرح المبدإ البيضوي ، لا سيما فيما يختص بالانسان .

ان كل ما دون الانسان من كائنات يتغلّف كل نوع منه ، او كل جماعة ، في بيضة . فللنبات بيض بعدد انواعه لا بعدد افراده ؛ ومثله للحشرات ، والاسماك ، وذوات الثدي . وفي كلها تنطوي بيضة النوع الذي هو اكثرها نمواً على كل البيض الذي دونها نمواً ، حتى البويضة الاولى المنطوية على الاله —

الجرثومة قبل ان يبدأ تمدده في المكان والزمان .

ومثلما يغتذي جنين الطير بما في البيضة من مُحّة وزلال فينمو وينقف الى عالم افسح مدًى وارحب زماناً، كذلك يغتذي الاله – الجرثومة بالبيضات التي تنطوي عليها بيضته لينمو وينقف الى بيضة اوسع فضاءً واطول زماناً من التي كان فيها .

ثم ان الاله – الجرثومة كلما انتقل من بيضة الى اخرى صادف فيها غذاءً من المكان والزمان يختلف، ولو قليلاً، عن الذي عرفه في البيضة السابقة . فهو في الغازات لا شكل له ولا وعي . اما في السوائل فيقترب من ان يكون له شكل ويبقى بغير وعي . واما في الجماد فيتخذ له شكلاً ثابتاً ولكنه يبقى بريئاً من كل صفات الحياة الظاهرة في الكائنات الاسمى منه . ولا يبلغ درجة النبات حتى يبرز في شكل وفي الوان مع المقدرة على النمو، والشعور، وتجديد النسل . ثم يبلغ درجة الحيوان فاذا به يشعر، ويتحرك، ويتناسل، ويعي، ويذكر ويفكر، ولكن الى حدّ . وما ان يبلغ درجة الانسان حتى يتخذ، علاوة على كل ذلك، **شخصيّة** لها المقدرة على **التأمل** وعلى **التعبير** وعلى **الخَلق** . اجل، ان ما يخلقه الانسان بالنسبة لما يخلقه الله كبيت من كرتون يبنيه ولدٌ بالنسبة الى برج اهيف، او هيكل رائع يبنيه مهندس متفوّق . الاّ انه خَلق في كل حال .

وهكذا فالانسان يغدو بيضة **فرديّة** تنطوي على كل ما دونها، وينطوي عليها كل ما فوقها نموًا في المكان والزمان . اما الانسان المتغلّب فيشمل في ذاته كل الناس وكل ما دون الناس من الكائنات .

واما حجم البيضة التي تحتوي ايّ انسان فيقاس باتساع آفاق ذلك الانسان في المكان والزمان . فبينا ذاكرة بعضهم لا تتناول من الزمان اطول من الفسحة التي هي عمره ، ولا تمتد في المكان ابعد من مجال بصره ، تجدون آفاق البعض الآخر تتصل في الماضي بازمنة لا يذكرها التاريخ ، وفي المستقبل باحقاب ما تزال طيّ الكتمان، وتطوي فراسخ بعد فراسخ من ابعاد ما اقتحمتها عينه قطّ .

واحدٌ هو الغذاء المعَدّ لكل الناس لأجل تفتّحهم او نموّهم . ولكن قابليّتهم للأكل والهضم ليست واحدة . ذلك لانهم ما نقفوا من بيضة واحدة في مكان واحد وآن واحد . ومن هنا الفرق بين امتداد هذا وذاك في المكان والزمان بحيث لا تجدون اثنين متشابهين في كل شيء .

فمن الناس الجالسين الى مائدة الحياة المثقلة بالعجائب والخيرات ترون واحداً يغتذي بطهارة الاشياء وجمالها فيشبع . بينا يحاول الآخر ان يغتذي بلحم الاشياء ودمها فيبقى ابداً جائعاً .

يبصر صياد غزالة فيجدّ في طلبها ليقتلها ويأكلها . ويبصرها شاعر فاذا به محمول على اجنحة سحرية الى اجواء وعوالم لا تخطر للصياد حتى في المنام . وها هو ميكايون العائش جنباً الى جنب مع شمادم في مأوى واحد وتحت سقف واحد يحلم بالتغلّب وبقمة الانعتاق من حدود المكان وقيود الزمان ، في حين ان شمادم لا يفتأ يفتل حبالاً جديدة يربط بها ذاته الى الزمان والمكان رباطاً اشدّ من ذي قبل . حقاً ان ميكايون وشمادم ، وان تلامست كتفاهما ، لبعيدان كل البعد واحدهما عن الآخر . ان ميكايون ليحتوي شمادم . امّا

شمادم فلا يحتوي ميكايون . ولذلك كان في مستطاع ميكايون ان يفهم شمادم ، ولم يكن في مستطاع شمادم ان يفهم ميكايون .

ان حياة الانسان المتغلّب لتتصل من كل ناحية بحياة كل انسان ، لانها تنطوي على حياة كل الناس . ولكن ما من انسان دون المتغلب تتصل حياته من كل ناحية بحياة المتغلب . فالمتغلب يظهر لأبسط الناس كما لو كان من ابسط الناس. وللمتفوقين في الفهم والانعتاق كما لو كان اكثرهم فهماً وانعتاقاً. ولكن في حياته نواحي لا يتصل بها ولا يفهمها احد من الناس غير المتغلبين . لذلك كان في عزلة عن الناس وهو بينهم ، وكان في العالم وليس من العالم .

ولما كان الاله المشمول أو الاله – الجرثومة حاوياً في ذاته كل قوى الالوهة الشاملة كان من طبيعته ألاّ يطيق الحصر في مكان وزمان وان يعمل أبداً على الانفكاك منهما مستعيناً لذلك بادراك يفوق ادراك الناس بما لا يوصف ولا يقاس . وهذا الادراك بعينه هو ما يدعونه **غريزة** في الكائنات الأدنى من الانسان ، **وعقلاً** في الانسان المتوسط الادراك ، **وحساً نبوياً** في الانسان المتفوّق . هو كل ذلك بل أكثر من ذلك. هو ما دعاه البعض الروح القدس، وما سمّاه مرداد روح الفهم المقدس .

ان اوّل ابن انسان اخترق غلاف الزمان واجتاز تخوم المكان قد دعي بحق ابن الله ، مثلما دعي فهمه لألوهته روحاً قدساً . وها انا اؤكد لكم انكم انتم كذلك ابناء الله ، وان الروح القدس يعمل فيكم بغير انقطاع .

ولكن حذار من ان يخطر لأحدكم ببال ان يقول « أنا الله » قبل ان يخترق غلاف الزمان ويجوز حدود المكان . والى ان تتم لكم الغلبة قولوا :

« الله أنا » . احفظوا هذه الوصية في قلوبكم مخافة ان تجتاحها الكبرياء والاوهام المضلّة فتفسد خميرة الروح القدس فيها . واعملوا مع الروح القدس لا ضدّه . فالذين يعاكسون الروح ، وهم أكثر الناس ، يطيلون أسرهم ويمدّون في عذابهم من حيث لا يعلمون .

دعوا الزمان يقهر الزمان ، ودعوا المكان يزدرد المكان . واياكم ان تجعلوا من حياتكم مَضيَفَةً لأيٍّ منهما . اذاً لبقيتم رهائن ذليلة لأوجاع الخير والشر وألاعيبهما التي لا نهاية لها .

ان الذين عرفوا هدفهم من وجودهم وراحوا يعملون على تحقيقه لا ينفقون ساعاتهم في مداعبة الزمان ، ولا خطواتهم في قياس المكان . بل انهم في عمر واحد قد يلفّون أحقاباً طويلة ويطوون ابعاداً شاسعة . فهم لا ينتظرون الموت لينقلهم من بيضة هم فيها الى التي بعدها ؛ بل انهم يتكلون على الحياة لتساعدهم في اختراق قشور بيضات عدّةٍ دفعةً واحدة .

من شاء ان يكون له ذلك فعليه ألاّ يكون مملوكاً لأيّ مُلك حتى لا يجد الزمانُ والمكانُ ممسكاً يمسكان به قلبه . فمن كثرت ممتلكاته كثر ممتلكوه . ومن قلّت ممتلكاته قلّ ممتلكوه .

أجل ، خففوا أوزاركم الارضية ، واطرحوا أعباء المعيشة جانباً كيما لا يبقى لكم من مُلك ومن مالك الاّ ايمانكم ، والاّ محبّتكم ، والاّ توقكم الى الانعتاق بواسطة الفهم المقدس .

# الفصل الخامس والثلاثون

## شرارات على الطريق نحو الله

**مرداد** في هدأة هذا الليل بودّ مرداد ان يذرّ بعض الشرار على طريقكم نحو الله :

تجنبوا الجدال من ايّ نوع كان . فالحقيقة تشهد لذاتها ، وشهادتها في غنى عن التزكية والبرهان . أما ما كان لا يقوم إلاّ على حجة وبرهان فما اسرع ما ينهار بالبرهان والحجة .

إثباتكم الشيء هو دحضٌ لنقيضه . وإثباتكم نقيضَ الشيء هو دحض لذلك الشيء . لكنما الله لا نقيض له . فكيف تثبتون وجوده ام كيف تدحضونه ؟

كيما يكون اللسان ميزاباً للحق يترتب عليه ألاّ يكون سوطاً ، ولا ناب افعى ، ولا دولاب هواء ، ولا بهلواناً ، ولا زبّالاً .

ليكن كلامكم حافزاً لأفكار الغير . وسكوتكم حافزاً لأفكاركم .

انما الكلمات سُفُن تمخر عباب الفضاء وترسو في موانىء كثيرة لتعود في النهاية الى المرفإ الذي ابحرت منه مشحونة بمثل ما شحنتموها . فاحترسوا بماذا تشحنون سفنكم لأنها من بعد ان تدور دورتها ستعود لتُفرغ شحنها امام بابكم .

كما هي المكنسة للبيت كذلك تفتيش القلب للقلب . ألا كنّسوا قلوبكم جيّداً .

قلبٌ نظيف – حصنٌ لا يُنال .

مثلما تغتذون بالناس وبسائر الكائنات هكذا يغتذون بكم . كونوا غذاء صالحاً للآخرين ، وإلاّ تسممتم بما تأكلون .

اذا كنتم في شك من أمر الخطوة الآتية فالزموا مكانكم .

كلّ ما تكرهونه يكرهكم . احبّوه ودعوه وشأنه . وبذلك تزيحون حجر عثرة من طريقكم .

ما لا يطاق هو ان تروا في الكون شيئاً لا يطاق .

اختاروا لأنفسكم احد امرين : امّا ان تملكوا كل شيء او لا شيء . اذ ليس من وسط بين الحالتين .

لكم في كل حجر عثرةٍ نذير . اقرأوا ما يقوله النذير وافهموه ، والا ذاك فكل حجر عثرة ينقلب الى مشكاة .

المستقيم اخو الاعوج . ذلك طريق مختصر ، وهذا طريق متعرّج . لا تيأسوا من الاعوج .

الصبر عافية اذا ما توكأ على الايمان . والا فهو فالج .

**الكينونة ، فالشعور ، فالفكر ، فالخيال ، فالمعرفة ، فالحرية** — هاكم بالترتيب اهمّ ادوار الحياة الانسانية .

اياكم والمديح تكيلونه او يكال لكم — وإنْ باخلاصٍ وعن جدارة . امّا المجاملة فسدّوا دون نفثاتها المسمومة آذانكم وكمّوا افواهكم .

ما دمتم تشعرون انكم تعطون فانتم في الواقع تقترضون كل ما تعطون.

اذا أعطيتم فاعلموا انكم لا تعطون الناس غير ما اؤتُمِنتم عليه للناس. اما ما كان مختصاً بكم — وبكم دون كل الناس — فذلك لا تستطيعون التخلي عنه لأحد ، حتى وان شئتم .

كونوا متزنين في كل ما تنوون وتفكّرون وتقولون وتعملون . واذ ذاك فانتم القسطاس والمكيال والذراع للناس .

ما من فقرٍ وما من غنىً . هنالك الحذق او الغباوة في استعمال الاشياء لا غير .

الفقير حقاً من اساء استعمال ما لديه . والغنيّ حقاً من احسن استعمال ما لديه .

ان كسرة من الخبز العفن قد تكون ثروة لا تقدّر. وان قبواً محشواً ذهباً قد يكون لصاحبه فقراً لا فقر بعده .

حيث تلتقي طرق كثيرة لا تقفوا مترددين في ايها تسلكون . كل الدروب يؤدي الى الله عند من قلبُه يفتش عن الله .

احترموا جميع انواع الحياة واشكالها. ففي اصغرها وادناها المفتاح الى اكبرها واسماها .

كل ما تخلقه الحياة خطير وجسيم - بل رائع وعجيب وابعد من ان يُضاهَى . فالحياة لا تتلهّى بالتوافه .

لا يخرج شيء من مصانع الطبيعة ما لم يكن حريّاً باهتمامها ومحبتها ودقة فنها الذي لا يوصف . أفلا يجب ان يكون حريّاً باحترامكم في الاقل؟

ان تكن النملة والبعوضة جديرتين باحترامكم ، فكيف باخوانكم في الناسوت ؟

لا تحتقروا احداً من الناس . فخير لكم ان تكونوا محتقَرين من جميع الناس من ان تحتقروا انساناً واحداً .

لأنكم اذا احتقرتم اي انسان احتقرتم الاله المشمول فيه . واذا احتقرتم الاله المشمول في اي انسان فكأنكم احتقرتموه في نفوسكم . وان انتم احتقرتم الاله المشمول فيكم - وهو دليلكم الى الميناء ، الى الاله الشامل - فكيف ترجون ان تبلغوا ميناءكم ؟

تطلّعوا الى فوق لتبصروا ما اسفل . وتطلّعوا الى اسفل لتبصروا ما فوق .

انحدروا على قدر ما ترتقون . وإلاّ فقدتم توازنكم .

انتم اليوم تلاميذ ، وغداً تصبحون معلّمين . فلكي تكونوا معلمين صالحين عليكم ان تبقوا تلاميذ صالحين .

لا تحاولوا استئصال الشر من العالم . حتى الاشواك والأعشاب البرية تصلح سماداً للأرض .

كثيراً ما تودي الحماسة الرعناء بصاحبها .

الأشجار الباسقة الجميلة لا تشكّل وحدها غابة . بل لا بدّ في الغابة من الادغال واللبلاب والطفيليات .

قد تُكرهون الرياء على الاختباء في ملاجىء تحت الأرض — ولكن الى حين . امّا ان تجبروه على البقاء في مخابئه ، او ان تحاصروه بالدخان لتخرجوه منها ثم تجندلوه فأمر عسير وجدّ عسير .

اذا استطعتم ان تردّوا مرائياً واحداً من بين ألف الى استقامة القلب واللسان فاعلموا انكم قد اجترحتم ما يقارب المعجزة ، واجركم اذ ذاك لأجر عظيم .

ليُضئ كل واحد منكم منارته صافيةً عالية من غير ان يدعو الناس

الى الاستنارة بها . فالذين يفتشون عن النور ليسوا في حاجة الى مناد يدعوهم الى النور . اولئك سيأتونكم من تلقاء انفسهم .

الحكمة عبء لمن كان نصف حكيم مثلما الجهل عبء للجاهل . ساعدوا نصف الحكيم على عبئه ودعوا الجاهل وشأنه . فنصف الحكيم اقدر على معونته منكم .

لسوف تمرّ بكم ايّام تُظلِم فيها طرقكم وتبدو لكم مقفرة من الرفاق، منيعة على الاقدام . تشدّدوا ولا تلتوينّ لكم ارادة ، وثابروا على السير . وخلف كل عطفة في الطريق ستجدون رفيقاً جديداً .

ما من سبيل في الفضاء الأوسع لم تطرقه ارجل حتى الآن . وحيثما تباعدت الآثار وتضاءلت فاعلموا ان الطريق امين ومستقيم ، وان يكن وعراً في بعض الأماكن وخلواً من السالكين .

يستطيع الدليل ان يدلّ على الطريق اولئك الذين يبحثون عن الطريق. ولكنه لا يستطيع اكراههم على المشي فيه . لا تنسوا انكم ادلاّء لا غير .

الدليل الصالح من كان له دليل صالح . اتكلوا على دليلكم .

كثيرٌ هم الذين سيقولون لكم : «أرُونا الطريق» . ولكن قليل ، وقليل جدّاً ، هم الذين سيتوسلون اليكم قائلين : «سيروا بنا في الطريق .»

في الطريق المؤدي الى التغلّب لا عِبرة للأعداد . فالقلّة اكثر من الكثرة .

ازحفوا حيث يتعذر عليكم المشي. وامشوا حيث يتعذر العدو. واعدوا حيث يتعذر التحليق. وحلّقوا حيث لا تشعرون بان المسكونة كلها قد اتكأت في احضانكم . امّا متى اتكأت المسكونة في أحضانكم فاسكنوا .

لا مرّةً ، ولا مرّتين ، ولا خمسين مرّة يجب عليكم ان تقبلوا عثرات الذين يحاولون اقتفاء آثاركم . بل عليكم ان تثابروا على اسعافهم الى ان تثقوا من انهم لن يعثروا فيما بعد، ذاكرين ابداً انكم ، انتم كذلك ، كنتم اطفالاً في عهد من عهود حياتكم .

ضمّخوا قلوبكم وافكاركم بطيب الغفران كيما تحلموا احلاماً مضمخة بالطيوب .

الحياة حمّى متفاوتة الانواع والدرجات بتفاوت الجواذب التي ينجذب بها الناس . فالناس كلهم في هذيان ابديّ . طوبى لمن يهذون بالفهم المقدس ، وبابنته الحرّية المقدسة .

حُمّيات الناس قابلة جميعها للتحويل بعضها الى بعض . فحمّى الحرب يمكن تحويلها الى حمّى السلم . وحمّى اختزان المال الى حمّى اختزان المحبّة . تلك هي كيمياء الروح التي انتم مدعوّون الى ممارستها وتلقينها للناس .

اكرزوا بالحياة للمائتين . وللأحياء بالموت . اما الذين يتوقون الى التغلّب فبشروهم بالخلاص من الاثنين .

عظيم هو البَوْن وشاسع بين مالك ومملوك . انتم لا تملكون إلاّ ما

تحبّون . امّا ما تكرهون فأنتم مماليكه . احذروا من ان تكونوا مماليك .

ان ارضكم هذه هي الأصغر سنّاً والأشدّ صخباً بين الأراضي السابحة في مهامه الفضاء والزمان .

حركة ساكنة – ايّ تناقض بين هاتين الكلمتين ! تلك ، مع ذلك ، هي حركة الاكوان في الله .

انظروا الى انامِلكم اذا شئتم ان تعرفوا كيف تتساوى الأشياء والمقادير التي ليست متساوية في الظاهر .

الحظ ألعوبة الحكماء . امّا الجهلاء فهم ألعوبة الحظ .

لا تتذمروا ابداً من شيء . فتذمّركم من اي شيء يجعل منه جلّاداً لكم . امّا تحملكم اياه عن رضىً فيجعلكم جلّاديه . واما فهمكم اياه فيجعل منه خادماً مطيعاً لكم وامينا .

كثيراً ما يتّفق لصيّاد ان يسدّد سهمه الى ظبي – مثلاً – فيخطىء الظبي ويقتل ارنباً ما كان يبصرها ولا كان يعرف انها موجودة هناك . انّ صياداً لبيباً ليقول لنفسه في مثل تلك الحالة : «حقّاً انني ما سددت سهمي الى الظبي ، بل الى الأرنب . ولقد ظفرت بطريدتي .»

احسنوا تسديد سهامكم ، وكل نتيجة تحصلون عليها – مهما تكن – هي نتيجة حسنة .

كل ما يصلكم هو لكم . وكل ما يتاهل في الوصول اليكم ليس حقيقاً بانتظاركم . دعوه ينتظركم .

لن تخطئوا هدفاً البتّة اذا كان ما تصوّبون اليه رغائبكم يصوّب اليكم رغائبه .

ان وراء كل هدف تخطئونه هدفاً آخر تدركونه ، وهو الاصلح لكم والاهمّ . فلا تجدنّ الخيبة الى قلوبكم سبيلاً .

الخيبة غُداف تحتضنه القلوب الضعيفة المائعة وتغذيه بجيف آمالها الجهيضة .

كل أمل يتحقق من آمالكم يصبح الأب والأمّ لآمال كثيرة نصيبها الاجهاض لا غير . تحرّزوا من ان تزوّجوا قلوبكم من الأمل ان شئتم ألا تحوّلوها الى مقابر .

من كل ما تقذفه سمكةٌ من البيض في الماء قد لا تثمر غير واحدة من مائة . امّا التسع والتسعون فلا تذهب ، مع ذلك ، هدراً . هكذا تبدو الطبيعة سخيّة الى حد العسف والتبذير . ولكن في عسفها وتبذيرها رويّة . كونوا كالطبيعة سخاءً ، وبذّروا قلوبكم وافكاركم – ولكن عن رويّة – في قلوب الناس وافكارهم .

لا تطلبوا ثواباً عن اي عمل من اعمالكم . فالعمل في ذاته ثواب للعامل الذي يحبّ عمله .

اذكروا الكلمة المبدعة والتوازن الكامل . فانتم عندما تبلغون ذلك التوازن بواسطة الفهم المقدس تصبحون متغلبين . واذ ذاك فأيديكم شريكة في العمل ليد الله .

وليبقَ سلام هذا الليل وسكينته يختلجان في قلوبكم الى ان تغرقوها في سكينة الفهم المقدس وسلامه .

هكذا علّمت نوحاً .

وهكذا اعلّمكم .

# الفصل السادس والثلاثون

عيد الفلك وطقوسه وتقاليده.
رسالة امير بتعار عن المصباح الحيّ

**روندا :** منذ عاد المعلم من بتعار وشمادم مقلوب الوجه قليل التدخل مع الرفاق . لكنه اذ اقترب عيد الفُلك تبدّلت أطواره فأشرقت أسرّتـه وانطلق لسانه فراح يدير بنفسه كل حركة في تنظيم العيد واعداد ممهداته الكثيرة.

وعيد الفلك ، كعيد الكرمة ، قـد امتد من يوم واحد الى اسبوع كامل يعجّ بالمهرجانات والمعارض بأصنافها . ولهذا العيد طقوس وتقاليـد جمّة أهمها ثلاثة : ذبح الثور الذي سيقدم محرقة ، ثم اضرام نار المحرقة، ثم اشعال المصباح الجديد من تلك النار ووضعه بدل المصباح القديم على المذبح . وكل هذه الطقوس منوط تتميمه بالمتقدّم تساعده في ذلك الجماهير . وفي الختام يشعل كل من الحضور شمعةً من المصباح الجديد ثم لا يلبث ان يطفئها ليحتفظ بها بقيـة السنة تعويذةً ضدّ العيون الشريرة . وقد درجت العادة ان يختم المتقدّم كل ذلك بخطبة يوجهها الى الجماهير .

ثم ان الذين يؤمّون الفُلك في عيدهـا ، مثل الذين يؤمّونها في يوم

الكرمة ، فلمّا يأتونها خالين من الهدايا . وأكثرهم يأتون بالثيران او الكباش او التيوس لتقدم محرقات مع نور الفُلك . لكنّ شمادم قد حوّر في تلك العادة فراح يقبل تلك البهائم ولكنه بدلاً من ذبحها وحرقها كان يضمّها حيّة الى قطعان الفلك .

أما المصباح الجديد فمن المعتاد ان يقدمه أحد الامراء او الاغنياء من جبال الآس واللبان. وإذ ان تقديمه يُعَدّ عندهم شرفاً عظيماً ، واذ ان المتزاحمين على ذلك الشرف كثرة ، فقد جرت العادة ان يُفصل الأمر بالقرعة ، وان تلقى القرعة من أجل مصباح العيد التالي في نهاية العيد الذي قبله. والامراء والاغنياء يتبارون في اتقان مصابيحهم والتفنن في صنعها. وكلهم يرغب في ان تفوق هديته سائر أسلافها من حيث الثمن ودقّة الصنعة وجمال المظهر .

وكان ان القرعة في السنة الماضية وقعت على أمير بتعار . والأمير مشهور بغناه ومشهود له بالكرم وحسن الذوق . لذاك كان الجميع يتوقعون بفارغ الصبر وصول المصباح الجديد ليمتعوا أبصارهم بجماله .

في عشيّة العيد دعا شمادم الرفاق والمعلم الى مخدعه وخاطبهم هكذا، موجهاً كلامه الى المعلم أكثر مما الى الرفاق :

**شمادم** : غداً نهارٌ مقدس. ويليق بنا ان نقدسه. مهما تكن الخصومات التي نشبت ما بيننا فيما مضى فلندفنها الآن وهنا . فالمهم ألاّ تبطىء الفلك في سيرها الى الأمام وألاّ تخفف من اندفاعها وحماستها . ومعاذ الله ان تقف عن السير .

أنا المتقدم في هذه الفلك . وعليّ وحدي يترتب واجب قيادتها . ولي

وحدي الحق في توجيه دفّتها . وذلك الواجب وهذا الحق انحدرا اليّ بالتسلسل مثلما سينحدران الى واحد منكم بعد انصرافي من هذه الدنيا . فاصطبروا نظير ما اصطبرت .

اذا كنت قد أسأت الى مرداد بشيء فليغفر لي اساءتي .

**مرداد** ما أساء شمادم الى مرداد . لكنه أساء الى شمادم شرّ اساءة .

**شمادم** : أليس شمادم حرّاً بأن يسيء الى شمادم ؟

**مرداد** حرّ بان يسيء ؟ ما أغرب ان تجتمع هاتان الكلمتان – الحرية والاساءة – في فم واحد. فكيف بهما تجتمعان في قلب واحد ! اذ انّ مَن أساء حتى الى نفسه أصبح رقيقاً لاساءته . ومن أساء الى الغير كان رقيق الرقيق . يا للاساءة ما أثقل وطأتها !

**شمادم** : ما دمتُ راضياً ان أتحمل ثقل اساءتي فما لك ولي ؟

**مرداد** أتقول ضرس نخرها السوس للفم الذي هي فيه : ما شأنك من وجعي ما دمت راضية ان أتحمّله ؟

**شمادم** : بالله دعني وشأني . دعني كما أنا . ردّ يدك الثقيلة عني ولا تجلدني بلسانك الحذق . دعني أعش ما بقي لي من الايام كما عشت حتى اليوم . اذهب وابنِ لك فُلكاً في غير هذا المكان ، ودع هذه الفُلك وشأنها . فالعالم يتسع لك ولي ولفلكك وفلكي . غداً هو يومي . فتنحّ عن طريقي ودعني أعمل عملي . وها أنا انذرك وانذر الكل انني لن أطيق أقلّ تدخل من أحد .

كونوا على حذر . فثأر شمادم لأفظع من ثأر الله . كونوا على حذر .

كونوا على حذر .

**روندا :** لما خرجنا من عند المتقدم هزّ المعلم رأسه هزّة لطيفة وقال :

**مرداد** ان قلب شمادم ما يزال قلب شمادم .

**روندا :** وتم كل شيء في الغد حسبما شاء شمادم الى ان جاء وقت تقديم المصباح الجديد وانارته . واذا برجل في لباس ابيض ، طويل القامة ، مهاب الطلعة ، يشق سبيله بين الجماهير المتراصة ويتقدم نحو المذبح . وفي الحال سرت وشوشة بين الجماهير بان الرجل ما كان غير رسول امير بتعار وانه يحمل المصباح الجديد . واشرأبت الاعناق وتوجهت الابصار الى المذبح علّها تلمح التحفة السنيّة .

وعندما بلغ الرجل المذبح همس شيئاً في اذن شمادم فانحنى المتقدم له انحناءةً كلّها وقار . ومن بعد ان خاطب الرجلُ الجمهورَ مبيناً ان لديه رسالة خاصة من امير بتعار وانه مكلف بتلاوتها اخرج من جيبه درجاً من رق الغزال واخذ يقرأ :

« من امير بتعار في الامس الى اخوانه من امراء وعامّة جبال الآس واللبان المجتمعين اليوم في الفلك — سلام ومحبة اخوية .

« اما بعد فليس بينكم من يجهل عظيم غيرتي على الفلك . واذ ان شرف تقديم المصباح الجديد كان من نصيبي هذه السنة فقد آليت على نفسي ان تكون تقدمتي آية في الفن والاتقان كما تليق بالفلك . فما وفّرت في سبيلها مالاً او

حيلة . وقد كلل النجاح جهودي . فجاء المصباح تحفة للابصار .

« لكن الله كان احنّ علي منّي . فقد اشفق على فقري من الفضيحة . اذ قادني من بعد ذلك الى مصباح نوره يبهر ولا يخبو ، وجماله يفوق كل جمال ولا يصدأ . فخجلت إذ ذاك من نفسي ايما خجل لانني كنت احسب مصباحي المصنوع بالايدي على شيء من القيمة والجمال . لذلك طرحته على المزبلة .

« وها انا ادعوكم الى الانتفاع بذلك المصباح الذي ما صنعته يد بشرية . بجماله متّعوا ابصاركم . ومن نوره اضيئوا شموعكم . فهو قريب ، وجدّ قريب منكم . اما اسمه ميرداد .

« جعلكم الله اهلاً للاستنارة بنوره . »

ما كاد الرسول يفوه بالكلمات الأخيرة حتى اختفى شمادم ، وكان واقفاً بجانب الرسول ، كأنه ما كان غير طيف من الاطياف . ومشى اسم المعلم من فم الى فم مشية الريح في غاب بكر . فقد راح الكل يهتفون له بغية ان يمتعوا ابصارهم بمنظر ذلك المصباح الحيّ الذي تكلم عنه امير بتعار كلاماً كله تشويق . وعمّا قليل بان المعلم يصعد درجات المذبح ثم يواجه الجمهور . وباسرع من لمحة الطرف هبطت السكينة على الجمع المتاوج فاصبح كأنه رجل واحد كله بصر وكله سمع وكله شوق .

عندها تكلم المعلم فقال :

# الفصل السابع والثلاثون

مرداد يحذّر الجماهير من طوفان النار والدم ويدلّهم
على طريق النجاة ويعلن فلكه على اهبة الاقلاع

**مرداد** ماذا تبتغون من مرداد ؟ أمصباحاً من الذهب الابريز المرصّع بالجواهر تزينون به المذبح ؟ لكن مرداد ، وان يكن ميناء ومنارة ، ليس بالصائغ ولا بالجوهريّ .

ام تبتغون نوراً يضيء لكل منكم الطريق الذي اختاره في معيشته كي يأمن العثار ؟ يا للغرابة ! اتكون لكم الشمس والقمر والنجوم وتزلّ ، مع ذلك ، اقدامكم فتهوي بكم الى الحضيض ؟ إذنْ كانت عيونكم غير صالحة لتقود خطاكم . او كان النور شحيحاً لعيونكم . ومَنْذا بينكم يرضى بان يفقأ عينيه ؟ ام منذا يتّهم الشمس بالشح ؟

ما نفعكم من عينٍ تحفظ القدَم من العثار في طريقها وتترك القلب يتعثر ويدمى اذ هو يفتش باطلاً عن طريق له ؟

بل ما نفعكم من نور يترع العين ويترك الروح فارغاً وفي ظلام ؟

ماذا تبتغون من مرداد ؟ إن يكن ما تبتغونه وتهتفون من اجله قلوباً

مبصرةً وارواحاً مغمورة بالنور فهتافكم لن يذهب ضياعاً . اذ لا همّ لمرداد من الانسان الاّ قلبه وروحه .

ما هي القرابين التي جئتم تقدمونها لهذا اليوم الذي هو يومُ تغلّبٍ مجيد؟ اجئتم بالثيران والكباش والتيوس ؟ فما ابخسها ثمناً تبتاعون به الخلاص! بل ما ابخس الخلاص الذي تريدون ابتياعه بمثل هذا الثمن !

ليس من المجد في شيء ان يتغلب انسان على تيس – بل هو الخزي كل الخزي ان يفتدي انسان دمه بدم تيس مسكين .

ماذا فعلتم لتساهموا في روح هذا اليوم الذي هو يوم الايمان الظافر والمحبة المتألهة ؟

اجل ، لقد تممتم طقوساً كثيرة وتممتم صلوات عديدة . لكن الشك كان رفيقاً لكل حركة من حركاتكم . والبغضاء كانت تقول « آمين » لكل صلاة من صلواتكم .

ألستم هنا لتحتفلوا بذكرى الغلبة على الطوفان؟ فكيف بكم تحتفلون بغلبة تركتكم مغلوبين؟ اذ انّ نوحاً يوم تغلّب على طوفانه ما تغلّب على طوفانكم ، بل دلّكم على طريق الغلبة. وها هي أعماقكم تعجّ وتثور وتكاد تبتلعكم . لا ، لستم حقيقين بهذا اليوم قبل ان تقهروا طوفانكم .

كل منكم طوفان في ذاته وسفينة وربّان . والى ان تخرجوا كل واحد من سفينته لتطأوا أرضاً بكراً ومغسولة من كل أدرانها لستم جديرين بان تحتفلوا بالنصر .

أتريدون ان تعرفوا كيف أصبح الانسان طوفاناً في ذاته ؟

عندما شطرت الارادة الكلية آدمَ الى شطرين كيما يتمكن من معرفة نفسه ووحدته مع الواحد الأحد عندئذٍ صار آدم آدمين – آدم الذكر وآدم الانثى . وعندئذ طغت عليه أمواج من الشهوات التي تولدها الثنائية . وهي شهوات لا يكاد يحصيها عدّ وليس لأشكالها وألوانها نهاية . وهي لا تشفق على ذاتها من التبذير ؛ وقوتها على التوليد والتناسل تكاد تكون بغير حدّ .

وها هو الانسان حتى اليوم محمول على غوارب أمواجها الصاخبة . ما تكاد موجة ترفعه الى الاعالي حتى تهبط به الاخرى الى القاع . ذاك لأن هذه الشهوات تجري أزواجاً أزواجاً نظير ما يسير الانسان أزواجاً. وهي وان تكن في الواقع متممة الواحدة للاخرى تبدو ، مع ذلك ، لعين الجاهل كما لو كانت نقائض بعضها لبعض ، وكأنها في صراع أبدي لا هوادة فيه ولا هدنة على الاطلاق .

ذلكم هو الطوفان الذي حتم على الانسان مقاومته ساعةً فساعة ويوماً فيوماً طوال مرحلة الثنائية الشاقّة .

ذلكم هو الطوفان الذي تتفجر ينابيعه من قلوبكم وتكاد تجرفكم بسيلها العارم .

ذلكم هو الطوفان الذي لن يزيّن قوسُ قزحه سماءكم حتى تتحد سماؤكم بارضكم في قران ابدي فتصبحا واحداً .

منذ ان زرع آدم نفسه في حوّاء والناس يجنون إعصاراً تلو إعصار وطوفاناً تلو طوفان . فما ان تتفاقم شهوات من صنف واحد فتشتد صولتها وترجح كفتها حتى يفقد الناس التوازن في حياتهم ويطغى عليهم طوفان هذه

الشهوات او تلك الى ان تستردّ حياتهم توازنها . ولكنّ هذا التوازن لن يستتب لهم حتى يتعلموا ان يعجنوا جميع شهواتهم في معجن المحبّة كيما يخبزوا منها خبز الفهم المقدس .

قد يكون الطوفان الذي غمر الارض في عهد نوح اكبر طوفان عرفته البشرية حتى اليوم . لكنه ما كان الاول ولن يكون الاخير من سلسلة الطوفانات . فطوفان النار والدم الذي عمّا قريب سيجتاح الارض سيفوقه عنفاً وخراباً . العلكم اتخذتم العدّة لتعوموا ، ام انتم قانعون بان تغرقوا مع الغارقين ؟

اسفاه ! إنكم لفي شغل عن كل ذلك . وشغلكم الدائم هو ان تزيدوا فوق اوزاركم اوزاراً ، وان تخدّروا دماءكم بالالذات المثقلة بالألم ، وان تختطّوا لكم سبلًا في مهامه لا ماء فيها ولا حياة ، وان تفتشوا في عرصات اهراء الحياة عن حبوب تلتقطونها بين اقذار البهائم من غير ان يخطر لكم ولو ان تلوصوا من خصاص الابواب على ما في داخل الاهراء من الخيرات . فكيف لكم الا تغرقوا يا ايها التائهون ؟

انتم المولودين لتحلّقوا في الاعالي ، لتجوبوا رحاب الفضاء اللامتناهي ، لتلفّوا المسكونة باجنحتكم ، قد سجنتم انفسكم في اقنان ضيقة من التقاليد والمعتقدات التي تهشم اجنحتكم وتضعف ابصاركم وتحجّر عضلاتكم . فكيف لكم ان تقهروا الطوفان يا ايها التائهون ؟

وانتم ، وقد صوّر الله فيكم صورته ومثّل مثاله ، توشكون ان تمحوا الصورة والمثال . فقد مسختم قامتكم الالهية الى حدّ انكم لا تميزونها عن

فاماتكم بشيء، وطليتم وجهكم الرباني بالوحل ثم حجبتموه بالمساخر البهلوانية. فكيف لكم ان تجابهوا الطوفان – طوفانكم – يا ايها التائهون ؟

انكم ما لم تعملوا بنصح مرداد سُدّت في وجهكم مسالك الارض فما كانت الارض لكم غير جدث ؛ وأُغلقت ابواب السماء فما كانت السماء لكم اكثر من كفن. حين ان الارض أعدت من البدء لتكون لكم مهداً ملكياً، والسماء لتكون لكم عرشاً.

اقول لكم ثانية : انتم الطوفان ، وانتم السفينة ، وانتم الربّان . اما الطوفان فشهواتكم . واما السفينة فجسدكم . واما الربّان فايمانكم . وهذه كلها تتخللها ارادتكم . ومن فوق هذه كلها يهيمن فهمكم .

فاهتموا لسفينتكم كيما تكون متينة وصالحة لمصادمة الامواج . ولكن حذار من ان تبذّروا كل ايامكم على السفينة وحدها لئلا يفوتكم وقت الملاحة فيدهمكم داهم الفناء ويقضي عليكم وعلى سفينتكم قضاء لا مردّ له .

ثم اهتموا لربانكم كيما يكون رزيناً وغنيّ الخبرة باسرار الملاحة .

ولكن الأهمّ من ذلك وهذا ان تبحثوا عن ينابيع الطوفان وان تدربوا ارادتكم على تجفيفها واحداً بعد واحد . واذ ذاك تهدأ ثورة الطوفان ورويداً رويداً تتلاشى .

ألا احرقوا الشهوة قبل ان تحرقكم .

لا تتفحصوا فم الشهوة لتروا ما اذا كان مسلّحاً بأنياب مسمومة ام بقوارض معسولة . فالنحلة التي تجني من الازهار شهدها تجني سمّها كذلك .

ولا تتأملوا وجه الشهوة أجميل هو أم قبيح . ان وجه الحية كان أجمل

في عين حواء من وجه الله .

ولا تَزِنوا الشهوة في ميزان. فمن منكم يقابل بين وزن الجبل ووزن عقد من اللؤلؤ ؟ والحق ان عقد اللؤلؤ لأثقل من الجبل بكثير .

ثم ان من الشهوات ما يصدح في النهار صدح البلابل ، ويغرد أغاريد السماء . ولكنه يفحُّ فحيح الأفاعي ، ويعضّ ويمزّق تحت ستار الليل . ومنها ما هو سمين بالافراح والملذات ، الاّ انه لا يلبث ان ينقلب الى هياكل عظميّة تتدلى منها سرائد الاحزان والاوجاع . ومنها ما يبدو لكم وديع الطرف سهل المراس ولكنه يتحوّل بغتة الى ذئاب خاطفة وضباع نهمة . ومنها ما تفوح منه رائحة ولا رائحة الفلّ والياسمين ما دمتم بعيدين عنه . الا انكم حالما تلمسونه تفوح منه عليكم روائح اشد كراهة من روائح الجيف والجعلان .

لا تغربلوا شهواتكم بغية فصل الصالح منها عن الطالح . ذلكم عمل من الباطل بمكان . لان الصالح لا يحيا بغير الطالح . والطالح لا يمد جذوره الاّ في تربة الصالح .

واحدة هي شجرة الخير والشر . وواحدة هي ثمرتها . وعبثاً تحاولون ان تذوقوا الخير من غير ان تذوقوا الشر في آن معاً .

انّ ثدياً ترضعون منه الحياة لهو عين الثدي الذي منه ترضعون الموت . وان يداً تهزكم في السرير لهي عين اليد التي تحفر لكم الرمس .

تلكم ، ايها التائهون ، هي طبيعة الثنائية . فلا يخطرنّ لأحدكم ببال ان يتصدّى لها برأي او باعتراض . وحذار ثم حذار ان تحاولوا شقّها الى شطرين لتأخذوا الشطر الذي تستسيغون وتطرحوا الآخر جانباً . ذلكم هو باطل

الاباطيل وقبض الريح .

اتريدون ان تصبحوا اسياد الثنائية بدلاً من ان تكونوا عبيدها ؟ إذنْ روّضوا انفسكم على اقتبالها كما لو كانت بريئة من كل خير وشرّ .

اما تَخَثّر لبن الحياة والموت واحْمَضّ في افواهكم ؟ اما آن لكم ان تشطفوا افواهكم بمحلول جديد لا هو بالخير ولا هو بالشر لانه اقوى وانقى من الاثنين ؟ اما آن لكم ان تتوقوا الى الثمرة التي ليست بالحلوة ولا بالمرّة لانها ما نمت على شجرة الخير والشر ؟

اتودّون ان تنعتقوا من براثن الثنائية ؟ إذن فاقتلعوا شجرتها – شجرة الخير والشر – من قلوبكم ، اقتلعوها بجذعها وجذورها كيما يتاح لبذرة الحياة الربّانية ، بذرة الفهم المقدس المتسامي فوق كل خير وكل شرّ ، ان تنمو وتثمر مكانها .

تقولون : انها لرسالة قاتمة عابسة تلك التي يحملها الينا مرداد . فهي تسلبنا لذّة الأمل بالغد . وهي تجعلنا في الحياة بمثابة شهودٍ بُكْمٍ لا شأن لهم في كل ما يشهدون . في حين اننا نرغب في النضال مهما تكن قيمة الأمر المناضَل من اجله . وما احلى الصيد والقنص وان لم تكن الطريدة غير منام او خيال .

هكذا تقولون في قلوبكم ، ناسين ان قلوبكم ليست قلوبكم على الاطلاق ما دامت اعنتها في ايدي شهواتكم من خير ومن شرّ .

اما اذا شئتم ان تملكوا اعنّة قلوبكم فعليكم ان تعجنوا كل شهواتكم – صالحها وطالحها – في معجن واحد هو معجن المحبة كيما تخبزوها

في تنّور واحد هو تنّور الفهم المقدس حيث تلتئم المتناقضات كلها في الله .

لِيَكُفَّنَّ كلُّ واحدٍ منكم منذ الآن عن تعكير عالم تناقم عكره .

كيف تأملون ان تنشلوا ماءً زلالاً من بئرٍ لا تنفكون تطرحون فيها كل انواع الاقذار والرجاسات ؟ ام كيف لحوض من الماء ان يبقى صافياً ما دمتم تحركون الماء فيه بغير انقطاع ؟

لا تلقوا شباككم في عالمٍ كَدِرٍ بغية صيد الصفاء لئلا تصطادوا الكدر لا غير .

ولا تلقوها في عالم تتأكله الضغينة املاً بان تصطادوا المحبة لئلا تصطادوا الضغينة لا غير .

ولا تلقوها في عالم يمرح فيه الموت راجين ان تحظوا بالحياة لئلا تصطادوا الموت لا غير .

فالعالم لا يدفع لكم نقداً غير نقده . ونقد العالم ابداً ذو وجهين .

انكم لن تستدرّوا من الحجر لبناً . ولن تبنوا من البقر هياكل .

ولكن القوا شباككم في ذاتكم الالهية الغنية ابداً بسلام الفهم المقدس.

لا تطالبوا العالم بما لا تطالبون به انفسكم . ولا تطالبوا انساناً بغير ما ترون من حقه ان يطالبكم به .

وما عسى ان يكون ذلك الشيء الذي اذا ما ظفرتم به من العالم مكّنكم من الغلبة على الطوفان ومن الوصول الى أرضٍ بتول طلّقت الألم واقترنت بالسماء قران محبة أبدية وسلام سرمديّ وفهم إلهي ؟

ألعله وفرة المتاع والصيت والسلطان ؟ أم هو المجد العالمي وما يحفّ

به من النجلة والاحترام ؟ أم هو الطموح تكلل بالظفر ، والأمل المنشود تحقق ؟ ولكن جميع هذه ينابيع تغذّي طوفانكم . ألا انبذوها من أفكاركم . ألا اصرفوها عنكم .

كونوا هادئين كيما تكونوا نيّرين .

وكونوا نيّرين كيما تنفذ أبصاركم الى قلب العالم .

فانتم اذا ما نفذتم الى قلب العالم أبصرتم كل ما فيه من قحط وأدركتم انه عاجز عن اعطائكم الحرية والسلام والحياة التي تنشدون .

جلّ ما يستطيع العالم ان يعطيكم إياه هو الجسد او الفُلك التي بها تتمكّنون من مخر عباب الحياة الثنائية . وذلك لا يجرؤ انسان ان يتمنن عليكم به . فالمسكونة مكلّفة بتأديته لكم وتأدية أوَده . أمّا حفظه قوياً وخالياً من الغشّ والفساد ليكون صالحاً لمقاومة الطوفان – مثلما كانت فُلك نوح ؛ وأما كبح ما فيه من الكواسر والضواري على حدّ ما كبح نوح الضواري والكواسر التي كانت في فلكه – فأمر منوط بكم ، وبكم لا غير .

وأما ان يكون لكم إيمان مستيقظ العين والقلب ليدير الدفّة ؛ إيمان لا يتزعزع بالارادة الكلية التي لن يقودكم سواها الى أبواب عدن السعيدة – فأمر منوط بكم كذلك ، وبكم لا غير .

وأما ان تكون لكم ارادة لا تعرف الجزع – ارادة التغلّب والوصول الى شجرة الفهم المقدس التي هي شجرة الحياة – فأمر منوط بكم كذلك ، وبكم لا غير .

الانسان سائر الى الله . فما من وجهة أخرى جديرة بآلامه . وأيّ بأس

في ان يكون طريقه مفروشاً بالعواصف والزوابع ؟ فالايمان النقيّ القلب ، الحادّ البصيرة والبصر ، لَيتَمَنطق بالزوبعة ويمتطي العاصفة .

ألا سابقوا الزمان . فكل ساعة تقتلونها بالتذبذب والبطالة ساعة حبلى بالوجع . والناس ، حتى أكثرهم حركة ، متذبذبون في الغالب وبطّالون .

أنتم بُناة سُفنٍ ، كل على طريقته . وأنتم بحّارون ، كل في سبيله . ذاك هو العمل المعَدُّ لكم منذ الأزل: أن تمخروا عباب ذلك المحيط اللامتناهي الذي هو أنتم لتظفروا منه بلحن الوجود الصامت الذي هو الله .

لكل شيء محورٌ منه يشعّ وعليه تدور حركته . فان تكن الحياة — حياتكم — دائرةٌ محورُها الوصول الى الله ، فكل أعمالكم يجب ان تتمركز في ذلك المحور فتنطلق منه وتدور عليه . وإلا كانت تذبذباً وبطالة ، حتى وإن سحّ منها عَرَقكم بلون الدم .

وإذ لا شغل لمرداد على الارض الا ان يقود الانسان الى ميراثه الالهي فها هو قد أعدّ لكم فُلكاً عجيبة الصنع والقيادة . وهو ما صنعها من الخشب القطراني ، ولا طلاها بالقار ، ولن يجعلها مأوى للضب والضبع والغراب. لكنه بناها من الفهم المقدس الذي لا منارة الاّه يهتدي بها كل من تاق الى ميراثه . وهي لن تحمل خوابي نبيذ ومعاصر عنب بل قلوباً طافحة بالمحبة للكل . ولن تكون مثقلة بالعقارات والرياش والفضة والذهب والجواهر بل بنفوس طلّقت ظلالها وتوشحت بوشاح النور وحرية الفهم المقدس .

فليتقدم كل من رغب في قطع الامراس التي تربطه بالشاطىء ، وكل من أراد ان يتوحد ، وكل من تاق الى التغلب على نفسه .

فالفلك جاهزة ،

والريح راهبة ،

والبحر في ركود .

هكذا علمّت نوحاً .

وهكذا أعلمكم .

**نوندا** : عندما وقف المعلم عن الكلام سرَت في السامعين حركة أشبه ما تكون بحفيف الأوراق . فكأنهم تنفسوا وكانوا قد خنقوا أنفاسهم وهم يصغون الى المعلم .

وقبل ان ينحدر المعلم عن درجات المذبح دعا السبعة اليه وطلب ان يأتوه بالقيثار . واذ جاؤوا بها أخذ يرنم معهم نشيد الفلك الجديدة . وسرعان ما التقط الجمهور اللحن ، ومن ألوف الأفواه تعالى القرار أمواجاً جارفة الى السماء :

«ربانكِ الله ، سيري ، فلكَ مرداد !»

***

هنا ينتهي ذلك القسم من الكتاب

الذي أبيحَ لي نشره .

أمّا ما بقي فساعته

لم تأتِ بعد.

م . ن.

# فهرست

## حكاية الكتاب



## الكتاب

للمؤلف

الآباء والبنون
الغربال
المراحل
جبران خليل جبران
زاد المعاد
كان ما كان
همس الجفون
البيادر
كرم على درب
لقاء
الاوثان
صوت العالم
مذكرات الارقش
النور والديجور
مرداد « بالانكليزية »
جبران خليل جبران « بالانكليزية »
مذكرات الارقش « بالانكليزية »

